تفسير سورة الزُّخرف

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

يقول تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: أنزلناه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب فصيحاً واضحاً، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾: بين شرفه في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم بريء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٨٠] وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المُحدِثَ لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾. وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾: اختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس: ومجاهد وأبو صالح، والسدي، واختاره ابن جرير. وقال قتادة في قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهتدي من قَدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. ثم قال تعالى ـ مسلياً لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه، وآمراً له بالصبر عليهم ـ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ أي: في شيع الأولين، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ أي: يكذبون ويسخرون به. وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد. كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات في ذلك كثيرة. وقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أي: جعلناهم عبرة لم بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الإحزاب: ٦٢].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾.

يقول تعالى: ولئن سألت ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً قراراً ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طرقا بين الجبال والأودية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم. وقوله: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج. ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك أي من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: على ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما سخر لكم ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين. ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شَريك بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً، رضي الله عنه، أتى بدابة، فلما وضع رجله على الرّكاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾، ثم حمد الله ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي. ثم ضحك، فقلت له: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، ثم ضحك. فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال: «يعجب الرب من عبده إذا قال: رب، اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث أبي الأحوص ـ زاد النسائي: ومنصور ـ عن أبي إسحاق السَّبيعي، عن علي بن ربيعة الأسدي الوالبي، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد قال عبد الرحمن بن مَهْدِيّ، عن شعبة: قلت لأبي إسحاق السَّبيعي: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب. فلقيت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من علي بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدي، عن علي بن ربعية الوالبي، به.

حديث عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أردفه على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثاً، وحمد ثلاثاً، وهلل الله واحدة. ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرىء مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله، ﷻ، عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك». تفرد به أحمد.

حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي الزبير، عن علي بن عبد الله البارقي، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾. ثم يقول: «اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم، أصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون». وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث ابن جريج، والترمذي من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبي الزبير، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن عمرو بن

الحكم بن ثوبان، عن أبي لاس الخزاعي قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج. فقلنا: يا رسول الله، ما نرى أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا في ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما آمركم، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله ﷻ». أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خَلَف.

حديث آخر في معناه: قال أحمد: حدثنا عتَّاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ يعني ابن المبارك ـ أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرني محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، ﷻ، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم».

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة «الأنعام»، في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

ثم قال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾؟، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله ﷻ؟ ثم قال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أَوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله ﷻ؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحَلْى إلا زينةٌ من نقيصةٍ ... يتمّمُ من حُسْنٍ إذا الحسْنُ قَصَّرا
وأمَّا إذَا كان الجمالُ موفَّرا ... كحُسْنِك، لم يَحْتَجْ إلى أن يَزوَّرا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هي بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة». وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أي: بذلك، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: **أحدها:** جَعْلُهم لله ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً. **والثاني:** دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. **الثالث:** عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء. **الرابع:** احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قَدَراً والحجة إنما تكون بالشرع، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال في هذه الآية ـ بعد أن ذكر حجتهم هذه ـ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أي: يكذبون ويتقولون. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِن قَبْلِهِ﴾؟ أي: من قبل شركهم، ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٣٥] أي: لم يكن ذلك. ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم﴾ أي: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل. ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله.

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى في قصصهم، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؟ أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها. وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. ورُوي نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: المشركين، ﴿وَءَابَاءَهُمْ﴾ أي: فتطاول عليهم العمر في ضلالهم، ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة والنذارة. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفراً وحسداً وبغياً، ﴿وَقَالُوا﴾ أي: كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد. وقد ذكر غير واحد منهم: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي. وقال مالك عن زيد بن أسلم، والضحاك، والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفي. وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي. وعنه أيضاً: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي. وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدي: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي. والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان. قال الله تعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله، ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ثم قال

تعالى مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾. وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، قيل: معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً. وهو راجع إلى الأول. ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ـ هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم ـ ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: سلالم ودرجاً من فضة ـ قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: وابن زيد، وغيرهم ـ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: يصعدون، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أي: أغلاقاً على أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾، أي: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أي: وذهبا: قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد. ثم قال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى أي: يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح. وقد ورد في حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء»، أسنده البغوي من رواية زكريا بن منظور، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ، فذكره. ورواه الطبراني من طريق زمعة بن صالح، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ: «لو عدلت الدنيا جناح بعوضة، ما أعطى كافراً منها شيئاً». ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى من نسائه، فرآه عمر على رمال حصير قد أثر بجنبه فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: «أوَ في شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا». وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟». وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذي وابن ماجه، من طريق أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»، قال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يتعامى، ويتغافل ويعرض، ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به، ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءانا» يعني: القرين والمقارن. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجُرَيري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سَفَع بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل ها هنا تغليباً، كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، والعسران. قاله ابن جرير وغيره. ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخنساء تبكي أخاها:

ولولا كثرةُ الباكين حولي ... على قتلاهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثلَ أخي ولكن ... أسلّي النفسَ عنه بالتأسّي

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسي وتسلية ولا تخفيف. ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم. وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك. ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهبت أنت، ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم. هذا معنى قول السدي، واختاره ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ فقال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النقمة، ولم يُرِ الله نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه، حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا ورأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم ﷺ. قال: وذُكر لنا أن رسول الله ﷺ أُرِيَ ما يصيب أمته من بعده، فما رُئِي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله ﷻ. وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً. وفي الحديث: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون».

ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه. وأورد البغوي هاهنا حديث الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخاري. وقيل: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له. وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾؟ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: في قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا». وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء جُمِعوا له. واختار ابن جرير الأول، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء، والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاماً، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا على اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه

الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له في العبادة بقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموماً، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يَعِدُون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل. وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٥]. وقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذي هو مهين». قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾؟ على الاستفهام. قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون ـ عليه اللعنة ـ أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدي: يعني: ضعيف. وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عيي حصر. قال السدي: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدي، وابن جرير: يعني عيي اللسان. وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فيه وهو صغير. وهذا الذي قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الأبصار والألباب. وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خِلْقةً وخلقاً وديناً. وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، ﷿، أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له في ذلك في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أسخطونا. وقال الضحاك، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وغيرهم من المفسرين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبي عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾. وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة، فقال:

تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. وقال عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة، يعني قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾: قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرة لمن بعدهم.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة والضحاك، والسدي: يضحكون، أي: أعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون. وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْري التميمي، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، قد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُه، سلوا محمداً: أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، ﷻ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الآيات [الأنبياء: ٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وذكر ابن جرير من رواية العَوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً، فقال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي رَزِين، عن أبي يحيى ـ مولى ابن عقيل الأنصاري ـ قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غداً. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنت صادقاً كان آلهتهم كما تقولون؟ قال: فأنزل الله: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾. قلت: ما يَصِدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم ابن أبي النجود، عن أبي أحمد مولى الأنصار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾: قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: «وقالوا آآلهتنا خير أم هذا»، يعنون محمداً ﷺ. وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم، ليسوا يعتقدون صحتها. وقد قال الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أورثوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. وقد رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به. ثم قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال. وقد روى من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملي، حدثنا مؤمَّل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي، عن أبي أمامة ـ قال حماد: لا أدري رفعه أم لا؟ ـ قال: ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كبير، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء. وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي: بدلكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، قال السدي: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضاً، كما يخلف بعضكم بعضا. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: تقدم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك: ما بُعث به عيسى، عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفي هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البصري وسعيد بن جبير: أن الضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنه لعَلَم للساعة» أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى ابن مريم، عليه السلام، قبل يوم القيامة إماماً عادلاً، وحكماً مقسطاً.

وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكوا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ أي: فيما أخبركم به ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: من اتباع الحق ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾. قال ابن جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية. وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

تَـرَّاكُ أمْـكِـنَـةٍ إذا لـم أرْضَـهـا ... أو يَـعْـتَـلِـق بَـعْـضَ الـنـفـوس حِـمَـامُـهـا

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر البعض عنها. وهذا الذي قاله محتمل. وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤﴾ أي: أنا

وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، ﷻ، وحده. وقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله ـ وهو الحق ـ ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ أي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين لها فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم. وقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، ﷻ، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، رضي الله عنه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أني ملاقيك، اللهم فلا تضله بعدي حتى تريه مثل ما أريتني، وترضى عنه كما رضيت عني. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً وبكيت قليلاً. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليثن أحدكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم، إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني، وتسخط عليه كما سخطت علي. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين. وروى الحافظ ابن عساكر ـ في ترجمة هشام بن أحمد ـ عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقة، عن معافى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا في الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذي أحببته في».

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم. قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادي مناد: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: زبادي آنية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي: آنية الشراب، أي: من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرى، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «تشتهيه الأنفس» ـ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: طيب الطعم والريح وحسن المنظر. قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد، عن عكرمة ـ مولى ابن عباس ـ أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد يفسح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب، ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس في الأخرى، مثله شهوته في آخرها كشهوته في أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى، لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة: أنا أبا أمامة، رضي الله عنه، حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم ـ وذكر الجنة ـ فقال: «والذي نفس محمد بيده، ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر، فيتحول الطعام الذي في فيه على الذي اشتهى» ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن ـ هو ابن موسى ـ حدثنا سُكَيْن بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضرير، عن شهر بن حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قال: من ذهب ـ في كل صحفة لون ليس في الأخرى، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء، في كل إناء لون ليس في الآخر، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، وإنه يقول: يا رب، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، لم ينقص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة، سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض». ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ أي: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرىء، حدثنا يوسف بن يعقوب ـ يعني الصفار ـ حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ليكون له شكراً». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الله تعالى الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم هذه النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاءً وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ﴾ وهو: خازن النار. قال البخاري: حدثنا حجاج بن مِنهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾: قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبي حاتم. أي: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها. ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا عليه أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم. وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي: سرهم وعلانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟

يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: لو فرض هذا لعبدته على ذلك؛ لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]. و قال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: الآنفين. ومنهم سفيان الثوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: الجاحدين، من عبد يعبد. وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدثني ابن أبي ذئب عن أبي قُسَيْط، عن بَعْجة بن زيد الجهني؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها ـ وهو رجل منهم أيضاً ـ فولدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبد عثمان، رضي الله عنه، أن بعث إليها: ترد ـ قال يونس: قال ابن وهب: عبد: استنكف. و قال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الوُدِّ يَصْرِمْ خَلِيلَهُ ... وَيَعْبَدْ عَلَيْهِ لا مَحَالَةَ ظَالِمَا

وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر، فليتأمل. اللهم إلا أن يقال: «إن» ليست شرطاً، وإنما هي نافية كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي. وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: أول من عبده ووحده وكذبكم.

وقال البخاري: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد. والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع. وقال السدي في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده، بأن له ولداً، لكن لا ولد له. وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية. ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له، فلا ولد له. وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم في ذلك اليوم. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] أي: هو المدعو الله في السموات والأرض. ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً، ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. وقوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: وقال محمد: قيله، أي: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا

رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذي قلناه هو معنى قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير. قال البخاري: وقرأ عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ: «وقال الرسول يا رب». وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، قال: فأبر الله قول محمد. وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ يشكوا قومه إلى ربه ﷻ. ثم حكى ابن جرير في قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] والثاني: أن يقدر فعل، وقال: قيلَه. والثانية: الخفض، وقيلِهِ، عطفا على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، تقديره: وعلم قيله. وقوله: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيىء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب.

آخر تفسير سورة الزخرف

❀ ❀ ❀

(٤٣) سورة الزخرف مكية وآياتها تسع وثمانون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن
كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ، وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون ، فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ﴾ .

اعلم أن قوله (حم ، والكتاب المبين) يحتمل وجهين (الأول) أن يكون التقدير هذه (حم والكتاب المبين) فيكون القسم واقعاً على أن هذه السورة هي سورة (حم) ويكون قوله (إنا جعلناه قرآناً عربياً) ابتداء لكلام آخر (الثانى) أن يكون التقدير هذه (حم) .

ثم قال (والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً) فيكون المقسم عليه هو قوله (إنا جعلناه قرآناً عربياً) وفى المراد بالكتاب قولان (أحدهما) أن المراد به القرآن ، وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن أنه جعله عربياً (الثانى) أن المراد بالكتاب الكتابة والخط أقسم بالكتابة لكثرة ما فيها من المنافع ، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط فإن المتقدم إذا استنبط علماً وأثبته فى كتاب ، وجاء المتأخر ووقف عليه أمكنه أن يزيد فى استنباط الفوائد ، فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد وانتهت إلى الغايات العظيمة ، وفى وصف الكتاب بكونه مبيناً من وجوه (الأول) أنه المبين

الذين أنزل إليهم لأنه بلغتهم ولسانهم (والثانى) المبين هو الذى أبان طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة .

واعلم أن وصفه بكونه مبيناً مجاز لأن المبين هو الله تعالى وسمى القرآن بذلك توسعاً من حيث إنه حصل البيان عنده .

أما قوله ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الأول) أن الآية تدل على أن القرآن مجعول ، والمجعول هو المصنوع المخلوق ، فإن قالوا لم لا يجوز أن يكون المراد أنه سماه عربياً ؟ قلنا هذا مدفوع من وجهين (الأول) أنه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أن من سماه عجمياً أن يصير عجمياً وإن كان بلغة العرب ومعلوم أنه باطل (الثانى) أنه لو صرف الجعل إلى التسمية لزم كون التسمية مجعولة ، والتسمية أيضاً كلام الله ، وذلك يوجب أنه فعل بعض كلامه ، وإذا صح ذلك فى البعض صح فى الكل (الثانى) أنه وصفه بكونه قرآناً ، وهو إنما سمى قرآناً لأنه جعل بعضه مقروناً بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعاً معمولا (الثالث) أنه وصفه بكونه عربياً ، وهو إنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما اختصت بمسمياتها بوضع العرب واصطلاحاتهم ، وذلك يدل على كونه معمولا ومجعولا (والرابع) أن القسم بغير الله لا يجوز على ماهو معلوم فكان التقدير حم ورب الكتاب المبين ، وتأكد هذا أيضاً بما روى أنه عليه السلام كان يقول يارب طه ويس ويارب القرآن العظيم (والجواب) أن هذا الذى ذكرتموه حق ، وذلك لأنكم إنما استدللتم بهذه الوجوه على كون هذه الحروف المتوالية والكلمات المتعاقبة محدثة مخلوقة ، وذلك معلوم بالضرورة ومن الذى ينازعكم فيه ، بل كان كلامكم يرجع حاصله إلى إقامة الدليل على ماعرف ثبوته بالضرورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كلمة لعل للتمنى والترجى وهو لا يليق بمن كان عالماً بعواقب الأمور ، فكان المراد منها ههنا : كى أى أنزلناه قرآناً عربياً لكى تعقلوا معناه ، وتحيطوا بفحواه ، قالت المعتزلة فصار حاصل الكلام (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) لأجل أن تحيطوا بمعناه ، وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض والدواعى (والثانى) أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليهتدى به الناس ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من الكل الهداية والمعرفة ، خلاف قول من يقول إنه تعالى أراد من البعض الكفر والإعراض . واعلم أن هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور ، وأجوبتنا عنه مشهورة ، فلا فائدة فى الإعادة والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لعلكم تعقلون) يدل على أن القرآن معلوم وليس فيه شىء مبهم مجهول خلافاً لمن يقول بعضه معلوم وبعضه مجهول .

ثم قال تعالى (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي (أم الكتاب) بكسر الألف والباقون بالضم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير في قوله وإنه عائد إلى الكتاب الذي تقدم ذكره في (أم الكتاب لدينا) واختلفوا في المراد بأم الكتاب على قولين : (فالقول الأول) إنه اللوح المحفوظ لقوله (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) .

واعلم أن على هذا التقدير فالصفات المذكورة ههنا كلها صفات اللوح المحفوظ .

﴿ الصفة الأولى ﴾ أنه (أم الكتاب) والسبب فيه أن أصل كل شيء أمه والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، ثم نقل إلى سماء الدنيا ، ثم أنزل حالا بحسب المصلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنه « إن أول ماخلق الله القلم ، فأمره أن يكتب مايريد أن يخلق » فالكتاب عنده فإن قيل وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان ؟ قلنا إنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات ، ثم إن الملائكة يشاهدون أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب ، استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه .

﴿ الصفة الثانية ﴾ من صفات اللوح المحفوظ قوله (لدينا) هكذا ذكره ابن عباس ، وإنما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتاباً جامعاً لأحوال جميع المحدثات ، فكأنه الكتاب المشتمل على جميع مايقع في ملك الله وملكوته ، فلا جرم حصل له هذا التشريف ، قال الواحدي ، ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير إنه لدينا في أم الكتاب .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ كونه (علياً) والمعنى كونه عالياً عن وجوه الفساد والبطلان وقيل المراد كونه عالياً على جميع الكتب بسبب كونه معجزاً باقياً على وجه الدهر .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ كونه (حكيما) أي محكما في أبواب البلاغة والفصاحة . وقيل حكيم أي ذو حكمة بالغة ، وقيل إن هذه الصفات كلها صفات القرآن على ماذكرناه (والقول الثاني) في تفسير أم الكتاب أنه الآيات المحكمة لقوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب) ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم .

قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي (إن كنتم) بكسر الألف تقديره : إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحاً ، وقيل إن بمعنى إذ كقوله تعالى (وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين) وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط ، وقرأ الباقون بفتح الألف على التعليل أي لأن كنتم مسرفين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء والزجاج يقول ضربت عنه وأضربت عنه أي تركته وأمسكت عنه وقوله (صفحاً) أي إعراضا والأصل فيه أنك توليت بصفحة عنقك وعلى هذا فقوله (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً) تقديره : أفنضرب عنكم إضرابنا أو تقديره أفنصفح عنكم صفحا ، واختلفوا

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾
لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى

فى معنى الذكر فقيل معناه أفنرد عنكم ذكر عذاب الله ، وقيل أفنرد عنكم النصائح والمواعظ ، وقيل أفنرد عنكم القرآن ، وهذا استفهام على سبيل الإنكار ، يعنى إنا لا نترك هذا الإعذار الإنذار بسبب كونكم مسرفين ، قال قتادة : لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة إذا عرفت هذا فنقول هذا الكلام يحتمل وجهين : (الأول) الرحمة يعنى أنا لا نترككم مع سوء اختياركم بل نذكركم ونعظكم إلى أن ترجعوا إلى الطريق الحق (الثانى) المبالغة فى التغليظ يعنى أتظنون أن تتركوا مع ما تريدون ، كلا بل نلزمكم العمل وندعوكم إلى الدين ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب وأقدمتم على القبيح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف الفاء فى قوله (أفنضرب) للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر .

ثم قال تعالى (وكم أرسلنا من نبي فى الأولين وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون) والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء ، فلا ينبغى أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء لأن المصيبة إذا عمت خفت .

ثم قال تعالى (فأهلكنا أشد منهم بطشاً) يعنى أن أولئك المتقدمين الذين أرسل الله إليهم الرسل كانوا أشد بطشاً من قريش يعنى أكثر عدداً وجلداً ، ثم قال (ومضى مثل الأولين) والمعنى أن كفار مكة سلكوا فى الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم من الخزى مثل ما نزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال (وكلا ضربنا له الأمثال) وكقوله (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) إلى قوله (وضربنا لكم الأمثال) والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ، والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ،

سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ .

اعلم أنه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون وتقدم أيضاً ذكر الأنبياء فقوله (ولئن سألتهم) يحتمل أن يرجع إلى الأنبياء ، ويحتمل أن يرجع إلى الكفار إلا أن الأقرب رجوعه إلى الكفار ، فبين تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم ، والمقصود أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث ، وقد تقدم الإخبار عنهم ، ثم إنه تعالى ابتدأ دالا على نفسه بذكر مصنوعاته فقال (الذى جعل لكم الأرض مهداً) ولو كان هذا من جملة كلام الكفار لوجب أن يقولوا : الذى جعل لنا الأرض مهداً ، ولأن قوله فى أثناء الكلام (فأنشرنا به بلدة ميتاً) لا يتعلق إلا بكلام الله ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلا يقول الذى بنى هذا المسجد فلان العالم فيقول السامع لهذا الكلام الزاهد الكريم كأن ذلك السامع يقول أنا أعرفه بصفات حميدة فوق ما تعرفه فأزيد فى وصفه . فيكون النعتان جميعاً من رجلين لرجل واحد . إذا عرفت كيفية النظم فى الآية فنقول إنها تدل على أنواع من صفات الله تعالى .

﴿ الصفة الأولى ﴾ كونه خالقاً للسموات والأرض والمتكلمون بينوا أن أول العلم بالله العلم بكونه محدثاً للعالم فاعلا له ، فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقاً ، وهذا إنما يتم إذا فسرنا الخلق بالإحداث والإبداع .

﴿ الصفة الثانية ﴾ العزيز وهو الغالب وما لأجله يحصل المكنة من الغلبة هو القدرة وكان العزيز إشارة إلى كمال القدرة :

﴿ الصفة الثالثة ﴾ العليم وهو إشارة إلى كمال العلم ، واعلم أن كمال العلم والقدرة إذا حصل كان الموصوف به قادراً على خلق جميع الممكنات ، فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفاً بهاتين الصفتين ثم فرع عليه سائر التفاصيل .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (الذى جعل لكم الأرض مهداً) وقد ذكرنا فى هذا الكتاب أن كون الأرض مهداً إنما حصل لأجل كونها واقفة ساكنة ولأجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها فى الزراعة وبناء الأبنية وفى كونها ساترة لعيوب الأحياء والأموات ، ولما كان المهد موضع الراحة للصبى جعل الأرض مهداً لكثرة ما فيها من الراحات .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله (وجعل لكم فيها سبلا) والمقصود أن انتفاع الناس إنما يكمل

إذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم ، ولولا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة وإلا لما حصل هذا الانتفاع .

ثم قال تعالى ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ يعنى المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنة من الاهتداء ، والثانى المعنى لتهتدوا إلى الحق فى الدين .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله تعالى (والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً) وههنا مباحث (أحدها) أن ظاهر هذه الآية يقتضى أن الماء ينزل من السماء . فهل الأمر كذلك أو يقال إنه ينزل من السحاب وسمى نازلا من السماء لأن كل ما سماك فهو سماء ؟ وهذا البحث قد مر ذكره بالاستقصاء (وثانيها) قوله (بقدر) أى إنما ينزل من السماء بقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم بل بقدر حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم (وثالثها) قوله (فأنشرنا به بلدة ميتاً) أى خالية من النبات فأحييناها وهو الإنشار .

ثم قال ﴿ كذلك تخرجون ﴾ يعنى أن هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة كهذه الأرض التى أنشرت بعد ما كانت ميتة ، وقال بعضهم بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الأرض بماء كالمنى كما تنبت الأرض بماء المطر ، وهذا الوجه ضعيف لأنه ليس فى ظاهر اللفظ إلا إثبات الإعادة فقط دون هذه الزيادة .

﴿ الصفة السابعة ﴾ قوله تعالى (والذى خلق الأزواج كلها) قال ابن عباس الأزواج الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى ، وقال بعض المحققين كل ماسوى الله فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضى والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف ، وكونها أزواجاً يدل على كونها ممكنة الوجود فى ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم ، فأما الحق سبحانه فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال سبحانه (والذى خلق الأزواج كلها) أى كل ما هو زوج فهو مخلوق ، فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية ، وأقول أيضاً العلماء بعلم الحساب بينوا أن الفرد أفضل من الزوج من وجوه (الأول) أن أقل الأزواج هو الإثنان وهو لا يوجد إلا عند حصول وحدتين فالزوج يحتاج إلى الفرد والفرد وهو الوحدة غنية عن الزوج والغنى أفضل من المحتاج (الثانى) أن الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد هو الذى لا يقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة فكان الفرد أفضل من الزوج (الثالث) أن العدد الفرد لا بد وأن يكون أحد قسميه زوجا والثانى فرداً فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معاً ، وأما العدد الزوج فلابد وأن يكون كل واحد من قسميه زوجا والمشتمل على القسمين أفضل من الذى

لا يكون كذلك (الرابع) أن الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلا للقسم الآخر فى الذات والصفات والمقدار ، وإذا كان كل ما حصل له من الكمال فمثله حاصل لغيره لم يكن هو كاملا على الإطلاق ، أما الفرد فالفردية كائنة له خاصة لا لغيره ولا لمثله فكماله حاصلا له لا لغيره فكان أفضل (الخامس) أن الزوج لا بد وأن يكون كل واحد من قسميه مشاركا للقسم الآخر فى بعض الأمور ومغايراً له فى أمور أخرى وما به المشاركة غير ما به المخالفة فكل زوجين فهما ممكنا الوجود لذاتيهما وكل ممكن فهو محتاج فثبت أن الزوجية منشأ الفقر والحاجة ، وأما الفردانية فهي منشأ الاستغناء والاستقلال لأن العدد محتاج إلى كل واحد من تلك الوحدات ، وأما كل واحد من تلك الوحدات فإنه غنى عن ذلك العدد ، فثبت أن الأزواج ممكنات ومحدثات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقبل بنفسه الغنى عن كل ما سواه ، فلهذا قال سبحانه (والذى خلق الأزواج كلها) .

﴿ الصفة الثامنة ﴾ قوله (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) وذلك لأن السفر إما سفر البحر أو البر ، أما سفر البحر فالحامل هو السفينة ، وأما سفر البر فالحامل هو الأنعام وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يقل على ظهورها ؟ أجابوا عنه من وجوه (الأول) قال أبو عبيدة التذكير لقوله ما والتقدير ما تركبون (الثانى) قال الفراء أضاف الظهور إلى واحد فيه معنى الجمع بمنزل الجيش والجند ، ولذلك ذكر وجمع الظهور (الثالث) أن هذا التأنيث ليس تأنيثاً حقيقياً لجاز أن يختلف اللفظ فيه كما يقال عندى من النساء من يوافقك .

﴿ السؤال الثانى ﴾ يقال ركبوا الأنعام وركبوا فى الفلك وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون ؟ (والجواب) غلب المتعدى بغير واسطة لقوته على المتعدى بواسطة .

ثم قال تعالى (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) ومعنى ذكر نعمة الله ، أن يذكروها فى قلوبهم ، وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر ، وخلق الرياح ، وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أى جانب شاء وأراد ، فإذا تذكروا أن خلق البحر ، وخلق الرياح ، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته ليس من تدبير ذلك الإنسان ، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير ، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى ، فيحمله ذلك على الإنقياد والطاعة له تعالى ، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التى لا نهاية لها .

ثم قال تعالى (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) .

واعلم أنه تعالى عين ذكراً معيناً لركوب السفينة ، وهو قوله (بسم الله مجراها ومرساها) وذكراً آخر لركوب الأنعام ، وهو قوله (سبحان الذى سخر لنا هذا) وذكر عند دخول المنازل

ذكراً آخر ، وهو قوله (رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) وتحقيق القول فيه أن الدابة التي يركبها الإنسان ، لابد وأن تكون أكثر قوة من الإنسان بكثير ، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان ، ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة في خلقها الظاهر ، وفي خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع ، أما خلقها الظاهر : فلأنها تمشي على أربع قوائم ، فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الإنسان عليه ، وأما خلقها الباطن ، فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحيث تصير منقادة للانسان ومسخرة له ، فإذا تأمل الإنسان في هذه العجائب وغاص بعقله في بحار هذه الأسرار ، عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة غير المتناهية ، فلابد وأن يقول (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) قال أبو عبيدة : فلان مقرن لفلان ، أي ضابط له . قال الواحدي : وكان اشتقاقه من قولك ضرب له قرناً ، ومعنى أنا قرن لفلان ، أي مثاله في الشدة ، فكان المعنى أنه ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفلك وأن نضبطها ، فسبحان من سخرها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته ، روى صاحب الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان إذا وضع رجليه في الركاب قال « بسم الله ، فاذا استوى على الدابة ، قال الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا ، إلى قوله لمنقلبون» وروى القاضي في تفسيره عن أبي مخلد أن الحسن بن علي عليهما السلام : رأى رجلا ركب دابة ، فقال سبحان الذي سخر لنا هذا ، فقال له مابهذا أمرت ، أمرت أن تقول : الحمد لله الذي هدانا للاسلام ، الحمد لله الذي من علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، ثم تقول : سبحان الذي سخر لنا هذا ، وروى أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا سافر وركب راحلته ، كبر ثلاثا ، ثم يقول : سبحان الذي سخر لنا هذا ، ثم قال : اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى ، اللهم هون علينا السفر واطوعنا بعد الأرض ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة على الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلنا » وكان إذا رجع إلى أهله يقول « آيبون تائبون ، لربنا حامدون » قال صاحب الكشاف : دلت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه (الأول) أنه تعالى قال (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم) فذكره بلام كي ، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منا هذا الفعل ، وهذا يدل على بطلان قولهم إنه تعالى أراد الكفر منه ، وأراد الإصرار على الإنكار (الثاني) أن قوله (لتستووا) يدل على أن فعله معلل بالأغراض (الثالث) أنه تعالى بين أن خلق هذه الحيونات على هذه الطبائع إنما كان لغرض أن يصدر الشكر على العبد ، فلو كان فعل العبد فعلا لله تعالى ، لكان معنى الآية إني خلقت هذه الحيوانات لأجل أن أخلق سبحان الله في لسان العبد ، وهذا باطل ، لأنه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ في لسانه بدون هذه الوسايط .

واعلم أن الكلام على هذه الوجوه معلوم ، فلا فائدة في الإعادة .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا
يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ
غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ
سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

ثم قال تعالى (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) واعلم أن وجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك فى خطر الهلاك ، فإنه كثيراً ما تنكسر السفينة ويهلك الإنسان وراكب الدابة أيضاً كذلك لأن الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب ، وإذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك ، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت ، وأن يقطع أنه هالك لا محالة ، وأنه منقلب إلى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره ، حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان قد وطن نفسه على الموت .

قوله تعالى : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) بين أنهم مع إقرارهم بذلك ، جعلوا له من عباده جزءا ، والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة عقولهم . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم فى رواية أبى بكر : جزء بضم الزاى والهمزة فى كل القرآن وهما لغتان ، وأما حمزة فإذا وقف عليه قال جزا بفتح الزاى بلا همزة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى المراد من قوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) قولان : (الأول) وهو المشهور أن المراد أنهم أثبتوا له ولداً ، وتقرير الكلام أن ولد الرجل جزء منه ، قال عليه السلام « فاطمة بضعة منى » ولأن المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ، ثم يترقى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الاصل ، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه ،

فقوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) معنى جعلوا حكموا وأثبتوا وقالوا به ، والمعنى أنهم أثبتوا له جزءاً ، وذلك الجزء هو عبد من عباده .

واعلم أنه لو قال وجعلوا لعباده منه جزءاً ، أفاد ذلك أنهم أثبتوا أنه حصل جزء من أجزائه فى بعض عباده وذلك هو الولد ، فكذا قوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) معناه وأثبتوا له جزءاً ، وذلك الجزء هو عبد من عباده ، والحاصل أنهم أثبتوا لله ولداً ، وذكروا فى تقرير هذا القول وجوهاً أخر ، فقالوا الجزء هو الأنثى فى لغة العرب ، واحتجوا فى إثبات هذه اللغة ببيتين فالأول

قوله : إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب قد تجزىء الحرة المذكاة أحياناً

وقوله : زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن فى أبياتها غزل

وزعم الزجاج والأزهرى وصاحب الكشاف : أن هذه اللغة فاسدة ، وأن هذه الأبيات مصنوعة (والقول الثانى) فى تفسير الآية أن المراد من قوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) إثبات الشركاء لله ، وذلك لأنهم لما أثبتوا الشركاء لله تعالى فقد زعموا أن كل العباد ليس لله ، بل بعضها لله ، وبعضها لغير الله ، فهم ماجعلوا لله من عباده كلهم ، بل جعلوا له منهم بعضاً وجزءاً منهم ، قالوا والذى يدل على أن هذا القول أولى من الأول ، أنا إذا حملنا هذه الآية على إنكار الشريك لله ، وحملنا الآية التى بعدها على إنكار الولد لله ، كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين .

قوله تعالى : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ﴾ .

واعلم أنه تعالى رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه ، وذلك لأنه تعالى بين أن إثبات الولد لله محال ، وبتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتاً أيضاً محال ، أما بيان أن إثبات الولد لله محال ، فلأن الولد لابد وأن يكون جزءاً من الوالد ، وماكان له جزء كان مركباً ، وكل مركب ممكن ، وأيضاً ماكان كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق ، وماكان كذلك فهو عبد محدث ، فلا يكون إلهاً قديماً أزلياً .

(وأما المقام الثانى) وهو أن بتقدير ثبوت الولد فإنه يمتنع كونه بنتاً ، وذلك لأن الإبن أفضل من البنت ، فلو قلنا إنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده ، لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله ، وذلك مدفوع فى بديهة العقل ، يقال اصفيت فلاناً بكذا ، اى آثرته به إيثاراً حصل له على سبيل الصفاء من غير ان يكون له فيه مشارك ، وهو كقوله (افأصفاكم ربكم بالبنين) ثم بين نقصان البنات من وجوه (الأول) قوله (وإذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) والمعنى ان الذى بلغ حاله فى النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى ! وعن بعض العرب ان امراته وضعت انثى ، فهجر البيت الذى فيه المرأة ، فقالت :

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا   غضبان أن لا نلد البنينا
ليس لنا من أمرنا ماشينا   وإنما نأخذ ما أعطينا

وقوله (ظل) أى صار ، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة ، قال صاحب الكشاف : قرىء مسود ومسواد ، والتقدير وهو مسود ، فتقع هذه الجملة موقع الخبر (والثانى) قوله (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم ينشؤ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين على مالم يسم فاعله ، أى يربى ، والباقون ينشأ ، بضم الياء وسكون النون وفتح الشين ، قال صاحب الكشاف : وقرىء يناشأ ، قال ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء ، المغالاة بمعنى الإغلاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد من قوله ﴿أو من ينشأ فى الحلية﴾ التنبيه على نقصانها ، وهو أن الذى يربى فى الحلية يكون ناقص الذات ، لأنه لولا نقصان فى ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية ، ثم بين نقصان حالها بطريق آخر ، وهو قوله (وهو فى الخصام غير مبين) يعنى أنها إذا احتاجت إلى المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين ، وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها ، ويقال قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بما كان حجة عليها ، فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها ، فكيف يجوز إضافتهن بالولدية إليه !.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن التحلى مباح للنساء ، وأنه حرام للرجال ، لأنه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان ، وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه فى الذل وذلك حرام ، لقوله عليه السلام « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله ، والتزين بزينة التقوى ، قال الشافعى :

تدرعت يوماً للقنوع حصينة   أصون بها عرضى وأجعلها ذخرا
ولم أحذر الدهر الخئون وإنما   قصاراه أن يرمى بى الموت والفقرا
فأعددت للموت الإله وعفوه   وأعددت للفقر التجلد والصبرا

قوله تعالى : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد بقوله : جعلوا ، أى حكموا به ، ثم قال (أشهدوا خلقهم) وهذا استفهام على سبيل الإنكار ، يعنى أنهم لم يشهدوا خلقهم ، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بالدلائل العقلية ، واما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على إثبات النبوة ، وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة ، فلا سبيل لهم إلى إثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية ، فثبت انهم ذكروا هذه الدعوى من غير ان عرفوه لابضرورة ولا بدليل ، ثم إنه تعالى هددهم فقال (ستكتب شهادتهم ويسألون) وهذا يدل على ان القول بغير دليل منكر ، وان التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد . قال اهل

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ
﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم

التحقيق : هؤلاء الكفار كفروا فى هذا القول من ثلاثة أوجه (أولها) إثبات الولد لله تعالى (وثانيها) أن ذلك الولد بنت (وثالثها) الحكم على الملائكة بالأنوثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر : عند الرحمن بالنون ، وهو اختيار أبي حاتم واحتج عليه بوجوه (الأول) أنه يوافق قوله (إن الذين عند ربك) وقوله (ومن عنده) (والثانى) أن كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه (والثالث) أن التقدير أن الملائكة يكونون عند الرحمن ، لا عند هؤلاء الكفار ، فكيف عرفوا كونهم إناثاً ؟ وأما الباقون فقرأوا عباد جمع عبد وقيل جمع عابد ، كقائم وقيام ، وصائم وصيام ، ونائم ونيام ، وهى قراءة ابن عباس ، واختيار أبى عبيد ، قال لأنه تعالى رد عليهم قولهم : إنهم بنات الله ، وأخبر أنهم عبيد ، ويؤيد هذه القراءة قوله (بل عباد مكرمون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ نافع وحده : (آأشهدوا) بهمزة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة ، أى [أ]أحضروا خلقهم ، وعن نافع غير ممدود على مالم يسم فاعله ، والباقون : أشهدوا ، بفتح الألف ، من [أ]شهدوا ، أى أحضروا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية ، فقال أما قراءة عند بالنون ، فهذه العندية لا شك أنها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة ، ولفظة (هم) توجب الحصر ، والمعنى أنهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم ، فوجب كونهم أفضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر ، وأما من قرأ عباد جمع العبد ، فقد ذكرنا أن لفظ العباد مخصوص فى القرآن بالمؤمنين فقوله (هم عباد الرحمن) يفيد حصر العبودية فيهم ، فاذا كان اللفظ الدال على العبودية دالا على الفضل والشرف ، كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالا على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم . وذلك يوجب كونهم افضل من غيرهم والله اعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، ام آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مهتدون ،

مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

اعلم أنه تعالى حكى نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم ، وهو أنهم قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة فى أن كفر الكافر يقع بإرادة الله من وجهين (الأول) أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) وهذا صريح قول المجبرة ، ثم إنه تعالى أبطله بقوله (مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) فثبت أنه حكى مذهب المجبرة ، ثم أردفه بالإبطال والإفساد ، فثبت أن هذا المذهب باطل ، ونظيره قوله تعالى فى سورة الأنعام (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا) إلى قوله (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) ، (والوجه الثانى) أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم (فأولها) قوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) ، (وثانيها) قوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) ، (وثالثها) قوله تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) فلما حكى هذه الأقاويل الثلاثة بعضها على إثر بعض ، وثبت أن القولين الأولين كفر محض . فكذلك هذا القول الثالث يجب أن يكون كفراً ، واعلم أن الواحدى أجاب فى البسيط عنه من وجهين (الأول) ما ذكره الزجاج : وهو أن قوله تعالى (ما لهم بذلك من علم) عائد إلى قولهم الملائكة إناث وإلى قولهم الملائكة بنات الله (والثانى) أنهم أرادوا بقولهم (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) أنه أمرنا بذلك ، وأنه رضى بذلك ، وأقرنا عليه ، فأنكر ذلك عليهم ، فهذا ما ذكره الواحدى فى الجواب ، وعندى هذان الوجهان ضعيفان (أما الأول) فلأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين ، وبين وجه بطلانهما ، ثم حكى بعده مذهباً ثالثاً فى مسألة أجنبية عن المسألتين الأوليين ، ثم حكم بالبطلان والوعيد فصرف هذا الإبطال عن هذا الذى ذكره عقيبه إلى كلام متقدم أجنبى عنه فى غاية البعد (وأما الوجه الثانى) فهو أيضاً ضعيف ، لأن قوله (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) ليس فيه بيان متعلق بتلك المشيئة ، والإجمال خلاف الدليل ، فوجب أن يكون التقدير لو شاء الله ألا نعبدهم ما عبدناهم ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشىء لا نتفاء غيره ، فهذا يدل على أنه لم توجد مشيئة الله لعدم عبادتهم ، وهذا عين مذهب المجبرة ، فالإبطال والإفساد يرجع إلى هذا

المعنى ، ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال إنهم إنما ذكروا ذلك الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية ، فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم ، وأجاب صاحب الكشاف عنه من وجهين (الأول) أنه ليس فى اللفظ مايدل على أنهم قالوا مستهزئين ، وادعاء مالا دليل عليه باطل (الثانى) أنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء وهى : أنهم (جعلوا له من عباده جزءاً) وأنهم جعلوا الملائكة إناثاً ، وأنهم قالوا (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) فلو قلنا بأنه إنما جاء الذم على القول الثالث لأنهم ذكروه على طريق الجد ، وجب أن يكون الحال فى حكاية القولين الأولين كذلك ، فلزم أنهم لو نطقوا بتلك الأشياء على سبيل الجد أن يكونوا محقين ، ومعلوم أنه كفر ، وأما القول بأن الطعن فى القولين الأولين إنما توجه على نفس ذلك القول ، وفى القول الثالث لاعلى نفسه بل على إيراده على سبيل الاستهزاء ، فهذا يوجب تشويش النظم ، وإنه لايجوز فى كلام الله .

واعلم أن الجواب الحق عندى عن هذا الكلام ماذكرناه فى سورة الأنعام ، وهو أن القوم إنما ذكروا هذا الكلام لأنهم استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على أنه لايجوز ورود الأمر بالإيمان فاعتقدوا أن الأمر والإرادة يجب كونهما متطابقين ، وعندنا أن هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم إن الله يريد الكفر من الكافر بل لأجل أنهم قالوا لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالإيمان ، وإذا صرفنا الذم والطعن إلى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية ، وتمام التقرير مذكور فى سورة الأنعام والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) وتقريره كأنه قيل إن القوم يقولون لما أراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما أوجب ذلك الكفر وجب أن يقبح منه أن يأمره بالإيمان لأن مثل هذا التكليف قبيح فى الشاهد فيكون قبيحاً فى الغائب فقال تعالى (ما لهم بذلك من علم) أى مالهم بصحة هذا القياس من علم ، وذلك لأن أفعال الواحد منا وأحكامه مبنية على رعاية المصالح والمفاسد لأجل أن كل ماسوى الله فإنه ينتفع بحصول المصالح ويستضر بحصول المفاسد ، فلاجرم أن صريح طبعه وعقله يحمله على بناء أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح ، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لاينفعه شىء ولا يضره شىء فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبنى أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم فقوله تعالى (ما لهم بذلك من علم) أى مالهم بصحة قياس الغائب على الشاهد فى هذا الباب علم .

ثم قال (إن هم إلا يخرصون) أى كما لم يثبت لهم صحة ذلك القياس فقد ثبت بالبرهان القاطع كونهم كذابين خراصين فى ذلك القياس لأن قياس المنزه عن النفع والضر من كل الوجوه على المحتاج المنتفع المتضرر قياس باطل فى بديهة العقل .

ثم قال (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) يعنى أن القول الباطل الذى حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل ، أما إثباته بالعقل فهو باطل لقوله (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) وأما إثباته بالنقل فهو أيضاً باطل لقوله (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) والضمير فى قوله من قبله للقرآن أو الرسول ، والمعنى أنهم [هل] وجدوا ذلك الباطل فى كتاب منزل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه ، وأن يتمسكوا به ، والمقصود منه ذكره فى معرض الإنكار ، ولما ثبت أنه لم يدل عليه لادليل عقلى ولادليل نقلى وجب أن يكون القول به باطلا .

ثم قال تعالى (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول البتة بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحض ، ثم بين أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلا من قديم الدهر فقال (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (على إمة) بالكسر وكلتاهما من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التى تؤم أى تقصد كالرحلة للمرحول إليه ، والإمة الحالة التى يكون عليها الآم وهو القاصد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو لم يكن فى كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت فى إبطال القول بالتقليد وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا فى إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلى ولا بدليل نقلى ، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعانى فى معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ، ومما يدل عليه أيضاً من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق وذلك لأنه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقاً إلى الحق لوجب كون الشىء ونقيضه حقاً ومعلوم أن ذلك باطل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى بين أن الداعى إلى القول بالتقليد والحامل عليه ، إنما هو حب التنعم فى طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله (إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة) والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة أى أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهى ويبغضون تحمل المشاق فى طلب الحق ، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة ، فلهذا قال عليه السلام « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

ثم قال تعالى لرسوله (قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) أى بدين أهدى من دين آبائكم فعند هذا حكى الله عنهم أنهم قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾

هو أهدى (فإنا بما أرسلتم به كافرون) وإن كان أهدى مما كنا عليه ، فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة ، فلهذا قال تعالى (فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) والمراد منه تهديد الكفار والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ، بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف ، ثم بين أنه طريق باطل ومنهج فاسد ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد ، أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين : (الأول) أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل فنقول : إما أن يكون تقليد الآباء فى الأديان محرماً أو جائزاً ، فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد ، وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه السلام ، وذلك لأنهم ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده ، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذى هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء ، وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول إنه ترك دين الآباء ، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء ، وإذا كان كذلك وجب تقليده فى ترك تقليد الآباء ووجب تقليده فى ترجيح الدليل على التقليد ، وإذا ثبت هذا فنقول : فقد ظهر أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلا ، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلا ، فهذا طريق رفيق فى إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية .

(الوجه الثانى)فى بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى فى الدنيا وفى الدين ، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل لاجرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً فى عقبه إلى يوم القيامة ، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت ، فثبت أن الرجوع

إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة ، وأن التقليد والإصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه فى الدنيا خير ولا أثر ، فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أولى ، فهذا بيان المقصود الأصلى من هذه الآية ، ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية .

أما قوله (إننى براء مما تعبدون) فقال الكسائى والفراء والمبرد والزجاج (براء) مصدر لايثنى ولايجمع مثل عدل ورضا وتقول العرب أنا البراء منك والخلاء منك ونحن البراء منك والخلاء ولا يقولون البراآن ولا البراؤن لأن المعنى ذوا البراء وذوو البراء فان قلت برىء وخلى ثنيت وجمعت .

ثم استثنى خالقه من البراءة فقال (إلا الذى فطرنى) والمعنى أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله عز وجل ، ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن فيكون المعنى لكن الذى فطرنى فإنه سيهدين أى سيرشدنى لدينه ويوفقنى لطاعته .

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام فى آية أخرى أنه قال (الذى خلقنى فهو يهدين) وحكى عنه ههنا أنه قال (سيهدين) فأجمع بينهما وقدر كأنه قال : فهو يهدين وسيهدين ، فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال (وجعلها) أى وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى قوله (إننى براء مما تعبدون) جارياً مجرى (لاإله) وقوله (إلا الذى فطرنى) جارياً مجرى قوله (إلا الله) فكان مجموع قوله (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) جارياً مجرى قوله (لاإله إلا الله) ثم بين تعالى أن إبراهيم جعل هذه الكلمة باقية فى عقبه أى فى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده (لعلهم يرجعون) أى لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ، وقيل وجعلها الله ، وقرىء كلمة على التخفيف وفى عقبه .

ثم قال تعالى (بل متعت هؤلاء وآباءهم) يعنى أهل مكة وهم عقب إبراهيم بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن (ورسول مبين) بين الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والبينات فكذبوا به وسموه ساحراً وما جاء به سحراً وكفروا به ، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا فى الحجة اغتروا بطول الإمهال وامتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق ، قال صاحب الكشاف إن قيل ما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء ؟ قلنا كأن الله سبحانه اعترض على ذاته فى قوله (وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) فقال بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة فى الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد ، وأراد بذلك المبالغة فى تعييرهم لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً فى زيادة الشكر والثبات على التوحيد لاأن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً ، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب فى ذلك بمعروفك وإحسانك إليه ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسىء لاتقبيح فعل نفسه .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون ﴾ .

اعلم أن هذا هو (النوع الرابع) من كفرياتهم التى حكاها الله تعالى عنهم فى هذه السورة ، وهؤلاء المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف فلا يليق إلا برجل شريف ، وقد صدقوا فى ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهى أن الرجل الشريف هو الذى يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به ، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال فى إحدى القريتين وهى مكة والطائف ، قال المفسرون والذى بمكة هو الوليد بن المغيرة والذى بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفى ، ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين (الأول) قوله (أهم يقسمون رحمت ربك) وتقرير هذا الجواب من وجوه (أحدها) أنا أوقعنا التفاوت فى مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره فالتفاوت الذى أوقعناه فى مناصب الدين والنبوة بأن لا يقدروا على التصرف فيه كان أولى (وثانيها) أن يكون المراد أن اختصاص ذلك الغنى بذلك المال الكثير إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا إليه ، فكيف يليق بالعقل أن نجعل إحساننا إليه بكثرة المال حجة علينا فى أن نحسن إليه أيضاً بالنبوة ؟ (وثالثها) إنا لما أوقعنا التفاوت فى الإحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق فلم لا يجوز أيضاً أن نوقع التفاوت فى الإحسان بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق ؟ فهذا تقرير الجواب ، ونرجع إلى تفسير الألفاظ فنقول الهمزة فى قوله (أهم يقسمون رحمت ربك) للانكار الدال على التجهيل والتعجب من إعراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة ، ثم ضرب لهذا مثالا فقال (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا أوقعنا هذا التفاوت بين العباد فى القوة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول ، وإنما فعلنا ذلك لأنا لو سوينا بينهم فى كل هذه الأحوال لم يخدم أحد

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

أحداً ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره وحينئذ يفضى ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا ، ثم إن أحداً من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا ، فإن عجزوا عن الإعراض عن حكمنا فى أحوال الدنيا مع قلتها ودناءتها ، فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا فى تخصيص العباد بمنصب النبوة والرسالة ؟ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) يقتضى أن تكون كل أقسام معايشهم إنما تحصل بحكم الله وتقديره ، وهذا يقتضى أن يكون الرزق الحرام والحلال كله من الله تعالى (والوجه الثانى) فى الجواب ما هو المراد من قوله (ورحمت ربك خير مما يجمعون) ؟ ، وتقريره أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته فى الدين فهذه الرحمة خير من الأموال التى يجمعها لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد .

قوله تعالى : ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ، ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون﴾ وفى الآية مسائل :



﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التى ذكروها بناء على تفضيل الغنى على الفقير بوجه ثالث وهو أنه تعالى بين أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله وبين حقارتها بقوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) والمعنى لولا أن يرغب الناس فى الكفر إذا رأوا الكافر فى سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم (أحدها) أن يكون سقفهم من فضة (وثانيها) معارج أيضاً من فضة عليها يظهرون (وثالثها) أن نجعل لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً أيضاً من فضة عليها يتكئون .

ثم قال (وزخرفاً) وله تفسيران (أحدهما) أنه الذهب (والثانى) أنه الزينة ، بدليل قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) فعلى التقدير الأول يكون المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهباً كثيراً ، وعلى الثانى أنا نعطيهم زينة عظيمة فى كل باب ، ثم بين تعالى أن كل ذلك متاع الحياة الدنيا ، وإنما سماه متاعا لأن الإنسان يستمتع به قليلا ثم ينقضى فى الحال ، وأما الآخرة فهى باقية دائمة ، وهى عند الله تعالى وفى حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى ، وحاصل الجواب أن أولئك الجهال ظنوا أن الرجل الغنى أولى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره ، فبين تعالى أن المال والجاه حقيران عند الله ، وأنهما على شرف الزوال لحصولهما لا يفيد حصول الشرف والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (سقفاً) بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لإرادة الجنس ، كما فى قوله (فخر عليهم السقف من فوقهم) والباقون سقفاً على الجمع واختلفوا فقيل هو جمع سقف ، كرهن ورهن ، قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما ، وقيل السقف جمع سقوف ، كرهن ورهون وزبر وزبور ، فهو جمع الجمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم) فقوله (لبيوتهم) بدل اشتمال من قوله (لمن يكفر) قال صاحب الكشاف : قرىء معارج ومعاريج ، والمعارج جمع معرج ، أو اسم جمع لمعراج ، وهى المصاعد إلى المساكن العالية كالدرج والسلالم عليها يظهرون ، أى على تلك المعارج يظهرون ، وفى نصب قوله (وزخرفاً) قولان : قيل لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة ، ولجعلنا لهم زخرفاً وقيل من فضة وزخرف ، فلما حذف الخافض انتصب . وأما قوله (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) قرأ عاصم وحمزة (لما) بتشديد الميم ، والباقون بالتخفيف ، وأما قراءة حمزة بالتشديد فإنه جعل لما فى معنى إلا ، وحكى سيبويه : نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، ويقوى هذه القراءة أن فى حرف أبى ، وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا ، وهذا يدل على أن لما بمعنى إلا ، وأما القراءة بالتخفيف ، فقال الواحدى لفظة ما لغو ، والتقدير لمتاع الحياة الدنيا ، قال أبو الحسن : الوجه التخفيف ، لأن لما بمعنى إلا لا تعرف ، وحكى عن الكسائى أنه قال : لا أعرف وجه التثقيل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة : دلت الآية على أنه تعالى إنما لم يعط الناس نعم الدنيا ، لأجل أنه لو فعل بهم ذلك لدعاهم ذلك إلى الكفر ، فهو تعالى لم يفعل بهم ذلك لأجل أن لا يدعوهم إلى الكفر ، وهذا يدل على أحكام (أحدها) أنه إذا لم يفعل بهم ما يدعوهم إلى الكفر فلأن لا يخلق فيهم الكفر أولى (وثانيها) أنه ثبت أن فعل اللطف قائم مقام إزاحة العذر والعلة ، فلما بين تعالى أنه لم يفعل ذلك إزاحة للعذر والعلة عنهم ، دل ذلك على أنه يجب أن يفعل بهم كل ما كان لطفاً داعياً لهم إلى الإيمان ، فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أنه يجب على الله تعالى فعل اللطف (وثالثها) أنه ثبت بهذه الآية ، أن الله تعالى إنما يفعل ما يفعله ويترك مايتركه لأجل حكمة ومصلحة ، وذلك يدل على تعليل أحكام الله تعالى وأفعاله بالمصالح والعلل ، فإن قيل لما بين تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم ، لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر ، فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سبباً لاجتماع الناس على الإسلام ؟ قلنا لأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا ، وهذا الإيمان إيمان المنافقين ، فكان الأصوب أن يضيق الأمر على المسلمين ، حتى أن كل من دخل الإسلام ، فإنما يدخل فيه لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى ، فحينئذ يعظم ثوابه لهذا السبب .

ثم قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا ، وذلك أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله ، ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين ، فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، قال صاحب الكشاف : قرىء (ومن يعش) بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل عشى ، وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به ، قيل عشي ونظيره عرج لمن به الآفة ، وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج ، قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

أى تنظر إليها نظر العشى ، لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ، وقرىء يعشو على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وحق هذا القارىء أن يرفع (نقيض) ومعنى القراءة بالفتح ، ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن ، لقوله (صم بكم عمى) وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتعامى ، كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) ، (ونقيض له شيطاناً) قال مقاتل : نضم إليه شيطاناً (فهو له قرين) .

ثم قال (وإنهم ليصدونهم عن السبيل) يعنى وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى والحق وذكر الكناية عن الإنسان والشياطين بلفظ الجمع ، لأن قوله (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً) يفيد الجمع ، وإن كان اللفظ على الواحد (ويحسبون أنهم مهتدون) يعنى الشياطين يصدون الكفار عن السبيل ، والكفار يحسبون أنهم مهتدون ، ثم عاد إلى لفظ الواحد ، فقال (حتى إذا

جاءنا) يعنى الكافر ، وقرىء جاءانا ، يعنى الكافر وشيطانه ، روى أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده ، فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار ، فذلك حيث يقول (يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين) والمراد ياليت حصل بينى وبينك بعد على أعظم الوجوه ، واختلفوا فى تفسير قوله (بعد المشرقين) وذكروا فيه وجوهاً (الأول) قال الأكثرون : المراد بعد المشرق والمغرب ، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

لنا قمراها والنجوم الطوالع

يريد الشمس والقمر ، ويقولون للكوفة والبصرة : البصرتان ، وللغداة والعصر : العصران ، ولأبى بكر وعمر : العمران ، وللماء والتمر : الأسودان (الثانى) أن أهل النجوم يقولون : الحركة التى تكون من المشرق إلى المغرب ، هى حركة الفلك الأعظم ، والحركة التى من المغرب إلى المشرق ، هى حركة الكواكب الثابتة ، وحركة الأفلاك الممثلة التى للسيارات سوى القمر ، وإذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة إلى شىء آخر ، فثبت أن إطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة (الثالث) قالوا يحمل ذلك على مشرق الصيف ومشرق الشتاء وبينهما بعد عظيم ، وهذا بعيد عندى ، لأن المقصود من قوله (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين) المبالغة فى حصول البعد ، وهذه المبالغة إنما تحصل عن ذكر بعد لا يمكن وجود بعد آخر أزيد منه ، والبعد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك ، فيبعد حمل اللفظ عليه (الرابع) وهو أن الحس يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب ، وأما القمر فإنه يظهر فى أول الشهر فى جانب المغرب ، ثم لا يزال يتقدم إلى جانب المشرق ، وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب ، وإذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ، ولكنه مغرب القمر ، وأما الجانب المسمى بالمغرب ، فإنه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس ، وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين ، ولعل هذا الوجه أقرب إلى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه ، والله أعلم .

ثم قال تعالى (فبئس القرين) أى الكافر يقول لذلك الشيطان (يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) أنت ، فهذا ما يتعلق بتفسير الألفاظ ، والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا وبيان مافى المال والجاه من المضار العظيمة ، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى ومن صار كذلك صار جليساً للشيطان ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقى جليس الشيطان فى الدنيا وفى القيامة ، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد فى القيامة بحيث يقول الكافر (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) أنت فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان فى الدين والدنيا ، وإذا ظهر هذا فقد ظهر أن الذين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، قالوا كلاماً

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

فاسداً وشبهة باطلة .

ثم قال تعالى (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) فقوله (أنكم) فى محل الرفع على الفاعلية يعنى ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين فى العذاب والسبب فيه أن الناس يقولون المصيبة إذا عمت طابت ، وقالت الخنساء فى هذا المعنى :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
ولا يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

فبين تعالى أن حصول الشركة فى ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده فى الدنيا والسبب فيه وجوه (الأول) أن ذلك العذاب شديد فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر ، فلا جرم الشركة لا تفيد الخفة (الثانى) أن قوماً إذا اشتركوا فى العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسببه بعض التخفيف وهذا المعنى متعذر فى القيامة (الثالث) أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعا كثيرة من السلوة .

فبين تعالى أن الشيطان وإن كان قريناً إلا أن مجالسته فى القيامة لا توجب السلوة وخفة العقوبة وفى كتاب ابن مجاهد عن ابن عامر قرأ (إذ ظلمتم إنكم) بكسر الألف وقرأ الباقون أنكم بفتح الألف والله أعلم .

قوله تعالى :﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ، واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصفهم فى الآية المتقدمة بالعشى وصفهم فى هذه الآية بالصمم والعمى

وما أحسن هذا الترتيب ، وذلك لأن الإنسان فى أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل ، لما ثبت فى علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى فإذا واظب على تلك الحالة أياماً أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى ، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية ، روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا تصميماً على الكفر وتمادياً فى الغى ، فقال تعالى (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى) يعنى أنهم بلغوا فى النفرة عنك وعن دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم ، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى ، ثم بين تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم فى ضلال مبين .

ولما بين تعالى أن دعوته لا تؤثر فى قلوبهم قال (فإما نذهبن بك) يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم (فإنا منهم منتقمون) بعدك أو نرينك فى حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فإنا مقتدرون على ذلك ، واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه السلام لأنه تعالى بين أنهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس إحدى الراحتين ، ثم بين أنه لا بد وأن ينتقم لأجله منهم إما حال حياته أو بعد وفاته ، وذلك أيضاً يوجب التسلية ، فبعد هذا أمره أن يستمسك بما أمره تعالى ، فقال (فاستمسك بالذى أوحى إليك) بأن تعتقد أنه حق وبأن تعمل بموجبه فانه الصراط المستقيم الذى لا يميل عنه إلا ضال فى الدين .

ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين فى منافع الدين بين أيضاً تأثيره فى منافع الدنيا فقال (وإنه لذكر لك ولقومك) أى إنه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك حيث يقال إن هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من قوم هؤلاء ، واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الثناء الحسن والذكر الجميل ، ولو لم يكن الذكر الجميل أمراً مرغوباً فيه لما من الله به على محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال (وإنه لذكر لك ولقومك) ولما طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) ولأن الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة ، بل الذكر أفضل من الحياة لأن أثر الحياة لا يحصل إلا فى مسكن ذلك الحى ، أما أثر الذكر الجميل فإنه يحصل فى كل مكان وفى كل زمان .

ثم قال تعالى (وسوف تسألون) وفيه وجوه (الأول) قال الكلبى تسألون هل أديتم شكر إنعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل (الثانى) قال مقاتل المراد أن من كذب به يسأل لم كذبه ، فيسأل سؤال توبيخ (الثالث) تسألون هل عملتم بما دل عليه من التكاليف ، واعلم أن السبب الأقوى فى إنكار الكفار لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولبغضهم له أنه كان ينكر عبادة الأصنام ، فبين تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كل الأنبياء

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ

والرسل كانوا مطبقين على إنكاره فقال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وفيه أقوال (الأول) معناه واسأل مؤمني أهل الكتاب أي أهل التوراة والإنجيل فإنهم سيخبرونك أنه لم يرد في دين أحد من الأنبياء عبادة الأصنام ، وإذا كان هذا الأمر متفقاً عليه بين كل الأنبياء والرسل وجب أن لا يجعلوه سبباً لبغض محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ والقول الثاني ﴾ قال عطاء عن ابن عباس « لما أسرى به ﷺ إلى المسجد الأقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده ، فأذن جبريل ثم أقام فقال : يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه من الصلاة قال له جبريل عليه السلام واسأل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم لا أسأل لأني لست شاكا فيه » .

﴿ والقول الثالث ﴾ أن ذكر السؤال في موضع لا يمكن السؤال فيه يكون المراد منه النظر والاستدلال ، كقول من قال : سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك جواباً أجابتك اعتباراً ، فهنا سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع ، فكان المراد منه انظر في هذه المسألة بعقلك وتدبر فيها بفهمك والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بآياتنا إذاهم منها يضحكون ، وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ، وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ، فلما كشفنا عنهم العذاب إذاهم ينكثون ، ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه

مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ
أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون فى هذا المقام تقرير الكلام الذى تقدم ، وذلك لأن كفار قريش طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه ، فبين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التى لا يشك فى صحتها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال : إنى غنى كثير المال والجاه ، ألا ترون أنه حصل لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان ، والرجل الفقير كيف يكون رسولا من من عند الله إلى الملك الكبير الغنى ، فثبت أن هذه الشبهة التى ذكرها كفار مكة وهى قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وقد أوردها بعينها فرعون على موسى ، ثم إنا انتقمنا منهم فأغرقناهم ، والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين (أحدهما) أن الكفار والجهال أبداً يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالى بها ولا يلتفت إليها (والثانى) أن فرعون على غاية كمال حاله فى الدنيا صار مقهوراً باطلا ، فيكون الأمر فى حق أعدائك هكذا ، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة ، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة ، وعلى هذا فلا يكون هذا تقريراً للقصة البتة وهذا من نفائس الأبحاث والله علم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تفسير الألفاظ ذكر تعالى أنه أرسل موسى بآياته وهى المعجزات التى كانت مع موسى عليه السلام إلى فرعون وملائه أى قومه ، فقال موسى إنى رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بتلك الآيات إذاهم منها يضحكون ، قيل إنه لما ألقى عصاه صار ثعباناً ، ثم أخذه فعاد عصاً كما كان ضحكوا ، ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا . فإن قيل كيف جاز أن يجاب عن لما بإذا الذى يفيد المفاجأة ؟ قلنا لأن فعل المفاجأة معها مقدر كأنه قيل فلما جاءهم بآياتنا فاجأوا وقت ضحكهم .

ثم قال (وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها) فإن قيل ظاهر اللفظ يقتضى كون كل واحد منها أفضل من التالى وذلك محال ، قلنا إذا أريد المبالغة فى كون كل واحد من تلك الأشياء بالغاً إلى أقصى الدرجات فى الفضيلة ، فقد يذكر هذا الكلام بمعنى أنه لا يبعد فى أناس ينظرون إليها أن يقول هذا إن هذا أفضل من الثانى ، وأن يقول الثانى لا بل الثانى أفضل ، وأن يقول الثالث لا بل الثالث أفضل ، وحينئذ يصير كل واحد من تلك الأشياء مقولا فيه إنه أفضل من غيره .

ثم قال تعالى (وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) أى عن الكفر إلى الإيمان ، قالت المعتزلة هذا يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل وأنه إنما أظهر تلك المعجزات القاهرة لإرادة أن يرجعوا من الكفر إلى الإيمان ، قال المفسرون ومعنى قوله (وأخذناهم بالعذاب) أى بالأشياء التى سلطها عليها كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس .

ثم قال تعالى (وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) فإن قيل كيف سموه بالساحر مع قولهم (إننا لمهتدون) ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) أنهم كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر ، لأنهم كانوا يستعظمون السحر ، وكما يقال فى زماننا فى العامل العجيب الكامل إنه أتى بالسحر (الثانى) (يا أيها الساحر) فى زعم الناس ومتعارف قوم فرعون كقوله (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) أى نزل عليه الذكر فى اعتقاده وزعمه (الثالث) أن قولهم (إننا لمهتدون) وقد كانوا عازمين على خلافه ألا ترى إلى قوله (فلما كشفنا عنهم العذاب إذاهم ينكثون) فتسميتهم إياه بالسحر لاينافى قولهم (إننا لمهتدون) ثم بين تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد .

ولما حكى الله تعالى معاملة فرعون مع موسى ، حكى أيضاً معاملة فرعون معه فقال (ونادى فرعون فى قومه) والمعنى أنه أظهر هذا القول فقال (قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) يعنى الأنهار التى فصلوها من النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس ، قيل كانت تجرى تحت قصره ، وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه .

ثم قال (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) وعنى بكونه مهيناً كونه فقيراً ضعيف الحال ، وبقوله (ولا يكاد يبين) حبسة كانت فى لسانه ، واختلفوا فى معنى أم ههنا فقال أبو عبيدة مجازها بل أنا خير ، وعلى هذا فقدتم الكلام عند قوله (أفلا تبصرون) ثم ابتدأ فقال (أم أنا خير) بمعنى بل أنا خير ، وقال الباقون أم هذه متصلة لأن المعنى (أفلا تبصرون) أم تبصرون إلا أنه وضع قوله (أنا خير) موضع تبصرون ، لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء ، وقال آخرون إن تمام الكلام عند قوله (أم) وقوله (أنا خير) ابتداء الكلام والتقدير (أفلا

تبصرون) أم تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر أم كما تقول لغيرك : أتأكل أم ، أى أتأكل أم لا تأكل ، تقتصر على ذكر كلمة أم إيثاراً للاختصار فكذا ههنا ، فإن قيل أليس أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يزيل الرتة عن لسانه بقوله (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله (قد أوتيت سؤلك يا موسى) فكيف عابه فرعون بتلك الرتة ؟ (والجواب) عنه من وجهين : (الأول) أن فرعون أراد بقوله (ولا يكاد يبين) حجته التى تدل على صدقه فيما يدعى ولم يرد أنه لا قدرة له على الكلام (والثانى) أنه عابه بما كان عليه أولا ، وذلك أن موسى كان عند فرعون زماناً طويلا وفى لسانه حبسة ، فنسبه فرعون إلى ما عهده عليه من الرتة لأنه لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عنه .

ثم قال (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) والمراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحداً منهم رئيساً لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب ، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة ، واختلف القراء فى أسورة فبعضهم قرأ أسورة وآخرون أساورة فأسورة جمع سوار لأدنى العدد ، كقولك حمار وأحمرة وغراب وأغربة ، ومن قرأ أساورة فذاك لأن أساوير جمع أسوار وهو السوار فأساورة تكون الهاء عوضاً عن الياء ، نحو بطريق وبطارقة وزنديق وزنادقة وفرزين وفرازنة فتكون أساورة جمع أسوار ، وحاصل الكلام يرجع إلى حرف واحد وهو أن فرعون كان يقول أنا أكثر مالا وجاها ، فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولا من الله ، لأن منصب النبوة يقتضى المخدومية ، والأخس لا يكون مخدوماً للأشرف ، ثم المقدمة الفاسدة هى قوله من كان أكثر مالا وجاهاً فهو أفضل وهى عين المقدمة التى تمسك بها كفار قريش فى قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ثم قال (أو جاء معه الملائكة مقترنين) يجوز أن يكون المراد مقرنين به ، من قولك قرنته به فاقترن وأن يكون من قولهم اقترنوا بمعنى تقارنوا ، قال الزجاج معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته .

ثم قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) أى طلب منهم الخفة فى الإتيان بما كان يأمرهم به فأطاعوه (إنهم كانوا قوماً فاسقين) حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق (فلما آسفونا) أغضبونا ، حكى أن ابن جريج غضب فى شىء فقيل له أتغضب يا أبا خالد ؟ فقال قد غضب الذى خلق الأحلام إن الله يقول (فلما آسفونا) أى أغضبونا .

ثم قال تعالى (انتقمنا منهم) واعلم أن ذكر لفظ الأسف فى حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام وكل واحد منهما من المتشابهات التى يجب أن يصار فيها إلى التأويل ، ومعنى الغضب فى حق الله إرادة العقاب ، ومعنى الانتقام إرادة العقاب لجرم سابق .

ثم قال تعالى (فجعلناهم سلفاً ومثلا) السلف كل شىء قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف والسلف أيضاً من تقدم من آبائك وأقاربك واحدهم سالف ، ومنه قول طفيل يرثى قومه .

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ
أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً
فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

فعلى هذا قال الفراء والزجاج يقول : جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ، أى جعلناهم سلفاً لكفار أمة محمد عليه السلام . وأكثر القراء قرأوا بالفتح وهو جمع سالف كما ذكرناه ، وقرأ حمزة والكسائى (سلفاً) بالضم وهو جمع سلف ، قال الليث : يقال سلف بضم اللام يسلف سلوفاً فهو سلف أى متقدم ، وقوله (ومثلا للآخرين) يريد عظة لمن بقى بعدهم وآية وعبرة ، قال أبو على الفارسى المثل واحد يراد به الجمع ، ومن ثم عطف على سلف ، والدليل على وقوعه على أكثر من واحد قوله تعالى (ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه) فأدخل تحت المثل شيئين والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ، وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ، ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر أنواعا كثيرة من كفرياتهم فى هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة (فأولها) قوله تعالى (وجعلوا له من عباده جزءاً) (وثانيها) قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) (وثالثها) قوله (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) (ورابعها) قوله (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (وخامسها) هذه الآية التى نحن الآن فى تفسيرها ، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلا أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم ، فأما أن ذلك المثل كيف كان ، وفى أى شىء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً كلها محتملة (فالأول) أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون

عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة (الثانى) روى أنه لما نزل قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) قال عبد الله ابن الزبعرى هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال ﷺ «بل لجميع الأمم» فقال خصمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبى وتثنى عليه خيراً وعلى أمه ، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيراً والملائكة يعبدون ، فاذا كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت النبى ﷺ وفرح القرم وضحكوا وضجوا ، فانزل الله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) ونزلت هذه الآية أيضاً والمعنى ، ولما (ضرب) عبد الله بن الزبعرى عيسى (ابن مريم مثلا) وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه (إذا قومك) قريش (منه) أى من هذا المثل (يصدون) أى يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وجدلا وضحكا بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثانى الفرح والضجيج ، (وقالوا أآلهتنا خير أم هو) يعنون أن آلهتنا عندك ليست خيراً من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون (الوجه الثالث) فى التأويل وهو أن النبى ﷺ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهاً لأنفسهم ، قال كفار مكة إن محمداً يريد أن يجعل لنا إلهاً كما جعل النصارى المسيح إلهاً لأنفسهم ، ثم عند هذا قالوا (أآلهتنا خير أم هو) يعنى أآلهتنا خير أم محمد ، وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا : إن محمداً يدعونا إلى عبادة نفسه ، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام ، وإذا كان لابد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى ، لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه ، وأما محمد فإنه متهم فى أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى ، ثم إنه تعالى بين أنا لم نقل إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل ، فإن عيسى ليس إلا عبداً أنعمنا عليه ، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم فى قولهم : إن محمداً يريد ان يأمرنا بعبادة نفسه ، فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو بكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو قراءة على بن أبى طالب عليه السلام والباقون بكسر الصاد وهى قراءة ابن عباس ، واختلفوا فقال الكسائى : هما بمعنى نحو يعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون ، ومنهم من فرق ، أما القراءة بالضم فمن الصدود ، أى من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه ، وأما بالكسر فمعناه يضجون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى أآلهتنا استفهاماً بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاماً بهمزة ومدة .

ثم قال تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلا) أى ماضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى

فى القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل (بل هم قوم خصمون) مبالغون فى الخصومة ، وذلك لأن قوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) لا يتناول الملائكة وعيسى ، وبيانه من وجوه (الأول) أن كلمة مالا تتناول العقلاء البتة (والثانى) أن كلمة ما ليست صريحة فى الاستغراق بدليل أنه يصح إدخال لفظى الكل والبعض عليه ، فيقال إنكم وكل ما تعبدون من دون الله ، أو إنكم وبعض ماتعبدون من دون الله (الثالث) أن قوله إنكم وكل ماتعبدون من دون الله أو وبعض ماتعبدون خطاب مشافهة فلعله ماكان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة (الرابع) أن قوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) هب أنه عام إلا أن النصوص الدال على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه ، والخاص مقدم على العام .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) أن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء ، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذى يفيد تقرير الحق ، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذى يوجب تقرير الباطل .

ثم قال تعالى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) يعنى ماعيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر (ولو نشاء لجعلنا منكم) لولدنا منكم يارجال (ملائكة يخلفونكم فى الأرض) كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا أن دخول التوليد والتولد فى الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك (وإنه) أى عيسى (لعلم للساعة) شرط من أشراطها تعلم به فسمى الشرط الدال على الشىء علماً لحصول العلم به ، وقرأ ابن عباس : لعلم . وهو العلامة وقرىء للعلم وقرأ أبى : لذكر ، وفى الحديث « أن عيسى ينزل على ثنية فى الأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس فى صلاة الصبح والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد ﷺ ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به » (فلا تمترن بها) من المرية وهو الشك (واتبعون) واتبعوا هداى وشرعى (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أدعوكم إليه صراط مستقيم (ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) قد بانت عداوته لكم لأجل أنه هو الذى أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور .

قوله تعالى : ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فاختلف

تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا
صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى ذكر أنه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات (قال قد جئتكم بالحكمة) وهى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) يعنى أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا فى أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء ، فجاء عيسى ليبين لهم الحق فى تلك المسائل الخلافية ، وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين وبعض الذى يختلفون فيه معناه فروع الدين ، فان قيل لم لم يبين لهم كل الذى يختلفون فيه ؟ قلنا لأن الناس قد يختلفون فى أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها ، فلا يجب على الرسول بيانها ، ولما بين الأصول والفروع قال (فاتقوا الله) فى الكفر به والإعراض عن دينه (وأطيعون) فيما أبلغه إليكم من التكاليف (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) والمعنى ظاهر (فاختلف الأحزاب) أى الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وقيل اليهود والنصارى (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) وهو وعيد بيوم الأحزاب ، فإن قيل قوله (من بينهم) الضمير فيه إلى من يرجع ؟ قلنا إلى الذين خاطبهم عيسى فى قوله (قد جئتكم بالحكمة) وهم قومه .

ثم قال (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) فقوله أن تأتيهم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة . فان قالوا قوله (بغتة) يفيد عين ما يفيده قوله (وهم لا يشعرون) فما الفائدة فيه ؟ قلنا يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه .

قوله تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم عدو إلا المتقين) والمعنى (الأخلاء) فى الدنيا (يومئذ) يعنى فى الآخرة (بعضهم لبعض عدو) يعنى أن الخلة إذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة (إلا المتقين) يعنى الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى ، فإن خلتهم لا تصير عداوة ، وللحكماء فى تفسير هذه الآية طريق حسن ، قالوا إن المحبة أمر لا يحصل إلا عند اعتقاد حصول خير أو دفع ضرر ، فتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لا محالة ، ومتى حصل اعتقاد أنه يوجب ضرراً حصل البغض والنفرة ، إذا عرفت هذا فنقول : تلك الخيرات التى كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة ، إما أن تكون قابلة للتغير والتبدل ، أو لا تكون كذلك ، فإن كان الواقع هو القسم الاول ، وجب أن تبدل تلك المحبة بالنفرة ، لأن تلك المحبة إنما حصلت لا عتقاد حصول الخير والراحة ، فإذا زال ذلك الاعتقاد ، وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والآلم ، وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة ، لأن تبدل العلة يوجب تبدل المعلول ، أما إذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة ، خيرات باقية أبدية ، غير قابلة للتبدل والتغير ، كانت تلك المحبة أيضاً محبة باقية آمنة من التغير ، إذا عرفت هذا الأصل فنقول : الذين حصلت بينهم محبة ومودة فى الدنيا ، إن كانت تلك المحبة لأجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها ، فهذه المطالب لا تبقى فى القيامة ، بل يصير طلب الدنيا سبباً لحصول الآلام والآفات فى يوم القيامة ، فلا جرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة فى القيامة ، أما إن كان الموجب لحصول المحبة فى الدنيا الاشتراك فى محبة الله وفى خدمته وطاعته ، فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير ، فلاجرم كانت هذه المحبة باقية فى القيامة ، بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت فى الدنيا ، فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾

المتقين) ، (الحكم الثانى) من أحكام يوم القيامة ، وقوله تعالى (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وقد ذكرنا مراراً أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد ، بالمؤمنين المطيعين المتقين ، فقوله (ياعباد) كلام الله تعالى ، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح (أولها) أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة (وثانيها) أنه تعالى وصفهم بالعبودية ، وهذا تشريف عظيم ، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمداً ﷺ ليلة المعراج ، قال (سبحان الذى أسرى بعبده) (وثالثها) قوله (لاخوف عليكم اليوم) فأزال عنهم الخوف فى يوم القيامة بالكلية ، وهذا من أعظم النعم (ورابعها) قوله (ولا أنتم تحزنون) فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية .

ثم قال تعالى (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) قيل (الذين آمنوا) مبتدأ ، وخبره مضمر ، والتقدير يقال لهم : أدخلوا الجنة ، ويحتمل أن يكون المعنى أعنى الذين آمنوا ، قال مقاتل : إذا وقع الخوف يوم القيامة ، نادى مناد (ياعباد لاخوف عليكم اليوم) فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رءوسهم ، فيقال (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) فتنكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم (الحكم الثالث) من وقائع القيامة ، أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن وجب أن يمر حسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها ، ثم يقال لهم (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) والحبرة المبالغة فى الإكرام فيما وصف بالجميل ، يعنى يكرمون إكراماً على سبيل المبالغة ، وهذا مما سبق تفسيره فى سورة الروم .

ثم قال ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ قال الفراء : الكوب المستدير الرأس الذى لاأذن له ، فقوله (يطاف عليهم بصحاف من ذهب) إشارة إلى المطعوم ، وقوله (وأكواب) إشارة إلى المشروب ، ثم إنه تعالى ترك التفصيل وذكر بياناً كلياً ، فقال (فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) .

ثم قال ﴿وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ وقد ذكرنا فى وراثة الجنة وجهين فى قوله (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس) ولما ذكر الطعام والشراب فيها تقدم ، ذكر ههنا حال الفاكهة ، فقال (لكم فيها فاكهة منها تأكلون) .

واعلم أنه تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب أولا ، ثم إلى العالمين ثانياً ، والعرب كانوا فى ضيق شديد بسبب المأكول والمشرب والفاكهة ، فلهذا السبب تفضل الله تعالى عليهم بهذه المعانى مرة بعد أخرى ، تكميلا لرغبتهم وتقوية لدواعيهم .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ، لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون ،

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ، ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ، أم يحسبون أنالانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد ، أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر فى القرآن ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج القاضى على القطع بوعيد الفساق بقوله (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) ولفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق ، فوجب كون الكل فى عذاب جهنم ، وقوله (خالدون) يدل على الخلود ، وقوله أيضاً (لا يفتر عنهم) يدل على الخلود والدوام أيضاً (والجواب) أن ماقبل هذه الآية وما بعدها ، يدل على أن المراد من لفظ (المجرمين) ههنا الكفار ، أما ماقبل هذه الآية فلأنه قال (يا عباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) فهذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين ، فإنهم يدخلون تحت قوله (يا عباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته وأسلم ، فوجب أن يكون داخلا تحت ذلك الوعد ، ووجب أن يكون خارجاً عن هذا الوعيد ، وأما ما بعد هذه الآية فهو قوله (جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) والمراد (بالحق) ههنا إما الإسلام وإما القرآن ، والرجل المسلم لا يكره الإسلام ولا القرآن ، فثبت أن ماقبل هذه الآية وما بعدها ، يدل على أن المراد من المجرمين الكفار ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى وصف عذاب جهنم فى حق المجرمين بصفات ثلاثة (أحدها) الخلود ، وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة أنه عبارة عن طول المكث ولايفيد الدوام (وثانيها) قوله (لايفتر عنهم) أى لايخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى إذاسكنت ونقص حرها (وثالثها) قوله (وهم فيه مبلسون) والمبلس اليائس الساكت سكوت يائس من فرج ، عن الضحاك يجعل المجرم فى تابوت من نار ، ثم يقفل عليه فيبقى فيه خالداً لايرى ، قال صاحب الكشاف وقرىء (وهم فيها) أى وهم فى النار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج القاضي بقوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) فقال إن كان خلق فيهم الكفر ليدخلهم النار ما الذي نفاه بقوله (وما ظلمناهم) وما الذي نسبه إليهم مما نفاه عن نفسه ؟ أوليس لو أثبتناه ظلماً لهم كان لا يزيد على ما يقوله القوم ، فإن قالوا ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عز وجل فقط ، بل إنما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معاً ، فلم يكن ذلك ظلماً من الله . قلنا : عندكم أن القدرة على الظلم موجبة للظلم ، وخالق تلك القدرة هو الله تعالى ، فكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن أن يكون ظالما لهم ، وذلك محال لأن من يكون ظالماً في فعل ، فإذا فعل معه مايوجب ذلك الفعل يكون بذلك أحق ، فيقال للقاضي قدرة العبد هل هي صالحة للطرفين أو هي متعينة لأحد الطرفين ؟ فان كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجيح إن وقع لا لمرجح لزم نفي الصانع ، وإن افتقر إلى مرجح عاد التقسيم الأول فيه ، ولابد وأن ينتهي إلى داعية مرجحة يخلقها الله في العبد ، وإن كانت متعينة لأحد الطرفين فحينئذ يلزمك ما أوردته علينا .

واعلم أنه ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره ، إنما الرجل الذي ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده ، فإن رآه وارداً على مذهبه بعينه لم يذكره والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ ابن مسعود (يامال) بحذف الكاف للترخيم فقيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ ونادوا يامال فقال : ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم ! وأجيب عنه بأنه إنما حسن هذا الترخيم لأنه يدل على أنهم بلغوا في الضعف والنحافة إلى حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختلفوا في أن قولهم (يامالك ليقض علينا ربك) على أي وجه طلبوا فقال بعضهم على التمني ، وقال آخرون على وجه الاستغاثة ، وإلا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب ، وقيل لا يبعد أن يقال إنهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب . ثم إنه تعالى بين أن مالكا يقول لهم (إنكم ماكثون) وليس في القرآن متى أجابهم ، هل أجابهم في الحال أو بمدة طويلة ، وإن كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بمدة طويلة ، فلا يمتنع أن تؤخر الإجابة استحقاقاً بهم وزيادة في غمهم ، فعن عبد الله بن عمر بعد أربعين سنة ، وعن غيره بعد مائة سنة ، وعن ابن عباس بعد ألف سنة والله أعلم بذلك المقدار .

ثم بين تعالى أن مالكا لما أجابهم بقوله (إنكم ماكثون) ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب فقال (لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة بغضهم لقبول الدين الحق ، فان قيل كيف قال (ونادوا يامالك) بعد ما وصفهم بالإبلاس ؟ قلنا تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتاً لشدة مابهم ، روى أنه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

فيه من العذاب ، فيقولون ادعوا مالكا فيدعون (يا مالك ليقض علينا ربك) ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم فى الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم فى الدنيا فقال (أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون) والمعنى أم ابرموا أى مشركوا مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله ، فإنا مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون) قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم فى المكر به فى دار الندوة ، وهو ما ذكره الله تعالى فى قوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا) وقد ذكرنا القصة .

ثم قال (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم) السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره فى مكان خال ، والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم (بلى) نسمعها ونطلع عليها (ورسلنا) يريد الحفظة (يكتبون) عليهم تلك الأحوال ، وعن يحيى ابن معاذ من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذى لا يخفى عليه شىء فى السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق .

قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ، ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ، ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ، وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ،

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي (ولد) بضم الواو وإسكان اللام ، والباقون بفتحهما (فأنا أول العابدين) قرأ نافع (فأنا) بفتحة طويلة على النون والباقون بلا تطويل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن الناس ظنوا أن قوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) لو أجريناه على ظاهره فانه يقتضي وقوع الشك في إثبات ولد لله تعالى ، وذلك محال فلا جرم افتقروا إلى تأويل الآية ، وعندي أنه ليس الأمر كذلك وليس في ظاهر اللفظ ما يوجب العدول عن الظاهر ، وتقريره أن قوله (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على إحداهما حرف الشرط وعلى الأخرى حرف الجزاء فحصل بمجموعهما قضية واحدة ، ومثاله هذه الآية فان قوله (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) قضية مركبة من قضيتين : (إحداهما) قوله (إن كان الرحمن ولد) ، (والثانية) قوله (فأنا أول العابدين) ثم أدخل حرف الشرط وهو لفظة إن على القضية الأولى وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية الثانية فحصل من مجموعهما قضية الأولى واحدة ، وهو القضية الشرطية ، إذا عرفت هذا فنقول القضية الشرطية لا تفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء ، وليس فيها إشعار بكون الشرط حقاً أو باطلا أو بكون الجزاء حقاً أو باطلا ، بل نقول القضية الشرطية الحقة قد تكون مركبة من قضيتين حقيتين أو من قضيتين باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل ، فأما القسم الرابع وهو أن تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال .

ولنبين أمثال هذه الأقسام الأربعة ، فإذا قلنا إن كان الإنسان حيواناً فالإنسان جسم فهذه شرطية حقة وهي مركبة من قضيتين حقيتين ، إحداهما قولنا الإنسان حيوان ، والثانية قولنا الإنسان جسم ، وإذا قلنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا الخمسة زوج ، ومن قولنا الخمسة منقسمة بمتساويين وهما باطلان ، وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً ، وقد ذكرنا أن القضية الشرطية لا تفيد إلا مجرد الاستلزام ، وإذا قلنا إن كان الإنسان حجراً فهو جسم ، فهذا جسم ، فهذا أيضاً حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الإنسان حجر ، ومن جزء حق وهو قولنا الإنسان جسم ، وإنما جاز هذا لأن الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حق ، فانا فرضنا كون الإنسان حجراً وجب كونه جسما فهذا شرط باطل يستلزم جزاء حقاً .

(وأما القسم الرابع) وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل ، فهذا

محال ، لأن هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزماً للباطل وذلك محال بخلاف القسم الثالث فإنه يلزم منه كون الباطل مستلزماً للحق وذلك ليس بمحال ، إذا عرفت هذا الأصل فلنرجع إلى الآية فنقول قوله (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل لأن قولنا كان الرحمن ولد باطل ، وقولنا (أنا أول العابدين) لذلك الولد باطل أيضاً إلا أنا بينا أن كون كل واحد منهما باطلا لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً كما ضربنا من المثال فى قولنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ، فثبت أن هذا الكلام لا امتناع فى إجرائه على ظاهره ، ويكون المراد منه أنه إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد ، فان السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده ، وقد بينا أن هذا التركيب لا يدل على الاعتراف بإثبات ولد أم لا .

ومما يقرب من هذا الباب قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فهذا الكلام قضية شرطية والشرط هو قولنا (فيهما آلهة) والجزاء هو قولنا (فسدتا) فالشرط فى نفسه باطل والجزاء أيضاً باطل لأن الحق أنه ليس فيهما آلهة ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشىء بانتفاء غيره لأنهما ما فسدتا ثم مع كون الشرط باطلا وكون الجزاء باطلا كان استلزام ذلك الشرط لهذا الجزاء حقاً فكذا ههنا ، فان قالوا الفرق أن ههنا ذكر الله تعالى هذه الشرطية بصيغة لو فقال (لو كان فيهما آلهة) وكلمة لو تفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره ، وأما فى الآية التى نحن فى تفسيرها إنما ذكر الله تعالى كلمة إن وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره ، بل هذه الكلمة تفيد الشك فى أنه هل حصل الشرط أم لا ، وحصول هذا الشك للرسول غير ممكن ، قلنا الفرق الذى ذكرتم صحيح إلا أن مقصودنا بيان أنه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزءيها صادقتين أو كاذبتين على ماقررناه أما قوله إن لفظة إن تفيد حصول الشرط هل حصل أم لا ، قلنا هذا ممنوع فان حرف إن حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء ، وأما بيان أن ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع ، فاللفظ لا دلالة فيه عليه البتة ، فظهر من المباحث التى لخصناها أن الكلام ههنا ممكن الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه وأنه لا حاجة فيه البتة إلى التأويل ، والمعنى أنه تعالى قال (قل) يا محمد (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) لذلك الولد وأنا أول الخادمين له ، والمقصود من هذا الكلام بيان أنى لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة فان بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقراً به معترفاً بوجوب خدمته إلا انه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتة ، فكيف أقول به ؟ بل الدليل القاطع قائم على عدمه فكيف أقول به وكيف أعترف بوجوده ؟ وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به البتة إلى التأويل والعدول عن الظاهر ، فهذا ما عندى فى هذا الموضع ونقل عن السدى من المفسرين أنه كان يقول حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة إلى التأويل ، والتقرير الذى ذكرناه يدل على أن الذى

فانه هو الحق ، أما القائلون بأنه لابد من التأويل فقد ذكروا وجوهاً (الأول) قال الواحدى كثرت الوجوه فى تفسير هذه الآية ، والأقوى أن يقال المعنى إن كان الرحمن ولد فى زعمكم (فأنا أول العابدين) أى الموحدين لله المكذبين لقولكم بإضافة الولد إليه ، ولقائل أن يقول إما أن يكون تقدير الكلام : إن يثبت الرحمن ولد فى نفس الأمر فأنا أول المنكرين له أو يكون التقدير إن يثبت لكم ادعاء أن للرحمن ولداً فأنا أول المنكرين له ، والأول باطل لأن ثبوت الشىء فى نفسه لايقتضى كون الرسول منكراً له ، لأن قوله إن كان الشىء ثابتاً فى نفسه فأنا أول المنكرين يقتضى إصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول ، والثانى أيضاً باطل لأنهم سواء أثبتوا لله ولداً أو لم يثبتوه له فالرسول منكر لذلك الولد ، فلم يكن لزعمهم تأثير فى كون الرسول منكراً لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثراً فى كون الرسول منكراً للولد .

(الوجه الثانى) قالوا معناه (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتدت أنفته فهو عبد وعابد ، وقرأ بعضهم عبدين .

واعلم أن السؤال المذكور قائم ههنا لأنه إن كان المراد إن كان للرحمن ولد فى نفس الأمر فأنا أول الآنفين من الإقرار به ، فهذا يقتضى الإصرار على الجهل والكذب ، وإن كان المراد إن كان للرحمن ولد فى زعمكم واعتقادكم فأنا أول الآنفين ، فهذا التعليق فاسد لأن هذه الأنفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أولم يحصل ، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزاً .

(والوجه الثالث) قال بعضهم إن كلمة إن ههنا هى النافية والتقدير ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له .

واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة إنما يكون للضرورة ، وقد بينا أنه لا ضرورة البتة فلم يجز المصير إليها والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ والمعنى أن إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته ، وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لايقبل التجزأ بوجه من الوجوه ، والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشىء جزء من أجزائه فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله ، وهذا إنما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزىء والتبعيض ، وإذا كان ذلك محالا فى حق إله العالم امتنع إثبات الولد له ، ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) والمقصود منه التهديد ، يعنى قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ماذكروا وهم لم يلتفتوا إليها لأجل كونهم مستغرقين فى طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم فى ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذى وعدوا فيه بما وعدوا ، والمقصود منه التهديد .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال أبو على نظرت فيما يرتفع به إله فوجدت ارتفاعه يصح بأن يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير وهو الذى فى السماء هو إله .

﴿ والبحث الثانى ﴾ هذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر فى السماء ، لأنه تعالى بين بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالإلهية كنسبته إلى الأرض ، فلما كان إلهاً للأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون إلهاً للسماء مع أنه لا يكون مستقراً فيها ، فان قيل وأى تعلق لهذا الكلام بنفى الولد عن الله تعالى ؟ قلنا تعلقه به أنه تعالى خلق عيسى بمحض كن فيكون من غير واسطة النطفة والأب ، فكأنه قيل إن هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولداً لله سبحانه ، لأن هذا المعنى حاصل فى تخليق السموات والأرض وما بينهما مع انتفاء حصول الولدية هناك .

ثم قال تعالى (وهو الحكيم العليم) وقد ذكرنا فى سورة الأنعام أن كونه تعالى حكيما عليما ينافى حصول الولد له .

ثم قال (وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون) واعلم أن قوله (تبارك) إما أن يكون مشتقاً من الثبات والبقاء ، وإما أن يكون مشتقاً من كثرة الخير ، وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافى كون عيسى عليه السلام ولداً لله تعالى ، لأنه إن كان المراد منه الثبات والبقاء ، فعيسى عليه السلام لم يكن واجب البقاء والدوام ، لأنه حدث بعد أن لم يكن ، ثم عند النصارى أنه قتل ومات ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقى الدائم الأزلى مجانسة ومشابهة ، فامتنع كونه ولداً له ، وإن كان المراد بالبركة كثرة الخيرات مثل كونه خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فعيسى لم يكن كذلك بل كان محتاجاً إلى الطعام وعند النصارى أنه كان خائفاً من اليهود وبالآخرة أخذوه وقتلوه ، فالذى هذا صفته كيف يكون ولداً لمن كان خالقاً للسموات والأرض وما بينهما ! .

وأما قوله (وعنده علم الساعة) فالمقصود منه إنه لما شرح كمال قدرته فكذلك شرح كمال علمه ، والمقصود التنبيه على أن من كان كاملا فى الذات والعلم والقدرة على الحد الذى شرحناه امتنع أن يكون ولده فى العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذى وصفه النصارى .

ولما أطنب الله تعالى فى نفى الولد أردفه ببيان نفى الشركاء فقال (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ذكر المفسرون فى هذه الآية قولين (أحدهما) أن الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزير ، والمعنى أن الملائكة وعيسى وعزيراً لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق ، روى أن النضر بن الحرث ونفراً معه قالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد ، فأنزل الله هذه الآية يقول لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لأحد ثم استثنى فقال (إلا من شهد بالحق) والمعنى على هذا القول هؤلاء لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق ، فأضمر اللام أو يقال التقدير إلا شفاعة من شهد بالحق بحذف المضاف ، وهذا على لغة من

يعدى الشفاعة بغير لام ، فيقول شفعت فلاناً بمعنى شفعت له كما تقول كلمته وكلمت له ونصحته ونصحت له (والقول الثانى) أن الذين يدعون من دونه كل معبود من دون الله ، وقوله (إلا من شهد بالحق) الملائكة وعيسى وعزير ، والمعنى أن الأشياء التى عبدها الكفار لا يملكون الشفاعة إلا من شهد بالحق ، وهم الملائكة وعيسى وعزير فان لهم شفاعة عند الله ومنزلة ، ومعنى من شهد بالحق من شهد أنه لا إله إلا الله .

ثم قال تعالى (وهم يعلمون) وهذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لاتفيد البتة ، واحتج القائلون بأن إيمان المقلد لاينفع البتة بهذه الآية ، فقالوا بين الله تعالى أن الشهادة لاتنفع إلا إذا حصل معها العلم والعلم عبارة عن اليقين الذى لوشكك صاحبه فيه لم يتشكك ، وهذا لم يحصل إلا عند الدليل ، فثبت أن إيمان المقلد لا ينفع البتة .

قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها فى القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود الإله للعالم ، قال الجبائى وهذا لايصح لأن قوم فرعون قالوا لاإله لهم غيره ، وقوم إبراهيم قالوا (وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه) فيقال لهم لانسلم أن قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله ، والدليل على قولنا قوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً) وقال موسى لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) فالقراءة بفتح التاء فى علمت تدل على أن فرعون كان عارفاً بالله ، وأما قوم إبراهيم حيث قالوا (وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه) فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات التكاليف وإثبات النبوة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام فى أول هذه السورة وفى آخرها ، والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هوالله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لاتضر ولا تنفع ، بل هى جمادات محضة .

وأما قوله (فأنى تؤفكون) معناه لم تكذبون على الله فتقولون إن الله أمرنا بعبادة الأصنام ، وقد احتج بعض أصحابنا به على أن إفكهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله (فأنى تؤفكون) وأجاب القاضى بأن من يضل فى فهم الكلام أو فى الطريق يقال له أين يذهب بك ، والمراد أين تذهب ، وأجاب الأصحاب بأن قول القائل أين يذهب بك ظاهره يدل على أن ذاهباً آخر ذهب به ، فصرف الكلام عن حقيقته خلاف الأصل الظاهر ، وأيضاً فإن الذى ذهب به هو الذى خلق تلك الداعية فى قلبه ، وقد ثبت بالبرهان الباهر أن خالق تلك الداعية هو الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون ﴾ وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ قرأ الأكثرون (وقيله) بفتح اللام وقرأ عاصم وحمزة بكسر اللام ، قال الواحدى وقرأ أناس من غير السبعة بالرفع ، أما الذين قرؤا بالنصب فذكر الأخفش والفراء فيه قولين

(أحدهما) أنه نصب على المصدر بتقدير وقال قيله وشكا شكواه إلى ربه يعنى النبى صلى الله عليه وسلم فانتصب قيله بإضمار قال (والثانى) أنه عطف على ما تقدم من قوله (أنا لا نسمع سرهم ونجواهم . . . وقيله) وذكر الزجاج فيه وجهاً (ثالثاً) فقال إنه نصب على موضع الساعة لأن قوله (وعنده علم الساعة) معناه أنه علم الساعة ، والتقدير علم الساعة ، وقيله ، ونظيره قولك عجبت من ضربِ زيد وعمراً ، وأما القراءة بالجر فقال الأخفش والفراء والزجاج إنه معطوف على الساعة ، أى عنده علم الساعة ، وعلم قيله يارب ، قال المبرد العطف على المنصوب حسن وإن تباعد المعطوف من المعطوف عليه لأنه يجوز أن يفصل بين المنصوب وعامله والمجرور يجوز ذلك فيه على قبح ، وأما القراءة بالرفع ففيها وجهان (الأول) أن يكون وقيله مبتدأ وخبره مابعده (والثانى) أن يكون معطوفاً على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله ، قال صاحب الكشاف هذه الوجوه ليست قوية فى المعنى لا سيما وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بمـا لا يحسن اعتراضاً ، ثم ذكر وجهاً آخر وزعم أنه أقوى ممـا سبق ، وهو أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ، يكون قوله (إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) جواب القسم كأنه قيل وأقسم بقيله يارب أو وقيله يارب قسمى ، وأقول هذا الذى ذكره صاحب الكشاف متكلف أيضاً وههنا إضمار امتلأ القرآن منه وهو إضمار اذكر ، والتقدير واذكر قيله يارب ، وأما القراءة بالجر ، فالتقدير واذكر وقت قيله يارب ، وإذا وجب التزام الإضمار فلأن يضمر شيئاً جرت العادة فى القرآن بالتزام إضماره أولى من غيره ، وعن ابن عباس أنه قال فى تفسير قوله (وقيله يارب) المراد وقيل يارب والهاء زيادة .

﴿ البحث الثانى ﴾ القيل مصدر كالقول ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم « نهى عن قيل وقال » قال الليث تقول العرب كثر فيه القيل والقـال ، وروى شمر عن أبى زيد يقال ما أحسن قيلك وقولك وقالك ومقالتك خمسة أوجه .

﴿ البحث الثالث ﴾ الضمير فى قيله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ البحث الرابع ﴾ أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا ضجر منهم وعرف إصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون وهو قريب ممـا حكى الله عن نوح أنه قال (رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً) .

ثم إنه تعالى قال له (فاصفح عنهم) فأمره بأن يصفح عنهم وفى ضمنه منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب ، والصفح هو الإعراض .

ثم قال (وقل سلام) قال سيبويه إنمـا معناه المتاركة ، ونظيره قول إبراهيم لأبيه (سلام عليك سأستغفر لك ربى) وكقوله (سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) .

قوله ﴿ فسوف تعلمون ﴾ والمقصود منه التهديد . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن عامر تعلمون بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء كناية عن قوم لا يؤمنون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر ، وأقول إن صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصار على مجرد قوله (سلام) وأن يقال للمؤمن سلام عليكم . والمقصود التنبيه على التحية التى تذكر للمسلم والكافر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ابن عباس قوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) منسوخ بآية السيف ، وعندى أن التزام النسخ فى أمثال هذه المواضع مشكل ، لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ ، فأى حاجة فيه إلى التزام النسخ ، وأيضاً فمثله يمين الفور مشهورة عند الفقهاء وهى دالة على أن اللفظ قد يتقيد بحسب قرينة العرف ، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة فيه إلى التزام النسخ والله أعلم بالصواب .

قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان : تم تفسير هذه السورة يوم الأحد الحادى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله أولا وآخراً وباطناً وظاهراً ، والصلاة على ملائكته المقربين والأنبياء والمرسلين خصوصاً على محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه أجمعين أبد الآبدين ودهر الداهرين .

٤٣ — سورة الزخرف

(مكية وآياتها تسع وثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ ٤٣ الزخرف

وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ٤٣ الزخرف

إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ٤٣ الزخرف

﴿سورة الزخرف مكية وقيل الا قوله واسأل من ارسلنا وآياتها تسع وثمانون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) الكلام فيه كالذى مر فى فاتحة سورة يس خلا أن الظاهر على تقدير
٢ إسميته كونه اسما للقرآن لا للسورة كما قيل فإن ذلك مخل بجزالة النظم الكريم (والكتاب) بالجر على
أنه مقسم به إما ابتداء أو عطفاً على حم على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم على أن مدار العطف
* المغايرة فى العنوان ومناط تكرير القسم المبالغة فى تأكيد مضمون الجملة القسمية (المبين) أى البين
لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لكل
٣ مايحتاج إليه فى أبواب الديانة (إنا جعلناه قرآناً عربياً) جواب للقسم لكن لاعلى أن مرجع التأكيد
* جعله كذلك كما قيل بل ماهو غايته التى يعرب عنها قوله تعالى (لعلكم تعقلون) فإنها المحتاجة إلى التحقيق
والتأكيد لكونها منبئة عن الاعتناء بأمرهم وإتمام النعمة عليهم وإزاحة أعذارهم أى جعلنا ذلك
الكتاب قرآناً عربياً لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على مايتضمنه
من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة فى ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية
٤ (وإنه فى أم الكتاب) أى فى اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية وقرىء إم الكتاب بالكسر
* (لدينا) أى عندنا (لعلى) رفيع القدر بين الكتب شريف (حكيم) ذو حكمة بالغة أو محكم وهما
خبران لأن وما بينهما بيان لمحل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بماذكر من الوصفين الجليلين هذا فى أم
الكتاب ولدينا والجملة إما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة فى حكمها ففى الإقسام بالقرآن على علو
قدره عنده تعالى براعة بديعة وإيذان بأنه من علو الشأن بحيث لايحتاج فى بيان إلى الاستشهاد عليه
بالإقسام بغيره بل هو بذاته كاف فى الشهادة على ذلك من حيث الإقسام به كما أنه كاف فيها من حيث
إعجازه ورمز إلى أنه لا يخطر بالبال عند ذكره شىء آخر أولى منه بالإقسام به وأما مستأنفة مقررة
لعلو شأنه الذى أنبأ عنه الإقسام به على منهاج الاعتراض فى قوله تعالى وإنه لقسم لو تعلمون عظيم

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ٤٣ الزخرف
وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ ٤٣ الزخرف
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ ٤٣ الزخرف
فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٤٣ الزخرف
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ٤٣ الزخرف

وبعد مابين علو شأن القرآن العظيم وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه
٥ عقب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقيل (أفنضرب عنكم الذكر) أى ننحيه ونبعده عنكم مجاز
من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر إليهم وملازمته لهم
كأنه يتهافت عليهم والفاء للعطف على محذوف يقتضيه المقام أى أنهملكم فننحى الذكر عنكم (صفحاً)
أى إعراضاً عنكم على أنه مفعول له للمذكور أو مصدر مؤكد لما دل هو عليه فإن التنحية منبئة عن
الصفح والإعراض قطعاً كأنه قيل أفنصفح عنكم صفحاً أو بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أى
أفننحيه عنكم جانباً (أن كنتم قوماً مسرفين) أى لأن كنتم منهمكين فى الإسراف مصرين عليه على
معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا فى العذاب
الخالد لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب
المبين وقرىء إن بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك لاستجهالهم والجزاء
٦، ٧ محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقوله تعالى (وكم أرسلنا من نبى فى الأولين) (وما يأتيهم من نبى
إلا كانوا به يستهزؤن) تقرير لما قبله ببيان أن إسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء
٨ إليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه به وقوله تعالى (فأهلكنا أشد منهم
بطشاً) أى من هؤلاء القوم المسرفين عدة له عليه الصلاة والسلام ووعيد لهم بمثل ماجرى على الأولين
ووصفهم بأشدية البطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية (ومضى مثل الأولين) أى سلف
٩ فى القرآن غير مرة ذكر قصتهم التى حقها أن تسير مسير المثل (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض
ليقولن خلقهن العزيز العليم) أى ليسندن خلقها الى من هذا شأنه فى الحقيقة وفى نفس الأمر لأنهم
يعبرون عنه بهذا العنوان وسلوك هذه الطريقة للإشعار بأن اتصافه تعالى بما سرد من جلائل الصفات
والأفعال وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء أمر بين لاريب فيه وأن الحجة قائمة عليهم شاؤا أو
١٠ أبوا وقد جوز أن يكون ذلك عين عبارتهم وقوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض مهداً) استئناف
من جهته تعالى أى بسطها لكم تستقرون فيها (وجعل لكم فيها سبلا) تسلكونها فى أسفاركم (لعلكم

وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ٤٣ الزخرف

وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ٤٣ الزخرف

لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا

هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ٤٣ الزخرف

تهتدون) أى لكى تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذى هو المقصد الأصلى
١١ (والذى نزل من السماء ماء بقدر) بمقدار تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح (فأنشرنا به) أى
أحيينا بذلك الماء (بلدة ميتاً) خالياً عن النماء والنبات بالكلية وقرىء ميتاً بالتشديد وتذكيره لأن البلدة
فى معنى البلد والمكان والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم
* خطره (كذلك) أى مثل ذلك الإحياء الذى هو فى الحقيقة إخراج النبات من الأرض (تخرجون)
أى تبعثون من قبوركم أحياء وفى التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذى هو إحياء الموتى وعن
إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج
١٢ القياس (والذى خلق الأزواج كلها) أى أصناف المخلوقات وعن ابن عباس رضى الله عنهما الأزواج
الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى وقيل كل ما سوى الله
تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار إلى غير ذلك (وجعل لكم من الفلك والأنعام
ماتركبون) أى ماتركبونه تغليباً للأنعام على الفلك فإن الركوب متعد بنفسه واستعماله فى الفلك ونحوها
بكلمة فى للرمز إلى مكانيتها وكون حركتها غير إرادية كما مر فى سورة هود عند قوله تعالى وقال
١٣ اركبوا فيها (لتستووا على ظهوره) أى لتستعلوا على ظهور ماتركبونه من الفلك والأنعام والجمع
باعتبار المعنى (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) أى تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين
* لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) متعجبين من ذلك كما يروى عن
النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا وضع رجله فى الركاب قال بسم الله فإذا استوى على الدابة قال
* الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا إلى قوله تعالى لمنقلبون وكبر ثلاثاً وهلل ثلاثاً (وما
كنا له مقرنين) أى مطيقين من أقرن الشىء إذا أطاقه وأصله وجده قرينته لأن الصعب لا يكون
قرينة للضعيف وقرىء بالتشديد والمعنى واحد وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى إذ بدون اعتراف
١٤ المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لايعرف قدرها ولاحق المنعم بها (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) أى
راجعون وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير ويتذكر منه المسافرة العظمى
التى هى الانقلاب إلى الله تعالى فيبنى أموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يخطر بباله فى شىء

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ ٤٣ الزخرف

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ٤٣ الزخرف

أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ٤٣ الزخرف

١٥ مما يأتى ويذر أمراً ينافيها ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع (وجعلوا له من عباده جزءاً)
متصل بقوله تعالى ولئن سألتهم الخ أى وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف
من عباده ولداً وإنما عبر عنه بالجزء لمزيد استحالته فى حق الواحد الحق من جميع الجهات وقرىء جزؤاً
* بضمتين (إن الإنسان لكفور مبين) ظاهر الكفران مبالغ فيه ولذلك يقولون مايقولون سبحان الله
١٦ عما يصفون (أم اتخذ مما يخلق بنات) أم منقطعة وما فيها من معنى بل للإنتقال من بيان بطلان جعلهم له
تعالى ولداً على الإطلاق إلى بيان بطلان جعلهم ذلك الولد من أخس صنفيه والهمزة للإنكار والتوبيخ
* والتعجيب من شأنهم وقوله تعالى (وأصفاكم بالبنين) إما عطف على اتخذ داخل فى حكم الإنكار والتعجيب
الخلاف المشهور والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ أى بل اتخذ من خلقه أخس
أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه على الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أنكم اجترأتم
على إضافة اتخاذ جنس الولد إليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه أما كان لكم شىء من العقل ونبذ
من الحياء حتى اجترأتم على التفوه بالعظيمة الخارقة للعقول من ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين
وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما وتنكير بنات وتعريف البنين لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة
١٧ والفخامة (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا) الخ استئناف مقرر لما قبله وقيل حال على معنى
أنهم نسبوا إليه ماذكر ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم والالتفات للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم
أن يعرض عنهم ويحكى لغيرهم تعجيباً منها أى إذا أخبر أحدهم بولادة ماجعله مثلا له سبحانه إذ الولد
* لابد أن يجانس الوالد ويماثله (ظل وجهه مسوداً) أى صار أسود فى الغاية من سوء مابشر به (وهو
كظيم) مملوء من الكرب والكآبة والجملة حال وقرىء مسود ومسواد على أن فى ظل ضمير المبشر
١٨ ووجهه مسود جملة وقعت خبراً له (أومن ينشأ فى الحلية) تكرير للإنكار وتثنية للتوبيخ ومن منصوبة
بمضمر معطوف على جعلوا أى أو جعلوا من شأنه أن يربى فى الزينة وهو عاجز عن أن يتولى لأمره
بنفسه فالهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وقد جوز انتصابها بمضمر معطوف على اتخذ فالهمزة حينئذ
لإنكار الوقوع واستبعاده وإقحامها بين المعطوفين لتذكير مافى أم منقطعة من الإنكار وتأكيده والعطف
* للتغاير العنوانى أى أو اتخذ من هذه الصفة الذميمة صفته (وهو) مع ماذكر من القصور (فى الخصام)
* أى الجدال الذى لا يكاد يخلو عنه الإنسان فى العادة (غير مبين) غير قادر على تقرير دعواه وإقامة
حجته لنقصان عقله وضعف رأيه وإضافة غير لاتمنع عمل مابعده فى الجار المتقدم لأنه بمعنى النفى وقرىء

وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ٤٣ الزخرف

وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ٤٣ الزخرف

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ٤٣ الزخرف

بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ٤٣ الزخرف

---

١٩ ينشأ ويناشأ من الأفعال والمفاعلة والكل بمعنى واحد ونظيره غلاه وأغلاه وغالاه (وجعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن إناثاً) بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر وتقريع لهم بذلك وهو جعلهم
أكمل العباد وأكرمهم على الله عز وجل أنقصهم رأياً وأخسهم صنفاً وقرىء عبيد الرحمن وقرىء
* عند الرحمن على تمثيل زلفاهم وقرىء أنثاً وهو جمع الجمع (أشهدوا خلقهم) أى أحضروا خلق الله
تعالى إياهم فشاهدوهم إناثا حتى يحكموا بأنوثتهم فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل لهم وتهكم بهم
* وقرىء أأشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة وآأشهدوا بألف بينهما (ستكتب شهادتهم) هذه فى
* ديوان أعمالهم (ويسألون) عنها يوم القيامة وقرىء سيكتب وسنكتب بالياء والنون وقرىء شهاداتهم
٢٠ وهى قولهم إن لله جزءاً وإن له بنات وإنها الملائكة وقرىء يسألون من المسألة للمبالغة (وقالوا لو شاء
الرحمن ماعبدناهم) بيان لفن آخر من كفرهم أى لو شاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ماعبدناهم
أرادوا بذلك بيان أن مافعلوه حق مرضى عنده تعالى وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى إياه منهم مع اعترافهم
بقبحه حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ومبنى كلامهم الباطل على مقدمتين إحداهما أن عبادتهم لهم
بمشيئته تعالى والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى ولقد أخطأوا فى الثانية حيث جهلوا
أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائناً ما كان من غير اعتبار الرضا أو السخط
* فى شىء من الطرفين ولذلك جهلوا بقوله تعالى (مالهم بذلك) أى بما أرادوا بقولهم ذلك من كون مافعلوه
* بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة فإن ذلك محقق ينطق به مالا يحصى من الآيات الكريمة (من علم)
* يستند إلى سند ما (إن هم إلا يخرصون) يتمحلون تمحلا باطلا وقد جوز أن يشار بذلك إلى أصل
الدعوى كأنه لما أظهر وجوه فسادها وحكى شبههم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل
٢١ ثم أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم سند من جهة النقل فقيل (أم آتيناهم كتاباً من قبله) من قبل
* القرآن أو من قبل ادعائهم ينطق بصحة مايدعونه (فهم به) بذلك الكتاب (مستمسكون) وعليه معولون
٢٢ (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثرهم مهتدون) أى لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا
بأن لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم والأمة الدين والطريقة التى تأم أى تقصد كالرحلة لما
يرحل إليه وقرىء إمة بالكسر وهى الحالة التى يكون عليها الآم أى القاصد وقوله تعالى على آثارهم
مهتدون خبران والظرف صلة لمهتدون .

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ٤٣ الزخرف

قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ٤٣ الزخرف

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ٤٣ الزخرف

إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ٤٣ الزخرف

٢٣ (وكذلك) أى والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتشبثهم بذيل التقليد وقوله تعالى (ما أرسلنا
من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) استئناف
مبين لذلك دال على التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لأسلافهم أيضاً سند غيره وتخصيص المترفين
٢٤ بتلك المقالة للإيذان بأن التنعم وحب البطالة هو الذى صرفهم عن النظر إلى التقليد (قال) حكاية لما
جرى بين المنذرين وبين أممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم أى قال كل نذير من أولئك المنذرين لأممهم
* (أولو جئتكم) أى أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم (بأهدى) بدين أهدى (مما وجدتم عليه آباءكم)
من الضلالة التى ليست من الهداية فى شىء وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الإنصاف وقرىء
قل على أنه حكاية أمر ماض أوحى حينئذ إلى كل نذير لا على أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم
* كما قيل لقوله تعالى (قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) فإنه حكاية عن الأمم قطعاً أى قال كل أمة لنذيرها
إنا بما أرسلت به الخ وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز كما مر فى قوله تعالى يأيها الرسل كلوا من الطيبات
وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه على سائر المنذرين عليهم
السلام وتوجيه كفرهم إلى ما أرسل به الكل من التوحيد لإجماعهم عليه كما فى نظائر قوله تعالى كذبت
٢٥ عاد المرسلين تمحل بعيد يرده بالكلية قوله تعالى (فانتقمنا منهم) أى بالاستئصال (فانظر كيف كان
٢٦ عاقبة المكذبين) من الأمم المذكورين فلا تكترث بتكذيب قومك (وإذ قال إبراهيم) أى واذكر
لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام (لأبيه وقومه) المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله
* (إننى براء مما تعبدون) وتمسك بالبرهان ليسلكوا مسلكه فى الاستدلال أو ليقلدوه إن لم يكن لهم
بد من التقليد فإنه أشرف آبائهم وبراء مصدر نعت به مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والمتعدد
والمذكر والمؤنث وقرىء برىء وبراء بضم الباء كـكريم وكرام وما إما مصدرية أو موصولة حذف
٢٧ عائدها أى إننى برىء من عبادتكم أو معبودكم (إلا الذى فطرنى) استثناء منقطع أو متصل على أن
ماتعم أولى العلم وغيرهم وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام أو صفة على أن ما موصوفة أى إننى براء
من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى (فإنه سيهدين) أى سيثبتنى على الهداية أو سيهدين إلى ماوراء الذى

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ٤٣ الزخرف
بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ٤٣ الزخرف
وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ٤٣ الزخرف

هدانی إليه إلى الآن والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار
٢٨ (وجعلها) أى جعل إبراهيم كلمة التوحيد التى ماتكلم به عبارة عنها (كلمة باقية فى عقبه) أى فى ذريته
حيث وصاهم بها كما نطق به قوله تعالى ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب الآية فلا يزال فيهم من يوحد
الله تعالى ويدعو إلى توحيده وقرىء كلمة وفى عقبه على التخفيف (لعلهم يرجعون) علة للجعل أى
٢٩ جعلها باقية فى عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد (بل متعت هؤلاء) إضراب
عن محذوف ينساق إليه الكلام كأنه قيل جعلها كلمة باقية فى عقبه بأن وصى بها بنيه رجاء أن يرجع
إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد فلم يحصل مارجاه بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول صلى
* الله عليه وسلم من أهل مكة (وآباءهم) بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وانهمكوا فى الشهوات
وشغلوا بها عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم) أى هؤلاء (الحق) أى القرآن (ورسول) أى رسول
* (مبين) ظاهر الرسالة واضحها بالمعجزات الباهرة أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج وقرىء
متعنا ومتعت بالخطاب على أنه تعالى اعترض به على ذاته فى قوله تعالى وجعلها كلمة باقية الخ مبالغة فى
تعييرهم فإن التمتيع بزيادة النعم يوجب عليهم أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر والثبات على التوحيد
٣٠ والإيمان لجعله سبباً لزيادة الكفران أقصى مراتب الكفر والضلال (ولما جاءهم الحق) لينبههم عما
هم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا كفراً وعتواً وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق
والاستهانة به حيث (قالوا هذا سحر وإنا به كافرون) فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا
٣١ الرسول صلى الله عليه وسلم (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين) أى من إحدى
القريتين مكة والطائف على نهج قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (عظيم) أى بالجاه والمال
كالوليد بن المغيرة المخزومى وعروة بن مسعود الثقفى وقيل حبيب بن عمر بن عمير الثقفى وعن مجاهد
عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسداً على نزوله إلى الرسول صلى الله
عليه وسلم دون من ذكر من عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته بل استدلالا على عدمها بمعنى أنه لو كان
قرآناً لنزل إلى أحد هؤلاء بناء على مازعموا من أن الرسالة منصب جليل لا يليق به إلا من له جلالة
من حيث المال والجاه ولم يدروا أنها رتبة روحانية لا يترقى إليها إلا همم الخواص المختصين بالنفوس
الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتحلين بالفضائل الإنسية وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية
المتمتعون بالحظوظ الدنية فهم من استحقاق تلك الرتبة بألف منزل .

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ٤٣ الزخرف

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ٤٣ الزخرف

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ ٤٣ الزخرف

وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ٤٣ الزخرف

---

٣٢ وقوله تعالى (أهم يقسمون رحمت ربك) إنكار فيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم والمراد بالرحمة
النبوة (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) أى أسباب معيشتهم (فى الحياة الدنيا) قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية
على الحكم والمصالح ولم نفوض أمرها إليهم علماً منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية (ورفعنا بعضهم فوق
بعض) فى الرزق وسائر مبادى المعاش (درجات) متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة
فمن ضعيف وقوى وفقير وغنى وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) ليصرف
بعضهم بعضاً فى مصالحهم ويستخدموهم فى مهنهم ويتسخروهم فى أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا
ويصلوا إلى مرافقهم لا لكمال فى الموسع ولا لنقص فى المقتر ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا
وهلكوا فإذا كانوا فى تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنيئة وهو فى طرف الثمام
على هذه الحالة فما ظنهم بأنفسهم فى تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ومن أين لهم البحث
عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بأمرها (ورحمت ربك) أى النبوة وما يتبعها من سعادة
٣٣ الدارين (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا الدنيئة الفانية وقوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة)
استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل والمعنى أن حقارة شأنه بحيث لولا
أن لا يرغب الناس لحبهم الدنيا فى الكفر إذا رأوا أهله فى سعة وتنعم فيجتمعوا عليه لأعطيناه بحذافيره
من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة وذلك قوله تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة)
أى متخذة منها ولبيوتهم بدل اشتمال من لمن وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن أفراد المستكن فى
يكفر باعتبار لفظها والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن وسفينة
وقرىء سقفاً بسكون القاف تخفيفاً وسقفاً اكتفاء بجمع البيوت وسقفاً كأنه لغة فى سقف وسقوفا
(ومعارج) أى جعلنا لهم معارج من فضة أى مصاعد جمع معرج وقرىء معاريج جمع معراج (عليها
٣٤ يظهرون) أى يعلون السطوح والعلالى (ولبيوتهم) أى وجعلنا لبيوتهم (أبواباً وسرراً) من فضة
٣٥ (عليها) أى على السرر (يتكئون) ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير (وزخرفاً) أى زينة
عطف على سقفاً أو ذهباً عطف على محل من فضة (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أى وما

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ٤٣ الزخرف

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ٤٣ الزخرف

وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ٤٣ الزخرف

كل ماذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إلا شيء يتمتع به فى الحياة الدنيا وفى معناه ماقرىء
وما كل ذلك إلا امتاع الحياة الدنيا وقرىء بتخفيف ما على أن هى المخففة واللام هى الفارقة وقرىء
بكسر اللام على أنها لام العلة وما موصولة قد حذف عائدها أى للذى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى
تماما على الذى أحسن (والآخرة) بما فيها من فنون النعم التى يقصر عنها البيان (عند ربك للمتقين) *
٣٦ أى عن الكفر والمعاصى وبهذا تبين أن العظيم هو العظيم فى الآخرة لا فى الدنيا (ومن يعش) أى
يتعام (عن ذكر الرحمن) وهو القرآن وإضافته إلى اسم الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين وقرىء *
يعش بالفتح أى يعم يقال عشى يعشى إذا كان فى بصره آفة وعشا يعشو إذا تعشى بلا آفة كعرج
وعرج وقرىء يعشو على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط والمعنى ومن يعرض عنه لفرط
اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا وانهماكه فى حظوظها الفانية والشهوات (نقيض له شيطاناً فهو له قرين) *
لايفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وقرىء يقيض بالياء على إسناده إلى ضمير الرحمن ومن رفع يعشو
٣٧ لحقه أن يرفع يقيض (وإنهم) أى الشياطين الذين قيض كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو (ليصدونهم)
أى قرناءهم فمدار جمع الضميرين اعتبار معنى من كما أن مدار إفراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها (عن *
السبيل) المستبين الذى يدعو إليه القرآن (ويحسبون) أى العاشون (أنهم) أى الشياطين (مهتدون) *
أى إلى السبيل المستقيم وإلا لما اتبعوهم أو يحسبون أن أنفسهم مهتدون لأن اعتقاد كون الشياطين
مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما والجملة حال من مفعول يصدون بتقدير المبتدأ
أو من فاعله أو منهما لاشتمالها على ضميريهما أى وإنهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون أنهم
٣٨ مهتدون إليه وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددى لقوله تعالى (حتى
إذا جاءنا) فإن حتى وإن كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضى حتما أن تكون غاية
لأمر ممتد كما مر مراراً وإفراد الضمير فى جاء وما بعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد واحد
من العاشين لقرينه لتهويل الأمر وتفظيع الحال والمعنى يستمر العاشون على ماذكر من مقارنة الشياطين
والصدر والحسبان الباطل حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة (قال) مخاطباً له (ياليت *
بينى وبينك) فى الدنيا (بعد المشرقين) أى بعد المشرق والمغرب أى تباعد كل منهما عن الآخر فغلب *
٣٩ المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما (فبئس القرين) أى أنت وقوله تعالى (ولن ينفعكم) الخ حكاية
لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخاً وتقريعاً أى لن ينفعكم (اليوم) أى يوم القيامة

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٠) ٤٣ الزخرف

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) ٤٣ الزخرف

أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ٤٣ الزخرف

فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) ٤٣ الزخرف

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ (٤٤) ٤٣ الزخرف

وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ٤٣ الزخرف

تمنيكم لمباعدتهم (إذ ظلمتم) أى لأجل ظلمكم أنفسكم فى الدنيا باتباعكم إياهم فى الكفر والمعاصى وقيل إذ ظلمتم بدل من اليوم أى إذ تبين عندكم وعند الناس جميعاً أنكم ظلمتم أنفسكم فى الدنيا وعليه قول من قال [إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة] أى تبين أنى لم تلدنى لئيمة بل كريمة وقوله تعالى (أنكم فى العذاب مشتركون) تعليل لنفى النفع أى لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا ويجوز أن يسند الفعل إليه لكن لا بمعنى لن ينفعكم اشتراككم فى العذاب كما ينفع الواقعين فى شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم فى تحمل أعبائها وتقسمهم لعنائها لأن لكل منهم مالا تبلغه طاقته كما قيل لأن الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه بل بمعنى لن يحصل لكم التشفى بكون قرنائكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً وقولكم فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ونظائرهما لتتشفوا بذلك . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً عما
٤٠ يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاما عما يسمعونه من بينات القرآن فنزل (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى) وهو إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا فى الكفر واستغرقوا فى الضلال بحيث صار مابهم من العشى عمى مقروناً بالصمم (ومن كان فى ضلال مبين) عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط بحيث لا ارعواء له منه لا توهم القصور من قبل الهادى ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والإلجاء
٤١ (فإما نذهبن بك) أى فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين (فإنا منتقمون) لا محالة فى الدنيا والآخرة فما مزيدة للتأكيد بمنزلة لام القسم فى أنها لا تفارق النون المؤكدة
٤٢ (أو نرينك الذى وعدناهم) أى أو أردنا أن نريك العذاب الذى وعدناهم (فإنا عليهم مقتدرون) بحيث
٤٣ لا مناص لهم من تحت ملكتنا وقهرنا ولقد أراه عليه السلام ذلك يوم بدر (فاستمسك بالذى أوحى إليك) من الآيات والشرائع سواء عجلنا لك الموعود أو أخرناه إلى يوم الآخرة وقرىء أوحى على
٤٤ البناء للفاعل وهو الله عز وجل (إنك على صراط مستقيم) تعليل للاستمساك أو للأمر به (وإنه
٤٥ لذكر) لشرف عظيم (لك ولقومك وسوف تسألون) يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه (واسأل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ٤٣ الزخرف

فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ٤٣ الزخرف

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ٤٣ الزخرف

وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ٤٣ الزخرف

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ٤٣ الزخرف

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ٤٣ الزخرف

من أرسلنا من قبلك من رسلنا) أى واسأل أممهم وعلماء دينهم كقوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب
من قبلك وفائدة هذا المجاز التنبيه على أن المسؤل عنه عين ما نطقت به ألسنة الرسل لا ما يقوله أممهم
وعلماؤهم من تلقاء أنفسهم قال الفراء هم إنما يخبرونه عن كتاب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام (أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) أى هل حكمنا بعبادة الأوثان وهل *
جاءت فى ملة من مللهم والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والتنبيه على أنه ليس ببدع
ابتدعه حتى يكذب ويعادى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) ملتبساً بها (إلى فرعون وملإه فقال إنى رسول ٤٦
رب العالمين) أريد باقتصاصه تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام
إلى التوحيد إثر ما أشير إلى إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه (فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) ٤٧
أى فاجؤا وقت ضحكهم منها أى استهزؤا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها (وما نريهم من آية) من ٤٨
الآيات (إلا هى أكبر من أختها) إلا وهى بالغة أقصى مراتب الإعجاز بحيث يحسب كل من ينظر *
إليها أنها أكبر من كل ما يقاس بها من الآيات والمراد وصف الكل بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور
فى شىء منها أو إلا وهى مختصة بضرب من الإعجاز مفضلة بذلك الاعتبار على غيرها (وأخذناهم بالعذاب) *
كالسنين والطوفان والجراد وغيرها (لعلهم يرجعون) لكى يرجعوا عما هم عليه من الكفر (وقالوا ٤٩
يأيها الساحر) نادوه بذلك فى مثل تلك الحال لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم وقيل كانوا يقولون للعالم الماهر
ساحر لاستعظامهم علم السحر وقرىء أيه الساحر بضم الهاء (ادع لنا ربك) ليكشف عنا العذاب *
(بما عهد عندك) بعهده عندك من النبوة أو من استجابة دعوتك أو من كشف العذاب عمن اهتدى *
أو بما عهد عندك فوفيت به من الإيمان والطاعة (إننا لمهتدون) أى لمؤمنون على تقدير كشف العذاب *
عنا بدعوتك كقولهم لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (فلما كشفنا عنهم العذاب) بدعوته (إذا هم ٥٠
ينكثون) فاجؤا وقت نكث عهدهم بالاهتداء وقد مر تفصيله فى الأعراف (ونادى فرعون) بنفسه ٥١

أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ٤٣ الزخرف

فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ٤٣ الزخرف

فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ٤٣ الزخرف

فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ٤٣ الزخرف

فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ٤٣ الزخرف

أو بمناديه (فى قومه) فى مجمعهم وفيما بينهم بعد أن كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمنوا (قال ياقوم *
أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار) أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط
ونهر تنيس (تجرى من تحتى) أى من تحت قصرى أو أمرى وقيل من تحت سريرى لارتفاعه وقيل *
بين يدى فى جنانى وبساتينى والواو إما عاطفة لهذه الأنهار على ملك مصر فتجرى حال منها أو للحال
فهذه مبتدأ والأنهار صفتها وتجرى خبر للمبتدأ (أفلا تبصرون) ذلك يريد به استعظام ملكه (أم أنا ٥٢
خير) مع هذه المملكة والبسطة (من هذا الذى هو مهين) ضعيف حقير من المهابة وهى القلة (ولا *
يكاد يبين) أى الكلام قاله افتراء عليه عليه السلام وتنقيصاله عليه السلام فى أعين الناس باعتبار
ما كان فى لسانه عليه السلام من نوع رتة وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى قد أوتيت سؤلك وأم إما
منقطعة والهمزة للتقرير كأنه قال إثر ماعدد أسباب فضله ومبادى خيريته أثبت عندكم واستقر لديكم
أنى أنا خير وهذه حالى من هذا الخ وإما متصلة فالمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون خلا أنه وضع قوله
أنا خير موضع تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء وهذا من باب تنزيل السبب
منزلة المسبب ويجوز أن يجعل من تنزيل المسبب منزلة السبب فإن أبصارهم لما ذكر من أسباب فضله
سبب على زعمه لحكمهم بخيريته (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) أى فهلا ألقى إليه مقاليد الملك ٥٣
إن كان صادقا لما أنهم كانوا إذا سودوا رجلا سوروه وطوقوه بطوق من ذهب وأسورة جمع سوار
وقرىء أساور جمع أسورة وقرىء أساورة جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساوير
وقد قرىء كذلك وقرىء ألقى عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله تعالى (أو جاء معه *
الملائكة مقترنين) مقرونين يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقترن أو متقارنين من اقترن بمعنى تقارن
(فاستخف قومه) فاستفزهم وطلب منهم الخفة فى مطاوعته أو فاستخف أحلامهم (فأطاعوه) فيما ٥٤
أمرهم به (إنهم كانوا قوماً فاسقين) فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوى (فلما آسفونا) أى ٥٥
أغضبونا أشد الغضب منقول من أسف إذا اشتد غضبه (انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) فى اليم *
(فجعلناهم سلفاً) قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ماحل بهم من ٥٦
العذاب وهو إما مصدر نعت به أو جمع سالف كخدم جمع خادم وقرىء بضم السين واللام على أنه جمع
سليف أى فريق قد سلف كرغف أو سالف كصبر أو سلف كأسد وقرىء سلفاً بإبدال ضمة اللام

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ٤٣ الزخرف
وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ٤٣ الزخرف

فتحة أو على أنه جمع سلفة أى ثلة قد سلفت (ومثلا للآخرين) أى عظة لهم أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال * لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون (ولما ضرب ابن مريم مثلا) أى ضربه ابن الزبعرى حين جادل رسول ٥٧
الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم حيث قال أهذا لنا ولآلهتنا أو لجميع الأمم فقال عليه الصلاة والسلام هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال اللعين خصمتك ورب الكعبة أليس النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيراً وبنو مليح الملائكة فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى (إذا قومك منه) * أى من ذلك المثل (يصدون) أى يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجذلا وقرىء يصدون أى من أجل ذلك * المثل يعرضون عن الحق أى يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض أو يزدادون فيه وقيل هو أيضاً من الصديد وهما لغتان فيه نحو يعكف ويعكف وهو الأنسب بمعنى المفاجأة (وقالوا أآلهتنا خير ٥٨
أم هو) حكاية لطرف من المثل المضروب قالوه تمهيداً لما بنوا عليه من الباطل المموه بما يغتر به السفهاء أى ظاهر أن عيسى خير من آلهتنا فحيث كان هو فى النار فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها واعلم أن ما نقل عنهم من الفرح ورفع الأصوات لم يكن لما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام سكت عند ذلك إلى أن نزل قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية فإن ذلك مع إيهامه لما يجب تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام عنه من شائبة الإفحام من أول الأمر خلاف الواقع كيف لا وقد روى أن قول ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة صدر عنه من أول الأمر عند سماع الآية الكريمة فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل وإنما لم يخص عليه السلام هذا الحكم بآلهتهم حين سأل الفاجر عن الخصوص والعموم عملا بما ذكر من اختصاص كلمة ما بغير العقلاء لأن إخراج بعض المعبودين عنه عند المحاجة موهم للرخصة فى عبادته فى الجملة فعممه عليه السلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك فى المعبودية من دون الله تعالى ثم بين عليه الصلاة والسلام بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك أن الملائكة والمسيح بمعزل من أن يكونوا معبوديهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية وقد مر تحقيق المقام عند قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية بل إنما كان ما أظهروه من الأحوال المنكرة لمحض وقاحتهم وتهالكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلا) أى ما ضربوا لك ذلك المثل إلا لأجل الجدال والخصام لا لطلب * الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك (بل هم قوم خصمون) أى لد شداد الخصومة مجبولون على * المحك واللجاج وقيل لما سمعوا قوله تعالى إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة فنزلت فقولهم أآلهتنا خير أم هو حينئذ

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴿٥٩﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ٤٣ الزخرف
وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ٤٣ الزخرف

تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام لأن المراد بهم الملائكة ومعنى ماضربوه الخ ماقالوا هذا القول إلا للجدل وقيل لما نزلت إن مثل عيسى الآية قالوا مايريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشراً كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصدون يضجون ويضجرون والضمير فى أم هو لمحمد عليه الصلاة والسلام وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به وقد جوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم الملائكة بنات الله تعالى ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا ماقلنا بدعا من القول ولافعلنا منكراً من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه
٥٩ فنحن أشف منهم قولا وفعلا حيث نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسى فقوله تعالى (إن هو
* إلا عبد أنعمنا عليه) أى بالنبوة (وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) أى أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة على الوجه الأول استئناف مسوق لتنزيهه عليه السلام عن أن ينسب إليه مانسب إلى الأصنام بطريق الرمز كما نطق به صريحاً قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية وفيه تنبيه على بطلان رأى من رفعه عن رتبة العبودية وتعريض بفساد رأى من يرى رأيهم فى شأن الملائكة وعلى الثانى والرابع لبيان أنه قياس باطل بباطل أو بأبطل على زعمهم وما عيسى إلا عبد كسائر العبيد قصارى أمره أنه ممن أنعمنا عليهم بالنبوة وخصصناه ببعض الخواص البديعة بأن خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه فأين هو من رتبة الربوبية ومن أين يتوهم صحة مذهب عبدته حتى يفتخر عبدة الملائكة بكونهم أهدى منهم أو يعتذروا بأن حالهم أشف أو أخف من حالهم وأما على الوجه الثالث فهو لردهم وتكذيبهم فى افترائهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن عيسى فى الحقيقة وفيما أوحى إلى الرسول عليهما الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف
٦٠ يرضى عليه السلام بمعبوديته أو كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه وقوله تعالى (ولو نشاء) الخ لتحقيق أن مثل عيسى عليه السلام ليس ببدع من قدرة الله وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك وأبرع مع التنبيه
* على سقوط الملائكة أيضاً من درجة المعبودية أى قدرتنا بحيث لو نشاء (لجعلنا) أى لخلقنا بطريق
* التوالد (منكم) وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الإبداع (فى
* الأرض) مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين فى السماء (يخلفون) أى يخلفونكم مثل أولادكم فيما تأتون وما تذرون ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم مع أن شأنهم التسبيح والتقديس فى السماء فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة إلى القدرة الربانية كيف يتوهم استحقاقهم للمعبودية أو انتسابهم إليه تعالى عن ذلك
٦١ علواً (وإنه) وإن عيسى (لعلم للساعة) أى إنه بنزوله شرط من أشراطها وتسميته علماً لحصوله به

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ٤٣ الزخرف

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ٤٣ الزخرف

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ٤٣ الزخرف

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ٤٣ الزخرف

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٤٣ الزخرف

أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذي هو معظم ماينكره الكفرة من الأمور
الواقعة في الساعة وقرىء لعلم أي علامة وقرىء للعلم وقرىء لذكر على تسمية مايذكر به ذكراً كتسمية
مايعلم به علماً وفي الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وعليه
ممصرتان و بيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه
عيسى عليه السلام ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب
ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به وقيل الضمير للقرآن لما أن فيه الإعلام
بالساعة (فلا تمترن بها) فلا تشكن في وقوعها (واتبعون) أي واتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي *
وقيل هو قول الرسول مأموراً من جهته تعالى (هذا) أي الذي أدعوكم إليه أو القرآن على أن الضمير *
٦٢ في أنه له (صراط مستقيم) موصل إلى الحق (ولا يصدنكم الشيطان) عن اتباعي (إنه لكم عدو
٦٣ مبين) بين العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية (ولما جاء عيسى بالبينات) أي بالمعجزات
أو بآيات الإنجيل أو بالشرائع الواضحات (قال) لبني إسرائيل (قد جئتكم بالحكمة) أي الإنجيل *
أو الشريعة (ولأبين لكم) عطف على مقدر ينبيء عنه المجيء بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة *
لأعلمكم إياها ولأبين لكم (بعض الذي تختلفون فيه) وهو مايتعلق بأمور الدين وأما مايتعلق بأمور *
الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء عليهم السلام كما قال عليه السلام أنتم أعلم بأمور دنياكم (فاتقوا *
٦٤ الله) في مخالفتي (وأطيعون) فيما أبلغه عنه تعالى (إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه) بيان لما أمرهم
بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع (هذا) أي التوحيد والتعبد بالشرائع (صراط *
مستقيم) لا يضل سالكه وهو إما من تتمة كلامه عليه السلام أو استئناف من جهته تعالى مقرر لمقالة
٦٥ عيسى عليه السلام (فاختلف الأحزاب) الفرق المتحزبة (من بينهم) أي من بين من بعث إليهم من
٦٦ اليهود والنصارى (فويل للذين ظلموا) من المختلفين (من عذاب يوم أليم) هو يوم القيامة (هل ينظرون)
أي ما ينتظر الناس (إلا الساعة أن تأتيهم) أي إلا إتيان الساعة (بغتة) أي فجأة لكن لا عند كونهم *
مترقبين لها بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا منكرين لها وذلك قوله تعالى (وهم لا يشعرون) *

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧) ٤٣ الزخرف

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ٤٣ الزخرف

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٦٩) ٤٣ الزخرف

ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) ٤٣ الزخرف

يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ (٧١) ٤٣ الزخرف

وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ٤٣ الزخرف

لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) ٤٣ الزخرف

---

٦٧ (الأخلاء) المتحابون فى الدنيا على الإطلاق أو فى الأمور الدنيوية (يومئذ) يوم إذ تأتيهم الساعة
* (بعضهم لبعض عدو) لانقطاع مابينهم من علائق الخلة والتحاب لظهور كونها أسباباً للعذاب (إلا
المتقين) فإن خلتهم فى الدنيا لما كانت فى الله تبقى على حالها بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم
٦٨ من الثواب ورفع الدرجات والاستثناء على الأول متصل وعلى الثانى منقطع (ياعبادى لاخوف عليكم
اليوم ولا أنتم تحزنون) حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ تشريفاً لهم وتطيباً لقلوبهم
٦٩ (الذين آمنوا بآياتنا) صفة للمنادى أو نصب على المدح (وكانوا مسلمين) أى مخلصين وجوههم لنا
جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وهو حال من واو آمنوا عن مقاتل إذا بعث الله الناس فزع كل أحد
فينادى مناد ياعبادى فيرفع الخلائق رؤسهم على الرجاء ثم يتبعها الذين آمنوا الآية فينكس أهل الأديان
٧٠ الباطلة رؤسهم (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم) نساؤكم المؤمنات (تحبرون) تسرون سروراً يظهر
حباره أى أثره على وجوهكم أو تزينون من الحبرة وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً بليغاً والحبرة
٧١ المبالغة فيما وصف بجميل (يطاف عليهم) بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به (بصحاف من ذهب
وأكواب) كذلك والصحاف جمع صحفة قيل هى كالقصعة وقيل أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة ثم
* المكيلة والأكواب جمع كوب وهو كوز لاعروة له (وفيها) أى فى الجنة (ماتشتهيه الأنفس) من
* فنون الملاذ وقرىء ماتشتهى (وتلذ الأعين) أى تستلذه وتقر بمشاهدته وقرىء وتلذه (وأنتم فيها
خالدون) إتمام للنعمة وإكمال للسرور فإن كل نعيم له زوال بالآخرة مقارن لخوفه لامحالة والالتفات
٧٢ للتشريف (وتلك الجنة) مبتدأ وخبر (التى أورثتموها) وقرىء ورثتموها (بما كنتم تعملون) فى
الدنيا من الأعمال الصالحة شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه العامل عليه وقيل تلك الجنة مبتدأ
وصفة والموصول مع صلته خبره وقيل هو صفة الجنة كالوجه الأول والخبر بما كنتم تعملون فتتعلق
٧٣ الباء بمحذوف لا بأورثتموها كما فى الأولين (لكم فيها فاكهة كثيرة) بحسب الأنواع والأصناف

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ٤٣ الزخرف

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ٤٣ الزخرف

وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ٤٣ الزخرف

وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ٤٣ الزخرف

لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ٤٣ الزخرف

أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ٤٣ الزخرف

لابحسب الأفراد فقط (منها تأكلون) أى بعضها تأكلون فى كل نوبة وأما الباقى فعلى الأشجار على *
الدوام لاترى فيها شجرة خلت عن ثمرها لحظة فهى مزينة بالثمار أبداً موقرة بها وعن النبى صلى الله
٧٤ عليه وسلم لاينزع رجل فى الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاها مكانها (إن المجرمين) أى الراسخين فى
الإجرام وهم الكفار حسبما ينبىء عنه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين بالآيات (فى عذاب جهنم خالدون) *
٧٥ خبر إن أو خالدون هو الخبر وفى متعلقة به (لايفتر عنهم) أى لا يخفف العذاب عنهم من قولهم فترت
عنه الحمى إذاسكنت قليلاوالتركيب للضعف (وهم فيه) أى فى العذاب وقرىء فيها أى فى النار (مبلسون) *
٧٦ آيسون من النجاة (وما ظلمناهم) بذلك (ولكن كانوا هم الظالمين) لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد
٧٧ (ونادوا) خازن النار (يامالك) وقرىء يامال على الترخيم بالضم والكسر ولعله رمز إلى ضعفهم
وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه (ليقض علينا ربك) أى ليميتنا حتى نستريح من قضى عليه إذا أماته والمعنى *
سل ربك أن يقضى علينا وهذا لاينافى ماذكر من إبلاسهم لأنه جؤار وتمن للموت لفرط الشدة (قال *
إنكم ماكثون) أى فى العذاب أبداً لاخلاص لكم منه بموت ولا بغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما
٧٨ أنه لايجيبهم إلا بعد ألف سنة وقيل بعد مائة وقيل بعد أربعين سنة (لقد جئناكم بالحق) فى الدنيا
بإرسال الرسل وإنزال الكتب وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك ومبين
لسبب مكثهم وقيل فى قال ضمير الله تعالى (ولكن أكثركم للحق) أى حق كان (كارهون) لايقبلونه *
٧٩ وينفرون عنه أما الحق المعهود الذى هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه (أم
أبرموا أمراً) كلام مبتدأ ناع على المشركين مافعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم وأم
منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للإنكار
فإن أريد بالإبرام الأحكام حقيقة فهى لإنكار الوقوع واستبعاده وإن أريد الأحكام صورة فهى
لإنكار الواقع واستقباحه أى أأبرم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه
(فإنا مبرمون) كيدنا حقيقة لاهم أو فإنا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما أبرموا كيدهم صورة كقوله *
تعالى أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون وكانوا يتناجون فى أنديتهم ويتشاورون فى أموره

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ٤٣ الزخرف

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ٤٣ الزخرف

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ٤٣ الزخرف

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ٤٣ الزخرف

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ٤٣ الزخرف

---

٨٠ عليه الصلاة والسلام (أم يحسبون) أى بل أيحسبون (أنا لانسمع سرهم) وهوماحدثوا به أنفسهم
٭ أو غيرهم فى مكان خال (ونجواهم) أى ماتكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى (بلى) نحن نسمعهما
٭ ونطلع عليهما (ورسلنا) الذين يحفظون عليهم أعمالهم ويلازمونهم أينما كانوا (لديهم) عندهم (يكتبون)
أى يكتبونهما أو يكتبون كل ماصدر عنهم من الأفعال والأقوال التى من جملتها ماذكر من سرهم
٨١ ونجواهم والجملة إما عطف على مايترجم عنه بلى أو حال أى نسمعهما والحال أن رسلنا يكتبون (قل)
أى للكفرة تحقيقاً للحق وتنبيهاً لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك لما يعبدونه من الملائكة عليهم
السلام ليست لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة مانسبوا إليهم وبنوا
٭ عليه عبادتهم من كونهم بنات الله تعالى (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أى له وذلك لأنه عليه
الصلاة والسلام أعلم الناس بشؤنه تعالى وبما يجوز عليه وبما لايجوز وأولاهم بمراعاة حقوقه ومن
مواجب تعظيم الوالد تعظيم ولده وفيه من الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها
وعلى كون رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة يقين وثبات قدم فى باب التوحيد مالايخفى مع مافيه
من استنزال الكفرة عن رتبة المكابرة حسبما يعرب عنه إيراد أن مكان لو المنبئة عن امتناع مقدم
الشرطية وقيل إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله تعالى وقيل فأنا أول الآنفين
أى المستنكفين منه أو من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه وقيل إن نافية أى ما كان
٨٢ للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وقرىء ولد (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما
يصفون) أى يصفونه به من أن يكون له ولد وفى إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه
على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته كيف يتوهم أن يكون شىء منها جزأ
٨٣ منه سبحانه وفى تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش (فذرهم) حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا
٭ هذا البرهان الجلى (يخوضوا) فى أباطيلهم (ويلعبوا) فى دنياهم فإن ماهم فيه من الأفعال والأقوال
٭ ليست إلا من باب الجهل واللعب والجزم فى الفعل لجواب الأمر (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون)
٨٤ من يوم القيامة فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله)
الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفى الذى ينبىء عنه الاسم الجليل من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه

وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ٤٣ الزخرف
وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ٤٣ الزخرف
فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ٤٣ الزخرف

بالمعبود بالحق كما مر فى تفسير البسملة كأنه قيل وهو الذى مستحق لأن يعبد فيهما وقد مر تحقيقه فى
سورة الأنعام وقرىء وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله والراجع إلى الموصول مبتدأ قد
حذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه ولا مساغ لكون الجار خبراً مقدماً وإله مبتدأ مؤخر
للزوم عراء الجملة حينئذ عن العائد نعم يجوز أن يكون صلة للموصول وإله خبراً لمبتدأ محذوف على أن
الجملة بيان للصلة وأن كونه فى السماء على سبيل الإلهية لا على سبيل الاستقرار وفيه نفى الآلهة السماوية
والأرضية وتخصيص لاستحقاق الإلهية به تعالى وقوله تعالى (وهو الحكيم العليم) كالدليل على ماقبله *
(وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) إما على الدوام كالهواء أو فى بعض الأوقات ٨٥
كالطير (وعنده علم الساعة) أى العلم بالساعة التى فيها تقوم القيامة (وإليه ترجعون) للجزاء والالتفات *
للتهديد وقرىء على الغيبة وقرىء تحشرون بالتاء (ولا يملك الذين يدعون) أى يدعونهم وقرىء بالتاء ٨٦
مخففاً ومشدداً (من دونه الشفاعة) كما يزعمون (إلا من شهد بالحق) الذى هو التوحيد (وهم يعلمون) *
بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الإفراد أولا باعتبار
لفظها والاستثناء إما متصل والموصول عام لكل ما يعبد من دون الله أو منفصل على أنه خاص بالأصنام
(ولئن سألتهم من خلقهم) أى سألت العابدين والمعبودين (ليقولن الله) لتعذر الإنكار لغاية بطلانه ٨٧
(فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكل مخلوقا له تعالى *
(وقيله) بالجر إما على أنه عطف على الساعة أى عنده علم الساعة وعلم قوله عليه الصلاة والسلام (يارب) ٨٨
الخ فإن القول والقيل والقال كلها مصادر أو على أن الواو للقسم وقوله تعالى (إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) *
جوابه وفى الإقسام به من رفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتفخيم دعائه والتجائه إليه تعالى ما لا يخفى
وقرىء بالنصب بالعطف على سرهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله أو بتقدير فعل القسم وقرىء
بالرفع على الابتداء والخبر مابعده وقد جوز عطفه على علم الساعة (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم ٨٩
واقنط عن إيمانهم (وقل سلام) أى أمرى تسلم منكم ومتاركة (فسوف يعلمون) حالهم البتة وإن تأخر *
ذلك وهو وعيد من الله تعالى لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء تعلمون على أنه داخل

﴿ سورة الزخرف ٤٣ ﴾

مكية كما روى عن ابن عباس وحكى ابن عطية اجماع أهل العلم على ذلك ولم ينقل استثناء ، وقال مقاتل: الا قوله تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) فانها نزلت ببيت المقدس كذا فى مجمع البيان ، وفى الاتقان نزلت بالسماء ، وقيل : بالمدينة، وعدد آيها ثمان وثمانون فى الشامى، وتسع وثمانون فى غيره، ووجه مناسبة مفتتحها لمختتم ماقبلها ظاهر .

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حـٰمٓ ١ ﴾ الكلام فيه على نحو مامر فى مفتتح يس ﴿ وَالْكِتَـٰبِ ﴾ أى القرآن والمراد به جميعه، وجوز ارادة جنسه الصادق ببعضه وكله ، وقيل : يجوز أن يراد به جنس الكتب المنزلة أو المكتوب فى اللوح أو المعنى المصدرى وهو الكتابة والخط ، وأقسم سبحانه بها لما فيها من عظيم المنافع ولا يخفى مافى ذلك، والأولى على تقدير اسمية (حم) كونه اسما للقرآن وأن يراد ذلك أيضا بالكتاب وهو مقسم به اما ابتداء أو عطفا على (حم) على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم على أن مدار العطف المغايرة فى العنوان لكن يلزم على هذا حذف حرف الجر وابقاء عمله كما فى • أشارت كليب بالأكف الأصابع • ومنع أن يقسم بشيئين بحرف واحد لايلتفت اليه ومناط تكرير القسم المبالغة فى تأكيد الجملة القسمية ﴿ الْمُبِينِ ٢ ﴾ أى المبين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليب كلامهم على أنه من أبان اللازم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لأصول مايحتاج اليه فى أبواب الديانة على أنه من أبان المتعدى •

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ جواب للقسم، والجعل بمعنى التصيير المعدى لمفعولين لا بمعنى الخلق المعدى لواحد لا لأنه ينافى تعظيم القرآن بل لأنه يأباه ذوق المقام المتكلم فيه لأن الكلام لم يسبق لتأكيد كونه مخلوقا وما كان إنكارهم متوجها عليه بل هو مسوق لإثبات كونه قرآناعربيا مفصلا وارداعلى أساليبهم لا يعسر عليهم فهم مافيه ودرك كونه معجزا كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ ﴾ أى لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظر الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على مايتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة فى ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية والقسم بالقرآن على ذلك من الايمان الحسنة البديعة لما فيه من رعاية المناسبة والتنبيه على أنه لاشىء أعلى منه فيقسم به ولا أهم من وصفه فيقسم عليه كما قال أبو تمام :

وثناياك إنهـــا اغريض ولآل قوم وبرق وميض

بناء على أن جواب القسم قوله : إنها اغريض ، واستدل بالآية على أن القرآن مخلوق وأطالوا الكلام فى ذلك ، وأجيب بأنه ان دل على المخلوقية فلا يدل على أكثر من مخلوقية الكلام اللفظى ولا نزاع فيها *

وأنت تعلم أن الحنابلة ينازعون فى ذلك ولهم عن الاستدلال أجوبة مذكورة فى كتبهم، وأخرج ابن مردويه. عن طاوس قال: جاء رجل الى ابن عباس من حضرموت فقال له: ياابن عباس أخبرنى عن القرآن أكلام من كلام الله تعالى أم خلق من خلق الله سبحانه قال: بل كلام من كلام الله تعالى أوما سمعت الله سبحانه يقول :(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فقال له الرجل أفرأيت قوله تعالى:(إنا جعلناه قرآناعربيا قال: كتبه الله تعالى فى اللوح المحفوظ بالعربية أما سمعت الله تعالى يقول: (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) فتأمل فيه ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ على ما ذهب اليه جمع فانه أم الكتب السماوية أى أصلها لأنها كلها منقولة منه، وقيل: (أم الكتاب) العلم الازلى، وقيل: الآيات المحكمات والضمير لحم أو للكتاب بمعنى السورة أى أنها واقعة فى الآيات المحكمات التى هى الام وهو كما ترى *

وقرأ الاخوان (إم) بكسر الهمزة لإتباع الميم أو (الكتاب) فلا تكسر فى عدم الوصل ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى عندنا ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ رفيع الشان بين الكتب لاعجازه واشتماله على عظيم الاسرار ﴿ حَكِيمٌ ٤ ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لاينسخه غيره أوحاكم على غيره من الكتب وهما خبران لإن ،وفى(أم الكتاب) قيل متعلق بعلى واللام لمافارقت محلها وتغيرت عن أصلها بطلت صدارتها فجاز تقديم ما فى حيزها عليها أو حال منه لأنه صفة نكرة تقدمتها أو من ضميره المستتر و(لدينا) بدل من (أم الكتاب) وهما وان كانا متغايرين بالنظر الى المعنى متوافقان بالنظر الى الحاصل أو حال منه أو من الكتاب فان المضاف فى حكم الجزء لصحة سقوطه ، ولعل المختار كون الظرفين فى موضع الخبر لمبتدا محذوف والجملة مستأنفة لبيان محل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا فى أم الكتاب ولدينا، ولم يجوزوا كونهما فى موضع الخبر لإن لدخول اللام فى غيرهما *

وأياما كان فالجملة المؤكدة إما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة فى حكمها وإما مستأنفة مقررة لعلو شأن القرآن

الذى أنبا الاقسام به على منهاج الاعتراض فى قوله تعالى: «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» وبعد ما بين سبحانه علو شأن القرآن العظيم وحقق جل وعلا ان انزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب سبحانه ذلك بانكار أن يكون الامر بخلافه فقال جل شأنه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ﴾ الذكر أى أفننحيه ونبعده عنكم على سبيل الاستعارة التمثيلية من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض شبه حال الذكر وتنحيته بحال غرائب الابل وذودها عن الحوض اذا دخلت مع غيرها عند الورد ثم استعمل ما كان فى تلك القصة ههنا، وفيه اشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر اليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم، ولو جعل استعارة فى المفرد بجعل التنحية ضربا جاز ومن ذلك قول طرفة:

أضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

وقول الحجاج فى خطبته يهدد أهل العراق: لأضربنكم ضرب غرائب الابل. و (الذكر) قيل المراد به القرآن ويروى ذلك عن الضحاك وأبى صالح والكلام على تقدير مضاف أى انزال الذكر وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر تفخيما، وقيل: بل هو ذكر العباد بما فيه صلاحهم فهو بمعنى المصدر حقيقة، وعن ابن عباس. ومجاهد ما يقتضيه، والهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف يقتضيه على أحد الرأيين فى مثل هذا التركيب أى أنهملكم فننحى الذكر عنكم، وقال ابن الحاجب: الفاء لبيان أن ما قبلها وهو جعل القرآن عربيا سبب لما بعدها وهو انكار ان يضرب سبحانه الذكر عنهم ﴿صَفْحًا﴾ أى اعراضا، وهو مصدر لنضرب من غير لفظه فان تنحية الذكر اعراض فنصبه على أنه مفعول مطلق على نهج قعدت جلوسا كأنه قيل: أفنصفح عنكم صفحا أو هو منصوب على أنه مفعول له أو حال مؤول بصافحين بمعنى معرضين، وأصل الصفح أن تولى الشئ صفحة عنقك، وقيل: إنه بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أى افننحيه عنكم جانبا، ويؤيده قراءة حسان بن عبد الرحمن الضبعى. والسميط ابن عمير. وشبيل بن عذرة (صفحا) بضم الصاد وحينئذ يحتمل أن يكون تخفيف صفح كرسل جمع صفوح بمعنى صافحين، وابو حيان اختار ان يكون مفردا بمعنى المفتوح كالسد والسد *

وحكى عن ابن عطية ان انتصاب صفحا على انه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة فيكون العامل فيه محذوفا، ولا يخفى أنه لا يظهر ذلك، وأياما كان فالمراد انكار أن يكون الأمر خلاف ماذكر من انزال كتاب على لغتهم ليفهموه ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥﴾ أى لأن كنتم منهمكين فى الاسراف مصرين عليه على معنى أن الحكمة تقتضى ذكركم وانزال القرآن عليكم فلا نترك ذلك لأجل انكم مسرفون لا تلتفتون اليه بل نفعل التفتم أم لا، وقيل: هو على معنى أن حالكم وان اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا فى العذاب الخالد لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهديكم الى الحق بارسال الرسول الامين وانزال الكتاب المبين *

وقرأ نافع. والاخوان (إن كنتم) بكسر الهمزة على أن الجملة شرطية، وإن وإن كانت تستعمل للمشكوك وإسرافهم أمر محقق لكن جىء بها هنا بناء على جعل المخاطب كأنه متردد فى ثبوت الشرط شاك فيه قصدا إلى نسبته إلى الجهل بارتكابه الاسراف لتصويره بصورة ما يفرض لوجوب انتفائه وعدم صدوره ممن يعقل، وقيل: لا حاجة إلى هذا لأن الشرط الاسراف فى المستقبل وهو ليس بمتحقق، ورد بأن إن الداخلة على كان لا تقلبه للاستقبال

عند الأكثر ، ولذا قيل : (ان) هنا بمعنى إذ ، وأيد بأن على بن زيد قرأ به وأنه يدل على التعليل فتوافق قراءة الفتح معنى ، ولو سلم فالظاهر من حال المسرف المصر على اسرافه بقاؤه على ماهو عليه فيكون محققا فى المستقبل أيضا على القول بأنها تقلب كان كغيرها من الافعال وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماقبل عليه ، وجوز أن يكون الشرط فى موقع الحال أى مفروضا اسرافكم على أنه من الكلام المنصف فلايحتاج إلى تقدير جواب *

وتعقب بأنه إنما يتأتى على القول بأن إن الوصلية ترد فى كلامهم بدون الواو والمعروف فى العربية خلافه *

وقوله عزوجل : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ ﴾ تقرير لماقبله ببيان أن اسراف الامم السالفة لم يمنعه تعالى من ارسال الانبياء اليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه به عليه الصلاة والسلام ، فقد قيل : البلية إذا عمت طابت ، و(كم) مفعول (أرسلنا) و(فى الاولين) متعلق به أو صفة (نبى) ومايأتيهم الخ للاستمرار وضميره للاولين ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ نوع آخر من التسلية له صلى الله عليه وسلم ، وضمير «منهم» يرجع إلى المسرفين المخاطبين لا إلى مايرجع اليه ضمير «مايأتيهم» لقوله تعالى : ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨ ﴾ أى سلف فى القرآن غير مرة ذكر قصتهم التى حقها أن تسير مسير المثل ، ونصب « بطشا » على التمييز وجوز كونه على الحال من فاعل « أهلكنا » أى باطشين ، والأول احسن ، ووصف أولئك بالاشدية لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الاولوية ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩ ﴾ عطف على الخطاب السابق والآيتان أعنى قوله تعالى : « وكم أرسلنا » اعتراض لافادة التقرير والتسلية كما سمعت ، والمراد ولئن سألتهم من خلق العالم ليسندن خلقه الى من هو متصف بهذه الصفات فى نفس الامر لأنهم يقولون هذه الالفاظ ويصفونه تعالى بما ذكر من الصفات ذكره الزمخشرى فيما نسب اليه ، وهذا حسن وله نظير عرفاوهوأن واحداً لوأخبرك أن الشيخ قال كذا وعنى بالشيخ شمس الائمة ثم لقيت شمس الائمة فقلت : إن فلانا أخبرنى أن شمس الائمة قال : كذا مع أن فلانا لم يجر على لسانه الا الشيخ ولكنك تذكر ألقابه وأوصافه فكذا ههنا الكفار يقولون : خلقهن الله لاينكرون ثم أن الله عز وجل ذكر صفاته أى أن الله تعالى الذى يحيلون عليه خلق السموات والارض من صفته سبحانه كيت وكيت ، وقال ابن المنير : إن (العزيز العليم) من كلام المسؤلين وما بعد من كلامه سبحانه . وفى الكشف لافرق بين ذلك الوجه وهذا فى الحاصل فانه حكاية كلام عنهم متصل به كلامه تعالى على أنه من تتمته وان لم يكن قد تفوهوا به ، وهذا كما يقول مخاطبك : أكرمنى زيد فتقول : الذى أكرمك وحياك أو لجماعة آخرين حاضرين الذى أكرمكم وحياكم فانك تصل كلامك بكلامه على أنه من تتمته ولكن لاتجعله من مقوله ، والاظهر من حيث اللفظ ماذكره ابن المنير وحينئذ يقع الالتفات فى (فأنشرنا) بعد موقعه ، ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : (لايضل ربى ولا ينسى) الى قوله تعالى : «فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى » وفى اعادة الفعل فى الجواب اعتناء بشأنه ومطابقته للسؤال من حيث المعنى على مازعم أبو حيان لامن حيث اللفظ قال : لأن من مبتدأ فلو طابق فى اللفظ لكان بالاسم مبتدأ دون الفعل بأن يقال : العزيز العليم خلقهن ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ مكانا ممهدا أى موطأ ومآله بسطها لكم تستقرون فيها

ولا ينافى ذلك كريتها لمكان العظم، وعن عاصم أنه قرأ (مهدا) بدون ألف ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ طرقا تسلكونها فى أسفاركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠ ﴾ أى لكى تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذى هو المقصد الاصلى ﴿ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أى بمقدار تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم والمصالح ولا يعلم مقدار ما ينزل من ذلك فى كل سنة على التحقيق الا الله عز وجل، والآلة التى صنعها الفلاسفة فى هذه الاعصار المسماة بالاودوميتر يزعمون أنه يعرف بها مقدار المطر النازل فى كل بلد من البلاد فى جميع السنة لا تفيد تحقيقا فى البقعة الواحدة الصغيرة فضلا عن غيرها كما لا يخفى على المنصف. وفى البحر بقدر أى بقضاء وحتم فى الأزل، والأول أولى ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ ﴾ أى أحيينا بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ خالية عن النماء والنبات بالكلية *

وقرأ أبو جعفر. وعيسى (ميتا) بالتشديد، وتذكيره لأن البلدة فى معنى البلد والمكان، قال الجلبى: لا يبعد والله تعالى أعلم أن يكون تأنيث البلد وتذكير (ميتا) اشارة إلى بلوغ ضعف حاله الغاية، وفى الكلام استعارة مكنية أو تصريحية *

والالتفات فى (أنشرنا) إلى نون العظمة لاظهار كمال العناية بامر الاحياء والاشعار بعظم خطره ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الانشار الذى هو فى الحقيقة اخراج النبات من الارض وهو صفة مصدر محذوف أى انشارا كذلك ﴿ تُخْرَجُونَ ١١ ﴾ أى تبعثون من قبوركم أحياء، وفى التعبير عن اخراج النبات بالانشار الذى هو احياء الموتى وعن إحيائهم بالاخراج تفخيم لشأن الانبات وتهوين لأمر البعث، وفى ذلك من الرد على منكريه ما فيه *

وقرأ ابن وثاب. وعبد الله بن جبير. وعيسى. وابن عامر. والاخوان (تخرجون) مبنيا للفاعل *

﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أى أصناف المخلوقات فالزوج هنا بمعنى الصنف لا بمعناه المشهور، وعن ابن عباس الأزواج الضروب والأنواع كالحلو. والحامض. والأبيض. والأسود. والذكر. والأنثى، وقيل: كل ما سوى الله سبحانه زوج لأنه لا يخلو من المقابل كفوق وتحت ويمين وشمال وماض ومستقبل إلى غير ذلك والفرد المنزه عن المقابل هو الله عز وجل، وتعقب بأن دعوى اطراده فى الموجودات بأسرها لا تخلو عن النظر *

ولعل من قال: كل ما سوى الله سبحانه زوج لم يبن الأمر على ما ذكر وإنما بناه على أن الواجب جل شأنه واحد من جميع الجهات لا تركيب فيه سبحانه بوجه من الوجوه لا عقلا ولا خارجا ولا كذلك شئ من الممكنات مادية كانت أو مجردة ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢ ﴾ أى ما تركبونه، فما موصولة والعائد محذوف، والركوب بالنظر إلى الفلك يتعدى بواسطة الحرف وهو فى كما قال تعالى: (وإذا ركبوا فى الفلك) بخلافه لا بالنظر اليه فانه يتعدى بنفسه كما قال سبحانه: (لتركبوها) إلا أنه غلب المتعدى بغير واسطة لقوته على المتعدى بواسطة فالتجوز الذى يقتضيه التغليب بالنسبة إلى المتعلق أو غلب المخلوق للركوب على المصنوع له لكونه مصنوع الخالق القدير أو الغالب على النادر فالتجوز فى (ما) وضميره الذى تعدى الركوب اليه بنفسه دون النسبة إلى المفعول ولتغليب ماركب من الحيوان على الفلك ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ حيث عبر عن القرار على الجميع بالاستواء على الظهور المخصوص بالدواب والضمير لما تركبون، وأفرد رعاية للفظ، وجمع ظهور مع إضافته اليه رعاية لمعناه، والظاهر أن لام (لتستووا) لام كي، وقال الحوفى: من أثبت لام الصيرورة جاز له

أن يقول به هنا ، وقال ابن عطية : هى لام الأمر، وفيه بعد من حيث استعماله أمر المخاطب بتاء الخطاب ، وقد اختلف فى أمره فقيل: إنه لغة رديئة قليلة لاتكاد تحفظ إلا فى قراءة شاذة نحو (فبذلك فلتفرحوا) أو شعر نحو قوله : * لتقم أنت يابن خير قريش * وماذكره المحدثون من قوله عليه الصلاة والسلام : لتأخذوا مصافكم يحتمل أنه من المروى بالمعنى ، وقال الزجاج : إنها لغة جيدة ، وأبو حيان على الأول وحكاه عن جمهور النحويين *

﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم وهذا هو معنى ذكر نعمة الله تعالى عليهم على ماقال الزمخشرى، وحاصله ان الذكر يتضمن شعور القلب والمرور على اللسان فنزل على أكمل أحواله وهو أن يكون ذكرا باللسان مع شعور من القلب، وأما الاعتراف والاستعظام فمن نعمة ربكم لاقتضائه الاحضار فى القلب لذلك وهذا عين الحمد الذى هو شكر فى هذا المقام لا أنه يوجبه وإن كان ذلك التقرير سديدا أيضا ، ومنه يظهر إيثاره على ثم تحمدوا إذا استويتم، ومن جوز استعمال المشترك فى معنييه جوز هنا أن يراد بالذكر الذكر القلبى والذكر اللسانى وهو كما ترى *

ولما كانت تلك النعمة متضمنة لأمر عجيب قال سبحانه : ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ أى وتقولوا سبحان الذى ذلله وجعله منقادا لنا متعجبين من ذلك، وليس الاشارة للتحقير بل لتصوير الحال وفيها مزيد تقرير لمعنى التعجب ، والكلام وإن كان إخبارا على ماسمعت أولا يشعر بالطلب *

أخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر عن أبى مجاز قال : رأى الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما وكرم وجههما رجلا ركب دابة فقال: سبحان الذى سخر لنا هذا فقال:أو بذلك أمرت؟ فقال: فكيف أقول؟ قال :الحمد لله الذى هدانا للاسلام الحمد لله الذى من علينا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحمد لله الذى جعلنى فى خير أمة أخرجت للناس ثم تقول : (سبحان الذى سخر لنا هذا -إلى- مقرنين) وهذا يومى إلى أن ليس المراد من النعمة نعمة التسخير ، وأخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب أنه فسرها بنعمة الاسلام *

وأخرج أحمد . وأبو داود . والترمذى وصححه . والنسائى . وجماعة عن على كرم الله تعالى وجهه أنه أتى بدابة فلما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله فلما استوى على ظهرها قال . الحمد لله ثلاثا والله أكبر ثلاثا سبحان الذى سخر لنا هذا إلى لمنقلبون سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم ضحك فقيل له : مم ضحكت ياأمير المؤمنين ؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك فقلت : يارسول الله مم ضحكت ؟ فقال . يتعجب الرب من عبده إذا قال: رب اغفر لى ويقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى ، وفى حديث أخرجه مسلم . والترمذى . وأبو داود . والدارمى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر حمد الله تعالى وسبح وكبر ثلاثا ثم قال : سبحان الذى سخر لنا هذا إلى لمنقلبون ، وفى حديث أخرجه أحمد . وغيره عن رسول الله ﷺ قال : ما من بعير إلا فى ذروته شيطان فاذكروا اسم الله تعالى إذا ركبتموه كما أمركم ، وظاهر النظم الجليل أن تذكر النعمة والقول المذكور لا يخصان ركوب الانعام بل يعمانها والفلك ، وذكر بعضهم أنه يقال : إذا ركبت السفينة (بسم الله مجراها ومرساها - إلى - رحيم) ويقال : عند النزول منها « اللهم

أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ١٣ ﴾ أى مطيقين ، وأنشد قطرب لعمرو ابن معدى كرب : لقد علم القبائل ما عقيل لنا فى النائبات بمقرنينا

وهو من أقرن الشيء إذا أطاقه ، قال ابن هرمة :

واقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصد يادعد والهجر

وحقيقة أقرنه وجده قرينته ومايقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف ألا ترى إلى قولهم فى الضعيف لاتقرن به الصعبة ، والقرن الحبل الذى يقرن به ، قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وحاصل المعنى أنه ليس لنا من القوه مايضبط به الدابة والفلك وإنما الله تعالى هو الذى سخر ذلك وضبطه لنا *

أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن سليمان بن يسار أن قوما كانوا فى سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وكان فيهم رجل له ناقة رزام فقال : أما أنا فلهذه مقرن فقمصت به فصرعته فاندقت عنقه ، وقرىء (مقرّنين) بتشديد الراء مع فتحها وكسرها وهما بمعنى المخفف *

﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ١٤ ﴾ أى راجعون ، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من السير ويتذكر منه المسافرة العظمى التى هى الانقلاب الى الله تعالى فيبنى أموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يأتى بما ينافيها ، ومن ضرورة ذلك أن يكون ركوبه لأمر مشروع ، وفيه اشارة الى أن الركوب مخطرة فلا ينبغى أن يغفل فيه عن تذكر الآخرة *

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ متصل بقوله تعالى : «ولئن سألتهم» الى آخره فهو حال من فاعل «ليقولن» بتقدير قد أو بدونه ، والمراد بيان أنهم مناقضون مكابرون حيث اعترفوا بأنه عز وجل خالق السموات والأرض ثم وصفوه سبحانه بصفات المخلوقين وما يناقض كونه تعالى خالقا لهما فجعلوا له سبحانه جزأ وقالوا : الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً ، وعبر عن الولد بالجزء لأنه بضعة ممن هو ولد له كما قيل : أولادنا أكبادنا ، وفيه دلالة على مزيد استحالته على الحق الواحد الذى لا يضاف اليه انقسام حقيقة ولا فرضا ولا خارجا ولا ذهنا جل شأنه وعلا ، ولتأكيد أمر المناقضة لم يكتف بقوله تعالى : «جزأ» وقيل «من عباده» لأنه يلزمهم على موجب اعترافهم أن يكون ما فيهما مخلوقه تعالى وعبده سبحانه اذ هو حادث بعدهما محتاج اليهما ضرورة *

وقيل : الجزء اسم الاناث يقال : أجزأت المرأة اذ ولدت أنثى ، وأنشد قول الشاعر :

ان أجزأت حرة يوما فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكار احيانا

وقوله : زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن فى ابياتها زجل

وجعل ذلك الزمخشرى من بدع التفاسير وذكر ان ادعاء ان الجزء فى لغة العرب اسم للاناث كذب عليهم ووضع مستحدث منحول وأن البيتين مصنوعان ، وقال الزجاج : فى البيت الاول لا ادرى قديم أم مصنوع *

ووجه بعضهم ذلك بأن حواء خلقت من جزء آدم عليه السلام فاستعير لكل الاناث *

وقرأ أبو بكر عن عاصم «جزأ» بضمتين ، ثم الكلام وإن سيق للفرض المذكور يفهم منه كفرهم لتجسيم الخالق تعالى والاستخفاف به جل وعلا حيث جعلوا له سبحانه أخس النوعين بل اثبات ذلك يستدعي الامكان

المؤذن بحدوثه تعالى فلا يكون الها ولا بارئا ولا خالقا تعالى عما يقولون وسبحانه عما يصفون، وليس الكلام مساقا لتعديد الكفران كما قيل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ لا يقتضيه فان المراد المبالغة فى كفران النعمة وهى فى انكار الصانع أشد من المبالغة فى كفرهم به كما أشير اليه، و«مبين» من أبان اللازم أى ظاهر الكفران، وجوز أن يكون من المتعدى أى مظهر كفرانه ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ (أم) مقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال والهمزة للانكار والتعجيب من شأنهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ١٦﴾ إما عطف على «اتخذ» داخل فى حكم الانكار والتعجيب أو حال من فاعله باضمار قد أو بدونه، والالتفات الى خطابهم لتشديد الانكار أى بل اتخذ سبحانه من خلقه أخس الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أن اضافة اتخاذ الولد اليه سبحانه جائزة فرضا أما تفطنتم لما ارتكبتم من الشطط فى القسمة وقبح ما ادعيتم من أنه سبحانه آثركم على نفسه بخير الجزئين وأعلاهما وترك له جل شأنه شرهما وأدناهما فما انتم الا فى غاية الجهل والحماقة، وتنكير بنات وتعريف البنين لقرينة ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ قيل: حال وارتضاه العلامة الثانى على معنى أنهم نسبوا اليه تعالى ما ذكروا من حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم، وقيل: استئناف مقرر لما قبله، وجوز عطفه على ما قبله وليس بذاك. والالتفات للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكى لغيرهم تعجيباء والجملة الأسمية فى موضع الحال أى اذا أخبر أحدهم بجنس ما جعله مثلا للرحمن جل شأنه وهو جنس الاناث لأن الولد لابد أن يجانس الولد ويماثله صار وجهه أسود فى الغاية لسوء ما بشر به عنده والحال هو مملوء من الكرب والكآبة، وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت.

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا وليس لنا من أمرنا ما شينا

* وانما نأخذ ما أعطينا *

وقرئ «مسود» بالرفع و«مسواد» بصيغة المبالغة من اسواد كاحمار مع الرفع أيضا على أن فى «ظل» ضمير المبشر ووجهه مسود أو مسواد جملة واقعه موقع الخبر، والمعنى صار المبشر مسود الوجه وقيل: الضمير المستتر فى «ظل» ضمير الشأن والجملة خبرها، وقيل: الفعل تام والجملة حالية والوجه ما تقدم، وقوله تعالى:

﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ تكرير للانكار و«من» منصوبة المحل بمضمر مطعوف على «جعلوا» وهناك مفعول محذوف أيضا أى أوجعلوا له تعالى من شأنه أن يتربى فى الزينة وهن البنات كما قال ابن عباس: ومجاهد وقتادة. والسدى: ولدا فالهمزة لانكار الواقع واستقباحه *

وجوز انتصاب «من» بمضمر معطوف على «اتخذ» فالهمزة حينئذ لانكار الوقوع واستبعاده، واقحامها بين المعطوفين لتذكير ما فى أم المنقطعة من الانكار، والعطف للتغاير العنوانى أى أو اتخذ سبحانه من هذه الصفة الذميمة ولدا ﴿وَهُوَ﴾ مع ما ذكر من القصور ﴿فِي الْخِصَامِ﴾ أى الجدال الذى لا يكاد يخلو عنه انسان فى العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾ غير قادر على تقرير دعواه واقامته حجته لنقصان عقله وضعف رأيه، والجار متعلق

بمبين، وإضافة (غير) لا تمنع عمل مابعدها فيه لأنه بمعنى النفي فلا حاجة لجعله متعلقا بمقدر ، وجوز كون من مبتدأ محذوف الخبر أى أومن حاله كيت وكيت ولده عزوجل، وجعل بعضهم خبره جعلوه ولدا لله سبحانه وتعالى أواتخذه جل وعلا ولدا ، وعن ابن زيد أن المراد بمن ينشأ فى الحلية الاصنام قال: وكانوا يتخذون كثيرا منها من الذهب والفضة ويجعلون الحلى على كثير منها ، وتعقب بأنه يبعد هذا القول قوله تعالى : (وهو فى الخصام غير مبين) إلا إن اريد بنفى الابانة نفى الخصام أى لا يكون منها خصام فابانة كقوله ٭ على لاحب لا يهتدى بمناره ٭

وعندى أن هذا القول بعيد فى نفسه وأن الكلام أعنى قوله سبحانه: (أم اتخذ) إلى هنا وارد لمزيد الانكار فى أنهم قوم من عادتهم المناقضة ورمى القول من غير علم، وفى المجىء بأم المنقطعة ومافى ضمنها من الاضراب دليل على أن معتمد الكلام اثبات جهلهم ومناقضتهم لا اثبات كفرهم لكنه يفهم منه كما سمعت وتسمع إن شاء الله تعالى ، وقرأ الجحدرى فى رواية (ينشأ) مبنيا للمفعول مخففا ، وقرأ الحسن فى رواية أيضا (يناشأ) على وزن يفاعل مبنيا للمفعول، والمناشاة بمعنى الانشاء كالمغالاة بمعنى الاغلاء ، وقرأ الجمهور (ينشأ) مبنيا للفاعل، والآية ظاهرة فى أن النشوء فى الزينة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفات ربات الحجال فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر رضى الله تعالى عنه اخشوشنوا فى اللباس واخشوشبوا فى الطعام وتمعددوا وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى، وقوله تعالى :

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ أى سموا وقالوا :إنهم أناث، قال الزجاج: الجعل فى مثله بمعنى القول والحكم على الشىء تقول: جعلت زيدا أعلم الناس أى وصفته بذلك وحكمت به، واختار أبو حيان أن المعنى صيروهم فى اعتقادهم اناثا اعتراض وارد لإثبات مناقضتهم أيضا وادعاء مالا علم لهم به المؤيد لجعله معتمد الكلام على ماسبق آنفا فانهم أنثوهم فى هذا المعتقد من غير استناد إلى علم فارشد الى أن ماهم عليه من اثبات الولد مثل ماهم عليه من تأنيث الملائكة عليهم السلام فى أنهما سخف وجهل كانا كفرين أولا، نعم هما فى نفس الامر كفران، أما الأول فظاهر ،وأما الثانى فللاستخفاف برسله سبحانه أعنى الملائكة وجعلهم أنقص العباد رأيا وأخسهم صنفا وهم العباد المكرمون المبرأون من الذكورة والانوثة فانهما من عوارض الحيوان المتغذى المحتاج الى بقاء نوعه لعدم جريان حكمة الله تعالى ببقاء شخصه وليس ذلك عطفا على قوله سبحانه: (وجعلوا له من عباده جزأ) لما علمت من أن الجملة فى موضع الحال من فاعل (ليقولن) ولا يحسن بحسب الظاهر أن يقال. (ليقولن خلقهن العزيز العليم) وقد جعلوا الملائكة اناثا ، وقرىء عبيد جمع عبد وكذا (عباد) وقيل: عباد جمع عابد كصائم وصيام وقائم وقيام ، وقرأ عمر بن الخطاب . والحسن . وأبو رجاء . وقتادة . وأبو جعفر . وشيبة . والاعرج . والابنان. ونافع (عند الرحمن) ظرفا وهو أدل على رفع المنزلة وقرب المكانة، والكلام على الاستعارة فى المشهور لاستحالة العندية المكانية فى حقه سبحانه ، وقرأ أبى عبد الرحمن بالباء مفرد عباد، والمعنى على الجمع بارادة الجنس ٭

وقرأ الاعمش (عباد) بالجمع والنصب حكاها ابن خالويه وقال: هى فى مصحف ابن مسعود كذلك، وخرج أبو حيان النصب على اضمار فعل أى الذين هم خلقوا عباد الرحمن ، وقرأ زيد بن على (أنثا) بضمتين ككتب جمع اناثا فهو جمع الجمع ، وعلى جميع القراءات الحصر إذا سلم اضافى فلا يتم الاستدلال به على أفضلية الملك على البشر ٭

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أى أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم اناثا حتى يحكموا بأنوثتهم فان ذلك مما يعلم

بالمشاهدة، وهذا كقوله تعالى (أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون) وفيه تجهيل لهم وتهكم بهم، وإنما لم يتعرض لنفي الدلائل النقلية لأنها في مثل هذا المطلب مفرعة على القول بالنبوة وهم الكفرة الذين لا يقولون بها ولنفي الدلائل العقلية لظهور انتفائها والنفي المذكور أظهر في التهكم فافهم، وقرأ نافع (أأشهدوا) بهمزة داخلة على أشهد الرباعي المبني للمفعول، وفي رواية أنه سهل هذه الهمزة فجعلها بين الهمزة والواو وهي رواية عن أبي عمرو، وروى ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس. ومجاهد، وفي أخرى أنه سهلها وأدخل بينها وبين الاولى ألفا كراهة اجتماع همزتين ونسبت الى جماعة، والاكتفاء بالتسهيل أوجه، وقرأ الزهري وناس (اشهدوا) بغير استفهام مبنيا للمفعول رباعيا فقيل المعنى على الاستفهام نحو قوله: * قالوا تحبها قلت بهرا * وهو الظاهر، وقيل: على الاخبار، والجملة صفة (اناثا) وهم وإن لم يشهدوا خلقهم لكن نزلوا لجراءتهم على ذلك منزلة من أشهد أو المراد أنهم أطلقوا عليهم الاناث المعروفات لهم اللاتي اشهدوا خلقهن لا صنفا آخر من الاناث؛ ولا يخفى ما في كلا التأويلين من التكلف ﴿ سَتُكْتَبُ ﴾ في ديوان أعمالهم ﴿ شَهَادَتُهُمْ ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة عليهم السلام، وقيل: سألهم الرسول ﷺ ما يدريكم أنهم اناث فقالوا: سمعنا ذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فقال الله تعالى: (ستكتب شهادتهم) ﴿ وَيُسْأَلُونَ ١٩ ﴾ عنها يوم القيامة، والكلام وعيد لهم بالعقاب والمجازاة على ذلك والسين للتأكيد، وقيل: يجوز أن تحمل على ظاهرها من الاستقبال ويكون ذلك اشارة الى تأخير كتابة السيآت لرجاء التوبة والرجوع كما ورد في الحديث إن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فاذا أراد أن يكتبها قال له: توقف فيتوقف سبع ساعات فان استغفر وتاب لم يكتب فلما كان ذلك من شأن الكتابة قرنت بالسين، وكونهم كفارا مصرين على الكفر لا يأباه. وقرأ الزهري (سيكتب) بالياء التحتية مبنيا للمفعول، وقرأ الحسن كالجمهور الا أنه قرأ (شهاداتهم) بالجمع وهي قولهم: ان لله سبحانه جزأ وان له بنات وانها الملائكة، وقيل: المراد ما أريد بالمفرد والجمع باعتبار التكرار، وقرأ ابن عباس. وزيد بن علي. وأبو جعفر. وأبو حيوة. وابن أبي عبلة. والجحدري. والاعرج (سنكتب) بالنون مبنيا للفاعل (شهادتهم) بالنصب والافراد *

وقرأت فرقة (سيكتب) بالياء التحتية مبنيا للفاعل وبافراد (شهادتهم) ونصبها أي سيكتب الله تعالى شهادتهم *

وقرىء (يساءلون) من المفاعلة للمبالغة ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ عطف على قوله سبحانه: (وجعلوا الملائكة) الخ اشارة الى أنه من جنس ادعائهم أنوثة الملائكة في أنهم قالوه من غير علم، ومرادهم بهذا القول على ما قاله بعض الاجلة الاستدلال بنفي مشيئة الله تعالى ترك عبادة الملائكة عليهم السلام على امتناع النهي عنها أو على حسنها فكأنهم قالوا: ان الله تعالى لم يشأ ترك عبادتنا الملائكة ولو شاء سبحانه ذلك لتحقق بل شاء جل شأنه العبادة لأنها المتحققة فتكون مأمورا بها أو حسنة ويمتنع كونها منهيا عنها أو قبيحة، وهو استدلال باطل لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض حسنا كان أو قبيحا فلذلك جهلوا بقوله سبحانه: ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ ﴾ القول على الوجه الذي قصدوه منه، وحاصله يرجع الى الاشارة الى زعمهم أن المشيئة تقتضي طباق الأمر لها أو حسن ما تعلقت به ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يستند الى سند ما *

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠ ﴾ أي يكذبون كما فسره به غير واحد، ويطلق الخرص على الحزر وهو شائع

بل قيل : إنه الاصل وعلى كل هو قول عن ظن وتخمين ، وقوله تعالى :

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّنْ قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١ ﴾ اضراب عن نفي أن يكون لهم بذلك علم من طريق العقل الى ابطال أن يكون لهم سند من جهة النقل ، فأم منقطعة لا متصله معادلة لقوله تعالى : (أشهدوا) كما قيل لبعده وضمير (قبله) للقرآن لعلمه من السياق أو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسين مستمسكون للتأكيد لا للطلب أي بل آتيناهم كتابا من قبل القرآن أو من قبل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ينطق بصحة ما يدعونه فهم بذلك الكتاب متمسكون وعليه معولون ، وقوله جل وعلا :

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢ ﴾ ابطال لأن يكون لهم حجة أصلا أي لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية وانما جنحوا فيه الى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم ، والامة الدين والطريقة التي تؤم أي كالرحلة للرجل العظيم الذي يقصد في المهمات يقال : فلان لا أمة له أي لا دين ولا نحلة ، قال الشاعر : ☆ وهل يستوي ذو أمة وكفور ☆ وقال قيس بن الحطيم :

كنا على امة آبائنا ويقتدي بالأول الآخر

وقال الجبائي : الامة الجماعة والمراد وجدنا آباءنا متوافقين على ذلك ، والجمهور على الأول وعليه المعول ، ويقال فيها إمة بكسر الهمزة أيضا وبها قرأ عمر بن عبد العزيز . ومجاهد . وقتادة . والجحدري ،

وقرأ ابن عياش (أمة) بفتح الهمزة ، قال في البحر : أي على قصد وحال ، و(على اثارهم مهتدون) قيل خبران لان ، وقيل : على آثارهم صلة « مهتدون » ومهتدون هو الخبر ، هذا وجعل الزمخشري الآية دليلا على أنه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر وانما شاء سبحانه الايمان ، وكفر أهل السنة القائلين بأن المقدورات كلها بمشيئة الله تعالى ، ووجه ذلك بأن الكفار لما ادعوا أنه تعالى شاء منهم الكفر حيث قالوا : (لو شاء الرحمن) الخ أي لو شاء جل جلاله منا أن نترك عبادة الاصنام تركناها رد (الله) تعالى ذلك عليهم وأبطل اعتقادهم بقوله سبحانه : (مالهم بذلك من علم) الخ فلزم حقيقة خلافه وهو عين ما ذهب اليه ، والجملة عطف على قوله تعالى: (وجعلوا له من عباده جزأ) أو على (جعلوا الملائكة) الخ فيكون ما تضمنته كفرا آخر ويلزمه كفر القائلين بأن الكل بمشيئته عز وجل ، ومما سمعت يعلم رده ، وقيل : في رده أيضا : يجوز أن يكون ذلك اشارة الى أصل الدعوى وهو جعل الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا دون ما قصدوه من قولهم :(لو شاء) الخ وما ذكر بعد أصل الدعوى من تتمتها فانه حكاية شبهتهم المزيفة لأن العبادة للملائكة وان كانت بمشيئته تعالى لكن ذلك لا ينافي كونها من أقبح القبائح المنهي عنها وهذا خلاف الظاهر

وقال بعض الأجلة : إن كفرهم بذلك لأنهم قالوه على جهة الاستهزاء ، ورده الزمخشري بأن السياق لا يدل على أنهم قالوه مستهزئين ، على الله تعالى قد حكى عنهم على سبيل الذم والشهادة بالكفر أنهم جعلوا له سبحانه جزأ وأنه جل وعلا اتخذ بنات واصطفاهم بالبنين وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين اناثا وأنهم عبدوهم وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي الذي هو ايمان عنده لوجدوا بالنطق به مدحاً لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء فبقي أن يكونوا

جادين ويشترك كلها في أنها كلمات كفر ، فان جعلوا الاخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ماقبله فما بهم الا تعويج كتاب الله تعالى ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزأ لم يكن لقوله سبحانه : (مالهم بذلك من علم) الخ معنى لأن الواجب فيمن تكلم بالحق استهزاء أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب ، ولايخفى أن رده بأنه لايدل عليه السياق صحيح ، وأما ما ذكر من حكاية الله سبحانه والتعويج فلا لأنه تعالى ما حكى عنهم قولا أولا بل أثبت لهم اعتقادا يتضمن قولا أوفعلا وقد بين أنهم مستخفون في ذلك العقد كما أنهم مستخفون في هذا القول فقوله : لو نطقوا الخ لامدخل له في السابق وليس فيه تعويج البتة من هذا الوجه وكذلك قوله: لم يكن لقوله تعالى : (ما لهم) الخ معنى مردود لأن الاستهزاء باب من الجهل كما يدل عليه قول موسى عليه السلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) وقد تقدم في البقرة ، وأما الكذب فراجع الى مضمونه والمراد منه كما سمعت فمن قال لا اله الا الله استهزاء مكذب فيما يلزم من أنه اخبار عن اثبات التعدد لأنه اخبار عن التوحيد فافهم كذا في الكشف ه

وفيه أيضا أن قولهم : (لو شاء الرحمن) الخ فهم منه كونه كفرا من أوجه . احدها أنه اعتذار عن عبادتهم الملائكة عليهم السلام التي هي كفر والزام أنه إذا كان بمشيئته تعالى لم يكن منكرا ه

والثاني أن الكفر والايمان بتصديق ما هو مضطر الى العلم بثبوته بديهة أو استدلالا متعلقا بالمبدأ والمعاد وتكذيبه لا بايقاع الفعل على وفق المشيئة وعدمه ه

والثالث أنهم دفعوا قول الرسل بدعوتهم الى عبادته تعالي ونهيهم عن عبادة غيره سبحانه بهذه المقالة ثم انهم ملزمون على مساق هذا القول لأنه اذا استند الكل الى مشيئته تعالى شأنه فقد شاء ارسال الرسل وشاء دعوتهم للعباد وشاء سبحانه جحودهم وشاء جل وعلا دخولهم النار فالانكار والدفع بعد هذا القول دليل على أنهم قالوه لاعن اعتقاد بل مجازفة ، واليه الاشارة بقوله تعالى في مثله : (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) وفيه أنهم يعجزون الخالق باثبات التمانع بين المشيئة وضد المأمور به فيلزم أن لايريد الا ما أمر سبحانه به ولا ينهى جل شأنه الا وهو سبحانه لايريده وهذا تعجيز من وجهين . اخراج بعض المقدورات عن أن يصير محلها وتضييق محل أمره ونهيه ، وهذا بعينه مذهب إخوانهم من القدرية ، ولهذه النكتة جعل قولهم : (وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم) معتمد الكلام ولم يقل: وعبدوا الملائكة وقالوا: لو شاء ونظير قولهم في أنه انما أتى به لدفع ما علم ضرورة قوله تعالى عنهم : (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) فالدفع كفر والتعجيز كفر في كفر ، وقوله تعالى : (مالهم بذلك من علم) يحتمل أن يرجع الى جميع ماسبق من قوله تعالى (وجعلوا له من عباده) الى هذا المقام ويحتمل أن يرجع الى الاخير فقد ثبت أنهم قالوه من غير علم وهو الاظهر للقرب وتعقيب كل بانكار مستقل وطباقه لما في الانعام ، وقوله سبحانه: (انهم الا يخرصون) على هذا التكذيب المفهوم منه راجع الى استنتاج المقصود من هذه اللزومية فقد سبق أنها عليهم لا لهم ولوح الى طرف منه في سورة الانعام أو الى الحكم بامتناع الانفكاك مع تجويز الحاكم الانفكاك حال حكمه فان ذلك يدل على كذبه وان كان ذلك الحكم في نفسه حقا صحيحا يحق أن يعلم كما تقول زيد قائم قطعا أو البتة وعندك احتمال نقيضه ه

وليس هذا رجوعا الى مذهب من جعل الصدق بطباقه للمعتقد فافهم ، على أنه لما كان اعتذارا على ما مر صح أن يرجع التكذيب الى أنه لايصلح اعتذارا أي أنهم كاذبون في أن المشيئة تقتضي طباق الأمر لها ، وهذا ما آثره

الامام والعلامة والقاضى، والظاهر ما قدمناه وتعقيب الخرص على وجه البيان أو الاستئناف عن قوله تعالى: (مالهم بذلك من علم) وقوله تعالى: (إن يتبعون الا الظن) فى سورة الانعام دليل على ما أشرنا فقد لاح للمسترشد أن الآية تصلح حجة لأهل السنة لا للمعتزلة، وقال فى آية سورة الانعام: إن قولهم هذا إما لدعوى المشروعية رد للرسل أو لتسليم أنهم على الباطل اعتذارا بأنهم مجبورون، والأول باطل لأن المشيئة تتعلق بفعلهم المشروع وغيره فما شاء الله تعالى أن يقع منهم مشروعا وقع كذلك وما شاء الله تعالى أن يقع لا كذلك وقع لا كذلك ٭

ولاشك أن من توهم أن كون الفعل بمشيئته تعالى ينافى مجىء الرسل عليهم السلام بخلاف ما عليه المباشر من الكفر والضلال فقد كذب التكذيب كله وهو كاذب فى استنتاج المقصود من هذه اللزومية، وظاهر الآية مسوق لهذا المعنى، والثانى على ما فيه من حصول المقصود وهو الاعتراف بالبطلان باطل أيضا إذ لاجبر لأن المشيئة تعلقت بأن يشركوا اختيارا منهم والعلم تعلق كذلك فهو يؤكد دفع القدر لأنه يحققه وإليه الاشارة بقوله تعالى: (قل فلله الحجة البالغة) ثم إنهم كاذبون فى هذا القول لجزمهم حيث لاظن مطلقا فضلا عن العلم وذلك لأن من المعلوم أن العلم بصفات الله سبحانه فرع العلم بذاته جل وعلا والايمان بها كذلك والمحتجون به كفرة مشركون مجسمون، ونقل العلامة الطيبى نحوا من الكلام الأخير عن إمام الحرمين عليه الرحمة فى الارشاد اهـ ٭

وقد أطال العلماء الأعلام الكلام فى هذا المقام وأرى الرجل سقى الله تعالى مرقده صيب الرضوان قد مخض كل ذلك وأتى بزبده بل لم يترك من التحقيق شيئا لمن أتى من بعده فتأمل والله عز وجل هو الموفق ٭

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة مطلقا وتشبثهم بذيل التقليد، وقوله سبحانه:

﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٣ ﴾

استئناف مبين لذلك دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم لأسلافهم وأن متقدميهم أيضا لم يكن لهم سند منظور اليه وتخصيص المترفين بتلك المقالة للايذان بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد ﴿ قَالَ ﴾ حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم أى قال: كل نذير من أولئك المنذرين لأمته ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم ﴾ أى أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿ بِأَهْدَىٰ ﴾ بدين أهدى ﴿ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ من الضلالة التى ليست من الهداية فى شىء، وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الانصاف ٭

وقرأ الأكثرون (قل) على أنه حكاية أمر ماض أوحى إلى كل نذير أى فقيل أو قلنا للنذير قل الخ، واستظهر فى البحر كونه خطابا لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، والظاهر هو ما تقدم لقوله تعالى:

﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ٢٤ ﴾ فانه ظاهر جدا فى أنه حكاية عن الأمم السالفة أى قال كل أمة لنذيرها إنا بما أرسلتم به الخ وقد أجمل عند الحكاية للايجاز كما قرر فى قوله تعالى: (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات) ٭

وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه صلى الله تعالى عليه وسلم على سائر المنذرين وتوجيه كفرهم إلى ما أرسل به الكل من التوحيد لاجماعهم عليهم السلام عليه كما فى نحو قوله تعالى: (كذبت عاد المرسلين) تمحل بعيد، وأيضا يأباه ظاهر قوله سبحانه ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ٢٥ ﴾

فان ظاهره كون الانتقام بعذاب الاستئصال وصاحب البحر يحمله على الانتقام بالقحط والقتل والسبي والجلاء *

وقرأ أبي . وأبو جعفر . وشيبة . وابن مقسم . والزعفراني . وغيرهم (أولو جئناكم) بنون المتكلمين وهي تؤيد ماذهبنا اليه والأمر بالنظر فيما انتهى اليه حال المكذبين تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم وإرشاد إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه إياه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله :

﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦ ﴾ وتمسك بالبرهان، والكلام تمهيد لما أهل مكة فيه من العناد والحسد والاباء عن تدبر الآيات وأنهم لو قلدوا آباءهم لكان الأولى ان يقلدوا أباهم الأفضل الأعلم الذي هم يفتخرون بالانتماء اليه وهو إبراهيم عليه السلام فكأنه بعد تعييرهم على التقليد يعيرهم على أنهم مسيئون في ترك اختياره أيضا *

وبراء مصدر كالطلاق نعت به مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث *

وقرأ الزعفراني . والقورصي عن أبي جعفر . وابن المناذري . عن نافع (براء) بضم الباء وهو اسم مفرد كطوال وكرام بضم الكاف، وقرأ الأعمش (بري) وهو وصف كطويل وكريم وقراءة العامة لغة العالية وهذه لغة نجده

وقرأ الأعمش أيضا (اني) بنون مشددة دون نون الوقاية ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ استثناء متصل ان قلنا ان ماعامة لذوي العلم وغيرهم وانهم كانوا يعبدون الله تعالى والاصنام وليس هذا من الجمع بين الله تعالى وغيره سبحانه الذي يجب اجتنابه لما فيه من ايهام التسوية بينه سبحانه وبين غيره جل وعلا لظهور مايدل على خلاف ذلك في الكلام أو منقطع بناء على أن ماختصة بغير ذوي العلم وانه لايناسب التغايب أصلا وانهم لم يكونوا يعبدونه تعالى أو أنهم كانوا يعبدونه عز وجل الا أن عبادته سبحانه مع الشرك في حكم العدم، وعلى الوجهين محل الموصول النصب ، وأجاز الزمخشري أن يكون في محل جر على أنه بدل من ما المجرور بمن، وفيه بحث لأنه يصير استثناء من الموجب ولم يجوزوا فيه البدل، ووجهه أنه في معنى النفي لأن معنى (انني براء مما تعبدون) لا أعبد ماتعبدون فهو نظير قوله تعالى : (ويأبى الله الا أن يتم نوره) الا أن ذلك في المفرغ وهذا فيما ذكر فيه المستثنى منه وهم لايخصونه بالمفرغ ولا بألفاظ مخصوصة أيضا كأبى وقلما ، نعم ان أباحيان يأبى الا أنه موجب ولا يعتبر النفي معنى ، وأجاز أيضا أن تكون (الا) صفة بمعنى غير على أن (ما) في ما (تبعدون) نكرة موصوفة والتقدير إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى : (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) واعتبار مانكرة موصوفة بناء على أن الا لاتكون صفة الا لنكرة وكذا اعتبارها بمعنى الجمع بناء على اشتراط كون النكرة الموصوفة بها كذلك ، والمسألة خلافية، فمن النحويين من قال إن الا يوصف بها المعرفة والنكرة مطلقا وعليه لايحتاج الى اعتبار كون مانكرة بمعنى آلهة، وفي جعل الصلة (فطرني) تنبيه على أنه لا يستحق العبادة الا الخالق للعابد ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ٢٧ ﴾ يثبتني على الهداية فالسين للتأكيد لا للاستقبال لأنه جاء في الشعراء يهدين بدونها والقصة واحدة، والمضارع في الموضعين للاستمرار ، وقيل : المراد (سيهدين) إلى وراء ما هداني اليه أولا فالسين على ظاهرها والتغاير في الحكاية والمحكي بناء على تكرر القصة ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ الضمير المرفوع المستتر لابراهيم عليه السلام أو لله عز وجل والضمير المنصوب لكلمة التوحيد أعني لا إله

إلا الله كما روى عن قتادة . ومجاهد . والسدى ويشعر بها قوله : (إننى براء مما تعبدون) الخ ، وجوز أن يعود على هذا القول نفسه وهو أيضا كلمة لغة ﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ ﴾ فى ذريته عليه السلام فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو الى توحيده عز وجل *

وقرأ حميد بن قيس (كلمة) بكسر الكاف وسكون اللام وهى لغة فيها، وقرىء «فى عقبه» بسكون القاف تخفيفا و(فى عاقبه) أى من عقبه أى خلفه ومنه تسمية النبى ﷺ بالعاقب لأنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام *

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٨ ﴾ تعليل للجعل أى جعلها باقية فى عقبه كى يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد أو بسبب بقائها فيهم، والضميران للعقب وهو بمعنى الجمع، والأكثرون على أن الكلام بتقدير مضاف أى لعل مشركيهم أو الاسناد من اسناد ماللبعض الى الكل وأولوا لعل بناء على أن الترجى من الله سبحانه وهو لايصح فى حقه تعالى أو منه عليه السلام لكنه من الأنبياء فى حكم المتحقق ويجوز ترك التأويل كما لايخفى بل هو الأظهر اذا كان ذلك من ابراهيم عليه السلام *

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ ﴾ أى أهل مكة المعاصرين للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بالمد فى العمر والنعمة ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ دعوة التوحيد أو القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ٢٩ ﴾ ظاهر الرسالة بماله من المعجزات الباهرات أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج القاطعات ، والمراد بالتمتيع ماهو سبب له من استمتاعهم بما متعوا واشتغالهم بذلك عن شكر المنعم وطاعته والغاية لذلك فكأنه قيل اشتغلوا حتى جاء الحق وهى غاية له فى نفس الأمر لأن مجئ الرسول بما ينبه عن سنة الغفلة ويزجر عن الاشتغال بالملاذ لكنهم عكسوا فجعلوا ماهو سبب للتنصل سببا للتوغل فهو على أسلوب قوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا » الى قوله سبحانه : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) ، و(بل متعت) اضراب عن قوله جل شأنه « لعلهم يرجعون » كأنه قيل بل متعت مشركى مكة وأشغلتهم بالملاهى والملاذ فاشتغلوا فلم يرجعوا أو فلم يحصل ما رجاه من رجوعهم عن الشرك ، وهو فى الحقيقة اضراب عن التمهيد الذى سممت وشروع فى المقصود لكن روعى فيه المناسبة بما قرب من جملة الاضراب أعنى «لعلهم يرجعون» وفى الحواشى الشهابية أنه اضراب عن قوله تعالى: (وجعلها) الخ أى لم يرجعوا فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أعطيتهم نعما أخر غير الكلمة الباقية لأجل أن يشكروا منعمها ويوحدوه فلم يفعلوا بل زاد طغيانهم لاغترارهم أو التقدير ما اكتفيت فى هدايتهم بجعل الكلمة باقية فيهم بل متعتهم وأرسلت رسولا . وقرأ قتادة . والاعمش «بل متعت» بتاء الخطاب ورواها يعقوب عن نافع وهو من كلامه تعالى على سبيل التجريد لا الالتفات وإن قيل به فى مثله أيضا كأنه تعالى اعترض بذلك على نفسه جل شأنه فى قوله سبحانه: «وجعلها» الخ لا لتقبيح فعله سبحانه بل لقصد زيادة توبيخ المشركين كما إذا قال المحسن على من أساء مخاطبا لنفسه: أنت الداعى لاساءته بالاحسان اليه ورعايته فيبرز كلامه فى صورة من يعترض على نفسه ويوبخها حتى كأنه مستحق لذلك وفى ذلك من توبيخ المسيء مافيه ، وقال صاحب اللوامح: هو من كلام ابراهيم عليه السلام ومناجاته ربه عز وجل ، وقال فى البحر: الظاهر أنه من مناجاة الرسول ﷺ على معنى قل يارب متعت ، والأول أولى وهو الموافق للاصل المشهور ، وقرأ الاعمش «متعنا» بنون العظمة *

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ لينبههم عما هم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ٣٠ ﴾

زادوا شرارة فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أى من احدى القريتين مكة والطائف أو من رجالهما فمن ابتدائية أو تبعيضية، وقرىء (رجل) بسكون الجيم ﴿عَظِيمٍ ٣١﴾ بالجاه والمال قال ابن عباس: الذى من مكة الوليد بن المغيرة المخزومى والذى من الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى، وقال مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل، وقال قتادة: الوليد بن المغيرة. وعروة بن مسعود الثقفى، وكان الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش وكان يقول: لو كان مايقول محمد صلى الله عليه وسلم حقا لنزل على أو على أبى مسعود يعنى عروة بن مسعود وكان يكنى بذلك، وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة وذلك أنهم أنكروا أولا أن يكون النبى بشرا ثم لما بكتوا بتكرير الحجج ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك جاؤا بالانكار من وجه آخر فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين وقولهم هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليما بل إنكاراً كأنه قيل: هذا الكذب الذى يدعيه لو كان حقا لكان الحقيق به رجل من القريتين عظيم وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعى عظيم النفس بالتخلى عن الرذائل الدنية والتحلى بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية، وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم بنزول القرآن العظيم على من ارادوا، والرحمة يجوز أن يكون المراد بها ظاهرها وهو ظاهر كلام البحر ونزل تعيينهم لمن ينزل عليه الوحى منزلة التقسيم لها وتدخل النبوة فيها، ويجوز أن يكون المراد بها النبوة وهو الانسب لما قبل وعليه اكثر المفسرين، وفى اضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من تشريفه عليه الصلاة والسلام مافيه، وفى اضافة الرحمة إلى الرب اشارة إلى أنها من صفات الربوبية ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أسباب معيشتهم *

وقرأ عبد الله. وابن عباس. والاعمش. وسفيان (معايشهم) على الجمع ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح ولم نفوض أمرها اليهم علما منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية واطلاق المعيشة يقتضى أن يكون حلالها وحرامها من الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فى الرزق وسائر مبادى المعاش ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوى وغنى وفقير وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليستعمل بعضهم بعضا فى مصالحهم ويستخدموهم فى مهنهم ويسخروهم فى أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم لا لكمال فى الموسع عليه ولا لنقص فى المقتر عليه ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا فاذا كانوا فى تدبير خويصة أمرهم ومايصلحهم من متاع الدنيا الدنية وهو على طرف الثمام بهذه الحالة فما ظنهم بانفسهم فى تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بامرها، والسخرى على ماسمعت نسبة إلى السخرة وهى التذليل والتكليف، وقال الراغب: السخرى هو الذى يقهر أن يتسخر بارادته، وزعم بعضهم أنه هنا من السخر بمعنى الهزء أى ليهزأ الغنى بالفقير واستبعده أبو حيان، وقال السمين: إنه غير مناسب للمقام *

وقرأ عمرو بن ميمون. وابن محيصن. وابن أبى ليلى. وأبو رجاء. والوليد بن مسلم (سخريا) بكسر السين والمراد به ماذكرنا أيضا، وفى قوله تعالى: (نحن قسمنا) الخ مايزهد فى الانكباب على طلب الدنيا ويعين على التوكل

على الله عز وجل والانقطاع اليه جل جلاله ‌ه

فاعتبر نحن قسمنا بينهم تلقه حقا وبالحق نزل

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي النبوة ومايتبعها من سعادة الدارين ، وقيل : الهداية والايمان ، وقال قتادة . والسدى : الجنة ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٣٢ ﴾من حطام الدنيا الدنية فالعظيم من رزق تلك الرحمة دون ذلك الحطام الدنىء الفانى ه

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣ ﴾ استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل ، والمعنى ان حقارة شأنه بحيث لولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر ويطبقوا عليه لأعطيناه على أتم وجه من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة ، فكراهة الاجتماع على الكفر هي المانعة من تمتيع كل كافر والبسط عليه لاان المانع كون متاع الدنيا له قدر عندنا ، والكراهة المذكورة هي وجه الحكمة فى ترك تنعيم كل كافر وبسط الرزق عليه فلامحذور فى تقديرها ، وليس ذلك مبنيا على وجوب رعاية المصلحة وارادة الايمان من الخلق ليكون اعتزالا كما ظن . وكأن وجه كون البسط على الكفار سببا للاجتماع على الكفر مزيد حب الناس للدنيا فاذا رأوا ذلك كفروا لينالوها ، وهذا على معنى أن الله تعالى شأنه علم أنه لو فعل ذلك لدعا الناس إذ ذاك حبهم للدنيا إلى الكفر ، فلا يقال : إن كثيرا من الناس اليوم يتحقق الغنى التام لو كفر ولايكفر ولو أكره عليه بالقتل ، وكون المراد بالامر الواحد الذى يقتضيه كونهم أمة واحدة فانه بمعنى اجتماعهم على أمر واحد الكفر بقرينة الجواب ، و(لبيوتهم) بدل اشتمال من قوله تعالى:(لمن يكفر) واللام فيهما للاختصاص أوهما متعلقان بالفعل لا على البدلية ولام لمن صلة الفعل لتعديه باللام فهو بمنزلة المفعول به ولام (لبيوتهم) للتعليل فهو بمنزلة المفعول له ، ويجوز أن تكون الاولى للملك والثانية للاختصاص كما فى قولك: وهبت الحبل لزيد لدابته واليه ذهب ابن عطية، ولايجوز على تقدير اختلاف اللامين معنى البدلية إذ مقتضى اعادة العامل فى البدل الاتحاد فى المعنى وإلى هذا ذهب ابو حيان ، وقال الخفاجى: لامانع من أن يبدل المجموع من المجموع بدون اعتبار اعادة، والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن، وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن جمع سفينة، والمعارج جمع معرج وهو عطف على (سقفا) أى ولجعلنا لهم مصاعد عليها يعلون السطوح والعلالى وكأن المراد معارج من فضة بناء على أن العطف ظاهر فى التشريك فى القيد وإن تقدم، وقال أبو حيان: لايتعين ذلك ، وقرأ ابو رجاء (سقفا) بضم السين وسكون القاف تخفيفا وفى البحر هى لغة تميم ‌ه

وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو بفتح السين والسكون على الافراد لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وما فوقه وهو المراد بقرينة البيوت، وقرىء بفتح السين والقاف وهى لغة فى سقف وليس ذلك تحريك ساكن لانه لا وجه له ‌ه

وقرىء (سقوفا) وهو جمع سقف كفلوس جمع فلس، وقرأ طلحة (معاريج) جمع معراج ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ ﴾ أى ولجعلنا لبيوتهم، وتكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ولانه ابتداء أية ﴿ أَبْوَابًا وَسُرُرًا ﴾ أى من فضة على ماسمعت، وقرىء (سررا) بفتح السين والراء وهى لغة لبنى تميم وبعض كلب وذلك فى جمع فعيل المضعف إذا كان اسما باتفاق وصفة نحو ثوب جديد وثياب جدد باختلاف بين النحاة ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أى على السرر ﴿ يَتَّكِئُونَ ٣٤ ﴾

كما هو شأن الملوك لا يهمهم شئ ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ قال الحسن: أى نقوشا وتزاويق ، وقال ابن زيد: الزخرف أثاث البيت وتجملاته وهو على هما عطف على (سقفا) ، وقال ابن عباس. وقتادة . والشعبى . والسدى . والحسن أيضا فى رواية الزخرف الذهب، وأكثر اللغويين ذكروا له معنيين هذا والزينة فقيل الظاهر أنه حقيقة فيهما ، وقيل: إنه حقيقة فى الزينة ولكون كمالها بالذهب استعمل فيه أيضا، ويشير اليه كلام الراغب قال. الزخرف الزينة المزوقة ومنه قيل للذهب زخرف، وفى البحر جاء فى الحديث اياكم والحمرة فانها من أحب الزينة إلى الشيطان ، وقال ابن عطية: الحسن أحمر والشهوات تتبعه، ولبعض شعراء المغرب :

وصبغت درعك من دماء كماتهم   لما رأيت الحسن يلبس أحمرا

وهو على هذا عطف على محل (من فضة) كأن الاصل سقفا من فضة وزخرف يعنى بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفا على المحل، وجوز عطفه على (سقفا) أيضا ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى وما كل ماذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة الاشئ يتمتع به فى الحياة الدنيا وفى معناه ماقرىء (وماكل ذلك الامتاع الدنيا) وقرأ الجمهور (لما) بفتح اللام والتخفيف على أن (إن) هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بين المخففة وغيرها وما زائدة أو موصولة بتقدير لما هو متاع كما فى قوله تعالى: «تماما على الذى أحسن» فى قراءة من رفع النون ، وقرأ رجاء وفى التحرير أبو حيوة (لما) بكسر اللام والتخفيف على أن (إن) هى المخففة واللام حرف جر وما موصولة فى محل جر بها والجار والمجرور فى موضع الخبر لكل وصدر الصلة محذوف كما سمعت آنفا ٭ وحق التركيب فى مثله الاتيان باللام الفارقة فيقال: للمامتاع لكنها حذفت لظهور ارادة الاثبات كما فى قوله :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك   وإن مالك كانت كرام المعادن

بل لا يجوز فى البيت ادخال اللام كما لا يخفى على النحوى ﴿ وَالْآخِرَةُ ﴾ أى بما فيها من فنون النعيم التى لا يحيط بها نطاق البيان ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥ ﴾ خاصة لهم، والمراد بهم من اتقى الشرك ، وقال غير واحد: من اتقى ذلك والمعاصى، وفى الآية من الدلالة على التزهيد فى الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى مافيها ، وقد أخرج الترمذى وصححه. وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ماسقى منها كافرا شربة ماء» وعن على كرم الله تعالى وجهه الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب فى يد مجذوم، هذا واستدل بعضهم بقوله تعالى: (لبيوتهم سقفا) على أن السقف لرب البيت الاسفل لا لصاحب العلو لأنه منسوب إلى البيت ﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ أى يتعام ويعرض ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ وهو القرآن، واضافته إلى الرحمن للايذان بنزوله رحمة للعالمين، وجوز أن يكون مصدرا أضيف إلى المفعول أى من يعش عن أن يذكر الرحمن، وأن يكون مصدرا أضيف إلى الفاعل أى عن تذكير الرحمن عباده سبحانه ، وقرأ يحيى بن سلام البصرى (يعش) بفتح الشين كيرض أى يعم يقال: عشى كرضى إذا حصلت الآفة فى بصره وعشا كغزا إذا نظر نظر العشى لعارض قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

أى تنظر اليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ولولم يكن كذلك لم يكن لكلمة

الغاية موقع وأظهر منه فى المقصود قول حاتم :

أعشو إذا ماجارتى برزت حتى يوارى جارتى الخدر

لأنه قيد بالوقت وأتى بالغاية وماهو خلقى لايزول، وقال بعضهم: لم أر احدا يجيز عشوت عنه إذا اعرضت وإنما يقال تعاشيت وتعاميت عن الشىء إذا تغافلت عنه كأنك لم تره ويقال: عشوت إلى النار إذا استدللت عليها ببصر ضعيف، وهو مما لايلتفت اليه ومثله عشى وعشا عرج بكسر الراء لمن به الآفة وعرج بفتحها لمن مشى مشية العرجان من غير عرج على مافى الكشاف، وفيه خلاف لأهل اللغة فى القاموس يقال: عرج أى بالفتح إذا أصابه شىء فى رجله وليس بخلقة فاذا كان خلقة فعرج كفرح أو يثلث فى غير الخلقة ، وقرأ زيد بن على (يعشو) باثبات الواو وخرج ذلك الزمخشرى على أن من موصولة لاشرطية جازمة ، وجوز أن تكون شرطية والمدة إما للاشباع أو على لغة من يجزم المعتل الآخر بحذف الحركة على ماحكاه الاخفش ، وجوز كون الفعل مجزوما بحذف النون والواو ضمير الجمع ، وقد روعى فيه معنى من، وتخريج الزمخشرى مبنى على الفصيح المطرد المتبادر *

﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أى نتح له شيطانا ليستولى عليه استيلاء القيض على البيض وهو القشر الاعلى ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ٣٦ ﴾ دائما لايفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وهذا عقاب على الكفر بالختم وعدم الفلاح كما يقال: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بمزيد اكتساب السيآت ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه. والسلمى. والاعمش ويعقوب. وأبو عمرو بخلاف عنه. وحماد عن عاصم. وعصمة عن الاعمش وعن عاصم. والعليمى عن أبى بكر (يقيض) بالياء على اسناده إلى ضمير (الرحمن) ، وقرأ ابن عباس يقيض بالياء والبناء للمفعول (شيطان) بالرفع والفعل فى جميع القراءات مجزوم ولم نسمع أنه قرىء بالرفع ، وفى الكشاف حق من قرأ (من يعشو) بالواو أن يرفعه أى بناء على تخريجه ذلك على أن من موصولة، وجوز على ذلك أيضا أن يكون (يقيض) مرفوعا لكنه سكن تخفيفا *

وفى البحر يجوز أن تكون (من) موصولة وجزم (نقيض) تشبيها للموصول باسم الشرط وإذا كان ذلك مسموعا فى الذى وهو لم يكن اسم شرط قط فالاولى أن يكون فيما استعمل موصولا وشرطا ، قال الشاعر:

لا تحفرن بئرا تريد اخاً بها فانك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذى يبغى على الناس ظالما تصبه على رغم عواقب ماصنع

انشدهما ابن الاعرابى وهو مذهب للكوفيين، وله وجه من القياس وهو أنه كما شبه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء فى خبره فكذلك يشبه به فينجزم الخبر إلا أن دخول الفاء منقاس إذا كان الخبر مسببا عن الصلة بشروطه المذكورة فى النحو وهذا لا يقيسه البصريون ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أى الشياطين الذين قيض وقدر كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ أى ليصدون قرناءهم وهم الكفار المعبر عنهم بمن يعش ، وجمع ضمير الشيطان لأن المراد به الجنس ، وجمع ضمير من رعاية للمعنى كما أفرد أولا رعاية للفظ . وفى الانتصاف أن فى هذه الآية نكتتين بديعتين الأولى الدلالة على أن النكرة الواقعة فى سياق الشرط تفيد العموم وهى مسئلة أضطرب فيها الاصوليون وإمام الحرمين من القائلين بافادتها العموم حتى استدرك على الأئمة اطلاقهم القول بأن النكرة فى سياق الاثبات تخص ، وقال إن الشرط يعم والنكرة فى سياقه تعم وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن

على الابيارى شارح كتابه ردا عنيفا، وفى هذه الآية للامام ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرا فى سياق شرط ونحن نعلم أنه انما اريد عموم الشياطين لا واحد لوجهين. احدهما أنه قد ثبت أن لكل احد شيطانا فكيف بالعاشى عن ذكر الله تعالى والآخر من الآية وهو أنه اعيد عليه الضمير مجموعا فى قوله تعالى: (وانهم) فانه عائد الى الشيطان قولا واحدا ولولا افادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا اشكال، فهذه نكتة تجد عند سماعها لمخالفى هذا الرأى سكتة. النكتة الثانية أن فيها ردا على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك واحتج لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة وقد نقض ذلك الكندى وغيره بآيات، واستخرج جدى من هذه الآية نقض ذلك أيضا لأنه أعيد الضمير على اللفظ فى (يعش. وله) وعلى المعنى فى (ليصدونهم) ثم على اللفظ فى (حتى اذا جاءنا) وقد قدمت أن الذى منع قد يكون اقتصر بمنعه على مجىء ذلك فى جملة واحدة وأما اذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك انتهى *

وفى كون ضمير (انهم) عائدا على الشيطان قولا واحدا نظر، فقد قال أبو حيان: الظاهر أن ضمير النصب فى (انهم ليصدونهم) عائد على من على المعنى وهو أولى من عود ضمير (إنهم) على الشيطان كما ذهب اليه ابن عطية لتناسق الضمائر فى (انهم) وما بعده فلا تغفل ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ المستبين الذى يدعو اليه ذكر الرحمن ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أى العاشون ﴿أَنَّهُمْ﴾ أى الشياطين ﴿مُهْتَدُونَ ٣٧﴾ أى الى ذلك السبيل الحق والا لما اتبعوهم أو ويحسب العاشون ان أنفسهم مهتدون فان اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما

والظاهر أن أبا حيان يختار هذا الوجه للتناسق أيضا ، والجملة حال من مفعول (يصدون) بتقدير المبتدا أو من فاعله أو منهما لاشتمالها على ضميريهما أى وانهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون أنهم مهتدون اليه *

وصيغة المضارع فى الافعال الاربعة للدلالة على الاستمرار التجددى لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ فان (حتى) وان كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضى حتما أن تكون غاية لامر ممتد وأفرد الضمير فى جاء ومابعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد من العاشين لقرينه لتهويل الامر وتفظيع الحال والمعنى يستمر أمر العاشين على ما ذكر حتى اذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ مخاطبا له: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أى فى الدنيا ، وقيل : فى الآخرة ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أى بعد كل منهما من الآخر، والمراد بهما المشرق والمغرب كما اختاره الزجاج والفراء وغيرهما لكن غلب المشرق على المغرب وثنيا كالموصلين للموصل والجزيرة وأضيف البعد اليهما، والاصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق وإنما اختصر هذا المبسوط لعدم الالباس إذ لا خفاء أنه لا يراد بعدهما من شىء واحد لأن البعد من احدهما قرب من الآخر ولأنهما متقابلان فبعد أحدهما من الآخر مثل فى غاية البعد لا بعدهما عن شىء آخر، واشعار السياق بالمبالغة لا ينكر فلا لبس من هذا الوجه أيضا ، وقال ابن السائب: لا تغايب ، والمراد مشرق الشمس فى أقصر يوم من السنة ومشرقها فى أطول يوم منها ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ ٣٨﴾ أى أنت ، وقيل : أى هو على أنه من كلامه تعالى وهو كما ترى *

وقرأ أبو جعفر. وشيبة. وأبو بكر. والحرميان. وقتادة. والزهرى. والجحدرى (جاءانا) على التثنية أى العاشى والقرين

وقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ ﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخا وتقريعا، وفاعل (ينفعكم) ضمير مستتر يعود على ما يفهم مما قبل أي لن ينفعكم هو أى تمنيكم لمباعدتهم أو الندم أو القول المذكور ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ بدل من (اليوم) أى اذ تبين انكم ظلمتم فى الدنيا قاله غير واحد، وفسر ذلك بالتبين قيل لئلا يشكل جعله وهو ماض بدلا من (اليوم) وهو مستقبل لأن تبين كونهم ظالمين عند أنفسهم انما يكون يوم القيامة فاليوم وزمان التبين متحدان وهذا كقوله * اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * وأورد عليه أن السؤال عائد لأن (اذ) ظرف للمضى من الزمان ولا يخرج عن ذلك باعتبار التبين وتفصى بعضهم عن الاشكال بأن اذ قد تخرج من المضى الى الاستقبال على ما ذهب اليه جماعة منهم ابن مالك محتجا بقوله تعالى: (فسوف يعلمون اذ الاغلال) والى الحال كما ذهب اليه بعضهم محتجا بقوله سبحانه: (ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه) فلتكن هنا للاستقبال، وأهل العربية يضعفون دعوى خروجها من المضى *

وقال الجلبي: لعل الاظهر حملها على التعليل فيتعلق بالنفى، فقد قال سيبويه: إنها بمعنى التعليل حرف بمنزلة لام العلة، نعم أنكر الجمهور هذا القسم لكن اثبات سيبويه اياه يكفى حجة * فان القول ما قالت حذام * وتعقب بأنه لا يكفى فى تخريج كلام الله سبحانه اثبات سيبويه وحده مع اطباق جميع أئمة العربية على خلافه، وأيضا تعليل النفى بعد يبعده وقال أبو حيان: لا يجوز البدل على بقاء اذ على موضوعها من كونها ظرفا لما مضى من الزمان فان جعلت لمطلق الوقت جاز، ولا يخفى أن ذلك مجاز فهل تكفى البدلية قرينة له فان كفت فذاك، وقال ابن جنى: راجعت أبا على فى هذه المسئلة يعنى الابدال المذكور مرارا وآخر ما تحصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء فى حكم الله سبحانه وعلمه جل شأنه اذ لا يجرى عليه عز وجل زمان فكأن (اذ) مستقبل أو (اليوم) ماض فصح ذلك، ورد بأن المعتبر حال الحكاية والكلام فيها وارد على ما تعارفه العرب ولولاه لسد باب النكات ولغت الاعتبارات فى العبارات ومثله غنى عن البيان، وقال أبو البقاء: التقدير بعد اذ ظلمتم فحذف المضاف للعلم به، وقال الحوفى: (اذ) متعلقة بما دل عليه المعنى كأنه قيل ولن ينفعكم اليوم اجتماعكم اذ ظلمتم مثلا *

ومن الناس من استشكل الآية من حيث أن فيها إعمال (ينفعكم) الدال على الاستقبال لاقترانه بلن فى اليوم وهو الزمان الحاضر واذ وهو للزمان الماضى، وأجيب بانه يدفع الثانى بما قدروه من التبين لأن تبين الحال يكون فى الاستقبال والاول بأن (اليوم) تعريفه للعهد وهو يوم القيامة لا للحضور كتعريف الآن وان كان نوعا منه *

وقيل: يدفع بان الاستقبال بالنسبة الى وقت الخطاب وهو بعض أوقات اليوم وهو كما ترى فتأمل ولا تغفل *

وقوله تعالى: ﴿ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٩ ﴾ تعليل لنفى النفع أى لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا *

وجوز أن يكون الفعل مسندا اليه أى لن ينفعكم كونكم مشتركين فى العذاب كما ينفع الواقعين فى الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم فى تحمل اعبائه وتقسمهم لشدته وعنائه وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب مالا تبلغه طاقته أو لن ينفعكم ذلك من حيث التأسى فان المكروب يتأسى ويتروح بوجدان المشارك وهو الذى عنته الخنساء بقولها:

يذكرنى طلوع الشمس صخرا ... وأذكره بكل مغيب شمس

ولولا كثرة الباكين حولى على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخي ولكن اعزى النفس عنه بالتأسى

فهؤلاء يؤسيهم اشتراكهم ولا يروحهم لعظم ماهم فيه أولن ينفعكم ذلك من حيث التشفى أى لن يحصل لكم التشفى بكون قرنائكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم: (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) وقولكم: (فآتهم عذابا ضعفا من النار) لتتشفوا بذلك، واعترض على الوجه الأول من هذه الأوجه الثلاثة بأن الانتفاع بالتعاون فى تحمل أعباء العذاب ليس مايخطر ببالهم حتى يردعليهم بنفيه، وأجيب بأنه غير بعيد أن يخطر ذلك ببالهم لمكان المقارنة والصحبة والغريق يتشبث بالحشيش والظمآن يحسب السراب شرابا *

وقرأ ابن عامر (إنكم) بكسر الهمزة وهو تقوى ماذكر أولا من إضمار الفاعل وتقدير اللام فى أنكم معنى ولفظا لأنه لايمكن أن يكون فاعلا فيتعين الاضمار، ولأن الجملة عليها تكون استئنافا تعليليا فيناسب تقدير اللام لتتوافق القراءتان ، وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا فى الكفر واعتادوه واستغرقوا فى الضلال بحيث صار مابهم من العشى عمى مقرونا بالصمم ﴿ وَمَنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ • ٤٠ ﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين أعنى العمى والضلال بحسب المفهوم وإن اتحدا مآلا، ومدار الانكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط الذى لا يخفى لاتوهم القصور منه عليه الصلاة والسلام ففيه رمز إلى أنه لايقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والالجاء وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غيا وتعاميا عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاما عما يسمعونه من بينات القرآن فنزلت (أفأنت) الخ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ فان قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين ﴿ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُّنْتَقِمُونَ ٤١ ﴾ لامحالة فى الدنيا والآخرة واقتصر بعضهم على عذاب الآخرة لقوله تعالى فى آية أخرى: (أو نتوفينك فالينا يرجعون) والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وما ذكرنا أتم فائدة وأوفق باطلاق الانتقام ، وأما تلك الآية فلدس فيها ذكره، ومامزيدة للتأكيد وهى بمنزلة لام القسم فى استجلاب النون المؤكدة *

﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ ﴾ أى أو أردنا أن نريك العذاب الذى وعدناهم ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ٤٢ ﴾ بحيث لامناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا واعتبار الارادة لأنها أنسب بذكر الاقتدار بعد، وفى التعبير بالوعد وهو سبحانه لا يخلف الميعاد إشارة إلى أنه هو الواقع ، وهكذا كان إذ لم يفلت أحد من صناديدهم فى بدر وغيرها إلا من تحصن بالايمان، وقرىء (نرينك) بالنون الخفيفة ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤٣ ﴾ تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم وأمر له عليه الصلاة والسلام أو لأمته بالدوام على التمسك بالآيات والعمل بها ، والفاء فى جواب شرط مقدر أى إذا كان أحد هذين الأمرين واقعا لامحالة فاستمسك بالذي أوحيناه اليك، وقوله تعالى: (إنك) الخ تعليل للاستمساك أوللامر به *

وقرأ بعض قراء الشام (أوحى) باسكان اللام، وقرأ الضحاك (أوحى) مبنيا للفاعل ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى ما أوحى اليك والمراد به القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف عظيم ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ هم قريش على ماروى عن ابن عباس. ومجاهد. وقتادة. والسدى. وابن زيد ❊

وأخرج ابن عدى. وابن مردويه عن على كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس رضى الله تعالى عنهما قالا: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ويعدهم الظهور فاذا قالوا: لمن الملك بعدك أمسك فلم يجبهم بشىء لأنه عليه الصلاة والسلام لم يؤمر فى ذلك بشىء حتى نزلت (وإنه لذكر لك ولقومك) فكان صلى الله تعالى عليه وسلم بعد إذا سئل قال لقريش: فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار على ذلك ❊

وأخرج الطبرانى. وابن مردويه. عن عدى بن حاتم قال: «كنت قاعدا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: ألا إن الله تعالى علم ما فى قلبى من حبى لقومى فبشرنى فيهم فقال سبحانه: (وإنه لذكر لك ولقومك) الآية فجعل الذكر والشرف لقومى فى كتابه» الحديث، وفيه «فالحمد لله الذى جعل الصديق من قومى والشهيد من قومى إن الله تعالى قلب العباد ظهرا وبطنا فكان خير العرب قريش وهى الشجرة المباركة إلى أن قال عدى: ما رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر عنده قريش بخير قط إلا سره حتى يتبين ذلك السرور فى وجهه للناس كلهم وكان عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يتلو هذه الآية (وإنه لذكر لك ولقومك) الخ، وقيل هم العرب مطلقا لما أن القرآن نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص منهم حتى يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم ثم لبنى هاشم أكثر مما يكون لسائر قريش، وفى رواية عن قتادة هم من اتبعه صلى الله تعالى عليه وسلم من أمته ❊

وقال الحسن: هم الأمة والمعنى وإنه لتذكرة وموعظة لك ولأمتك، والأرجح عندى القول الأول

﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ٤٤﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه، وقال الحسن. والكلبى. والزجاج: تسئلون عن شكر ما جعله الله تعالى لكم من الشرف، قيل إن هذه الآية تدل على ان الانسان يرغب فى الثناء الحسن والذكر الجميل إذ لو لم يكن ذلك مرغوبا فيه ما امتن الله تعالى به على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والذكر الجميل قائم مقام الحياة ولذا قيل ذكر الفتى عمره الثانى، وقال ابن دريد:

وإنما المرء حديث بعده ❊ فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال آخر إنما الدنيا محاسنها ❊ طيب ما يبقى من الخبر

ويحكى أن الطاغية هلاكو سأل أصحابه من الملك؟ فقالوا: له أنت الذى دوخت البلاد وملكت الأرض وطاعتك الملوك وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن فقال لا الملك هذا الذى له أزيد من ستمائة سنة قد مات وهو يذكر على المآذن فى كل يوم وليلة خمس مرات يريد محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ❊

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ٤٥﴾ أى هل حكمنا بعبادة غير الله سبحانه وهل جاءت فى ملة من ملل المرسلين عليهم السلام والمراد الاستشهاد باجماع المرسلين

على التوحيد والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى يكذب ويعادى له، والكلام بتقدير مضاف أى واسأل أمم من أرسلنا أو على جعل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين اليهم *

قال الفراء: هم إنما يخبرون عن كتب الرسل فاذا سألهم عليه الصلاة والسلام فكأنه سأل المرسلين عليهم السلام، وعلى الوجهين المسئول الأمم، وروى ذلك عن الحسن. ومجاهد. وقتادة. والسدى. وعطاء وهو رواية عن ابن عباس أيضا *

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال فى بعض القراءات وأسأل من أرسلنا اليهم رسلنا قبلك *

وأخرج هو وسعيد بن منصور عن مجاهد قال: كان عبد الله يقرأ واسأل الذين ارسلنا اليهم قبلك من رسلنا، وعن ابن مسعود أنه قرأ وأسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبل مؤمنى أهل الكتاب، وجعل بعضهم السؤال مجازا عن النظر والفحص عن مللهم فى سؤال الديار والاطلال ونحوها من قولهم: سل الارض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك *

وروى عن ابن عباس أيضا. وابن جبير. والزهرى. وابن زيد أن الكلام على ظاهره وأنه عليه الصلاة والسلام قيل له ذلك ليلة الاسراء حين جمع له الانبياء فى البيت المقدس فامهم ولم يسألهم عليه الصلاة والسلام اذ لم يكن فى شك. وفى بعض الآثار أن ميكال قال لجبريل عليهما السلام: هل سأل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك؟ فقال: هو أعظم يقينا وأوثق ايمانا من أن يسال. وتعقب هذا القول بان المراد بهذا السؤال الزام المشركين وهم منكرون الاسراء، وللبحث فيه مجال، والخطاب على جميع ما سمعت لنبينا عليه الصلاة والسلام *

وفى البحر الذى يظهر أنه خطاب للسامع الذى يريد أن يفحص عن الديانات قيل له اسال أيها الناظر أتباع الرسل أجاءت رسلهم بعبادة غير الله عز وجل فانهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ولا يمكن أن يأتوا به ولعمرى أنه خلاف الظاهر جداً، ومما يقضى منه العجب ما قيل: إن المعنى وأسالنى أو وأسالنا عمن أرسلنا وعلق اسال فارتفع من وهو اسم استفهام على الابتداء وأرسلنا خبره والجملة فى موضع نصب باسال بعد اسقاط الخافض كأن سؤاله من أرسلت يارب قبلى من رسلك أجعلت فى رسالته آلهة تعبد ثم ساق السؤال فحكى المعنى فرد الخطاب الى النبي ﷺ فى قوله تعالى (من قبلك) انتهى، واسأل من قرأ أبا جاد أيرضى بهذا الكلام ويستحسن تفسير كلام الله تعالى المجيد بذلك ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ ملتبسا بها ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ﴾ أشراف قومه وخصوا بالذكر لأن غيرهم تبع ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٦ ﴾ اليكم. وأريد باقتصاص ذلك تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وابطال قولهم: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) لأن موسى عليه السلام مع عدم زخارف الدنيا لديه كان له مع فرعون وهو ملك جبار ما كان وقد أيده الله سبحانه بوحيه وما أنزل عليه، والاستشهاد بدعوته عليه السلام الى التوحيد اثر ما أشير اليه من اجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه ويعلم من ذلك وجه مناسبة الآيات لما قبلها، وقال أبو حيان: مناسبتها من وجهين. الاول أنه ذكر فيما قبل قول المشركين: (لولا نزل) الخ وفيه زعم أن العظم بالجاه والمال وأشير فى هذه الآيات إلى أن مثل ذلك سبق اليه فرعون فى قوله: «أليس لى ملك مصر» الخ فهو قدوتهم فى ذلك وقد انتقم منه فكذلك ينتقم منهم، الثانى أنه سبحانه لما قال: (واسأل) الخ ذكر جل وعلا قصة موسى وعيسى عليهما السلام وهما أكثر أتباعا ممن سبق

من الأنبياء وكل جاء بالتوحيد فلم يكن فيما جاء به اباحة اتخاذ آلهة من دون الله تعالى كما اتخذت قريش فناسب ذكر قصتهما الآية التى قبلها

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ٤٧﴾ أى فاجأهم الضحك منها أى استهزؤا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها، وفى الكشاف جاز أن تجاب لما باذا المفاجاة لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو عامل النصب فى محلها كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم، فالجواب عنده ذلك الفعل وهو العامل فى لما، وقدر ماضيا لأنه المعروف فى جوابها، وإذا مفعول به لا ظرف، وقال أبو حيان: لا نعلم نحويا ذهب إلى ماذهب اليه هذا الرجل من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ بل المذاهب فيها ثلاثة. الاول انها حرف فلا تحتاج الى عامل. الثانى أنها ظرف مكان فان صرح بعد الاسم بعدها بخبر له كان ذلك الخبر عاملا فيها نحو خرجت فاذا زيد قائم فقائم هو الناصب لها والتقدير خرجت ففى المكان الذى خرجت فيه زيد قائم. الثالث أنها ظرف زمان والعامل فيها الخبر أيضا كأنه قيل: ففى الزمان الذى خرجت فيه زيد قائم: وإذا لم يذكر بعد الاسم خبر أو ذكر اسم منصوب على الحال كانت اذا خبر اللمبتدا: فان كان جثة وقلنا: إذا ظرف مكان كان الأمر واضحا وإن قلنا ظرف زمان كان الكلام على حذف مضاف أى ففى الزمان حضور زيد ثم ان المفاجأة التى ادعاها لا يدل المعنى على أنها تكون من الكلام السابق بل يدل على أنها تكون من الكلام التى هى فيه تقول خرجت فاذا الاسد فالمعنى ففاجأنى الاسد دون ففاجأت الاسد انتهى، وقال الخفاجى ماقيل إن نصبها بفعل المفاجأة المقدر هكذا لم يقله أحد من النحاة لا يلتفت اليه وتفصيله فى شروح المغنى ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من الآيات:

﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أى من آية مثلها فى كونها آية دالة على النبوة واستشكل بأنه يلزم كون كل واحدة من الآيات فاضلة ومفضولة معا وهو يؤدى إلى التناقض وتفضيل الشىء على نفسه لعموم آية فى النفى، وأجيب بأن الغرض من هذا الكلام انهن موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه على معنى أن كل واحدة لكمالها فى نفسها إذا نظر اليها قيل هى أكبر من البواقى لاستقلالها بافادة المقصود على التمام كما قال الحماسى:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وإذا لوحظ الكل توقف عن التفضيل بينهن، ولقد فاضلت فاطمة بنت خرشب الانمارية بين أولادها الكملة ربيعة الحفاظ وعمارة الوهاب وأنس الفوارس ثم قالت: أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلتهم أن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، وقال بعض الاجلة: المراد بأفعل الزيادة من وجه أى ما نريهم من آية الا هى مختصة بنوع من الاعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار، ولا ضير فى كون الشىء الواحد فاضلا ومفضولا باعتبارين، وقد أطال الكلام فى ذلك جلال الدين الدوانى فى حواشيه على الشرح الجديد للتجريد فليراجع ذلك من أراده، وفى البحر قيل: كانت آياته عليه السلام من كبار الآيات وكانت كل واحدة أكبر من التى قبلها فعلى هذا يكون ثم صفة محذوفة أى من أختها السابقة عليها ولا يبقى فى الكلام تعارض، ولا يكون ذلك الحكم فى الآية الاولى لأنه لم يسبقها شىء فتكون اكبر منه، وذكر بعضهم فى الاكبرية أن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما منضما إلى علم الأولى فيزداد الرجوع انتهى، والأولى ماتقدم لشيوع ارادة ذلك المعنى من مثل هذا التركيب ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالسنين والجراد والقمل وغيرها:

﴿لعلهم يرجعون ٤٨﴾ لكي يرجعوا ويتوبوا عماهم عليه من الكفر ﴿وقالوا يا أيه الساحر﴾ قال الجمهور: وهو خطاب تعظيم فقد كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر، وحكاه في مجمع البيان عن الكلبي. والجبائي، وقيل: المعنى يا غالب السحرة من ساحره فسحره كخاصمه فخصمه فهو خطاب تعظيم أيضا، وقيل: الساحر على المعنى المعروف فيه وقد تعودوا دعاءه عليه السلام بذلك قبل، ومقتضى مقام طلب الدعاء منه عليه السلام أن لا يدعوه به إلا أنهم لفرط حسرتهم سبق لسانهم إلى ما تعودوا به، وقيل: هو خطاب استهزاء وانتقاص دعاهم اليه شدة شكيمتهم ومزيد حماقتهم وروى ذلك عن الحسن *

ودفع الزمخشري المنافاة بين هذا الخطاب وقولهم الآتي: «أننا لمهتدون» بأن ذلك القول وعد منوى إخلافه وعهد معزوم على نكثه معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب وفيه أن الوعد وإن كان منوى الاخلاف لكن إظهار الاخلاف حال التضرع اليه عليه السلام ينافيه لأنهم في استلانة قلبه عليه السلام *

وقيل الأظهر أنهم قالوا ياموسى كما في الأعراف لكن حكى الله تعالى كلامهم هنا على حسب حالهم ووفق ما في قلوبهم تقبيحا لذلك وتسلية لحبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم ويكون ذلك على عكس قوله سبحانه. (إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وجعل على هذا قولهم الآتي مجمل ما فصل هنالك من الايمان وإرسال بني إسرائيل فلا يحتاج إلى التزام كون القولين في مجلسين للجمع بين ماهنا وماهناك، ولا يخلو عن بعد والالتزام المذكور لا أرى ضررا فيه. وقرئ يا أيه بضم الهاء ﴿ادع لنا ربك﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿بما عهد عندك﴾ أي بعهده عندك، والمراد به النبوة وسميت عهدا إما لأن الله تعالى عاهد نبيه عليه السلام أن يكرمه بها وعاهد النبي ربه سبحانه على أن يستقل بأعبائها أو لما فيها من الكلفة بالقيام بأعبائها ومن الاختصاص كما بين المتوافقين أو لأن لها حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد أو من العهد الذي يكتب للولاة كأن النبوة منشور من الله تعالى بتولية من أكرمه بها والباء إما صلة -لادع- أو متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير فيه أي متوسلا إليه تعالى بما عهد أو بمحذوف دل عليه التماسهم مثل اسعفنا إلى ما نطلب، وإما أن تكون للقسم والجواب ما يأتي، وهي على هذا للقسم حقيقة وعلى ما قبله للقسم الاستعطافي وعلى الوجه الأول للسببية، وإدخال ذلك في الاستعطاف خروج عن الاصطلاح، وجوز أن يراد بالعهد عهد استجابة الدعوة كأنه قيل: بما عاهدك الله تعالى مكرما لك من استجابة دعوتك أو عهد كشف العذاب عمن اهتدى، وأمر الباء في الوجهين على مامر؛ وأن يراد بالعهد الايمان والطاعة أي بما عهد عندك فوفيت به على أنه من عهد اليه أن يفعل كذا أي أخذ منه العهد على فعله ومنه العهد الذي يكتب للولاة، و(عندك) يغني عن ذكر الصلة مع إفادة أنه محفوظ مخزون عند المخاطب، والأولى على هذا أن تكون ما موصولة، وهذا الوجه فيه كما في الكشف نبو لفظا ومعنى وسياقا على ما لا يخفى على الفطن *

﴿إننا لمهتدون ٤٩﴾ لمؤمنون ثابتون على الايمان وهو اما معلق بشرط كشف العذاب كما في قولهم المحكي في سورة الاعراف لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك أو غير معلق ويجب حينئذ أن يكون هذا منهم في مجلس آخر، وإن قلنا: لم يصدر منهم طلب الدعاء إلا مرة أو أكثر منها لكن على طرز واحد قيل هنا: أرادوا من الاهتداء الايمان وإرسال بني إسرائيل كما سمعت آنفا ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب﴾ أي بدعوته في الكلام

حذف أى فدعانا بكشف العذاب فكشفناه فلما كشفناه عنهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ٥٠﴾ فاجأهم نكث عهدهم بالاهتداء أو فاجؤا وقت نكث عهدهم. وقرأ أبو حيوة (ينكثون) بكسر الكاف *

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أى رفع صوته بنفسه فيما بين قومه بذلك القول، ولعله جمع عظماء القبط فى محله الذى هو فيه بعد أن كشف العذاب فنادى فيما بينهم بذلك لتنتشر مقالته فى جميع القبط ويعظم فى نفوسهم مخافة أن يؤمنوا بموسى عليه السلام ويتركوه *

ويجوز أن يكون إسناد النداء اليه مجازا والمراد أمر بالنداء بذلك فى الأسواق والأزقة ومجامع الناس وهذا كما يقال بنى الأمير المدينة ، (ونادى) قيل معطوف على فاجأ المقدر ونزل منزلة اللازم وعدى بفى كقوله: يجرح فى عراقيبها نصلى * للدلالة على تمكين النداء فيهم، وعنى بملك مصر ضبطها والتصرف فيها بالحكم ولم يرد مصر نفسها بل هى وما يتبعها وذلك من اسكندرية إلى أسوان كما فى البحر، والأنهار الخلجان التى تخرج من النيل المبارك كنهر الملك . ونهر دمياط . ونهر تنيس ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك لكنه اندرس فجدده أحمد ابن طولون ملك مصر فى الاسلام وأراد بقوله (من تحتى) من تحت أمرى *

وقال غير واحد كانت أنهار تخرج من النيل وتجرى من تحت قصره وهو مشرف عليها ، وقيل : كان له سرير عظيم مرتفع تجرى من تحته أنهار أخرجها من النيل ، وقال قتادة: كانت له جنان وبساتين بين يديه تجرى فيها الانهار ، وفسر الضحاك الانهار بالقواد والرؤساء الجبابرة، ومعنى كونهم يجرون من تحته أنهم يسيرون تحت لوائه ويأتمرون بأمره ، وقد أبعد جدا وكذا من فسرها بالاموال ومن فسرها بالخيل وقال: كما يسمى الفرس بحرا يسمى نهرا بل التفاسير الثلاثة تقرب من تفاسير الباطنية فلا ينبغى أن يلتفت اليها، والواو فى (وهذه) الخ إما عاطفة لهذه الانهار على الملك فجملة تجرى حال منها أو للحال فهذه مبتدأ و «الانهار» صفة أو عطف بيان وجملة (تجرى) خبر للمبتدا وجملة هذه الخ حال من ضمير التكلم ، وجوز أن تكون للعطف «وهذه تجرى» مبتدأ وخبر والجملة عطف على اسم ليس وخبرها ، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٥١﴾ على تقدير المفعول أى أفلا تبصرون ذلك أى ماذكر، ويجوز أن ينزل منزلة اللازم والمعنى أليس لكم بصر أو بصيرة، وقرأ عيسى «تبصرون» بكسر النون فتكون الياء الواقعة مفعولا محذوفة ، وقرأ فهد بن الصقر «يبصرون» بياء الغيبة ذكره فى الكامل للهزلى والساجى عن يعقوب ذكره ابن خالويه، ولا يخفى ما بين افتخار اللعين بملك مصر ودعواه الربوبية من البعد البعيد، وعن الرشيد أنه لما قرأ هذه الآية قال: لأولينها ـ يعنى مصر ـ أخس عبيدى فولاها الخصيب وكان على وضوئه ، وعن عبدالله ابن طاهر أنه وليها فخرج اليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: هى القرية التى افتخر بها فرعون حتى قال: (أليس لى ملك مصر) والله لهى أقل عندى من أن أدخلها فثنى عنانه ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه البسطة والسعة فى الملك والمال ﴿مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أى ضعيف حقير أو مبتذل ذليل فهو من المهانة وهى القلة أو الذلة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ أى الكلام، والجمهور أنه عليه السلام كان بلسانه بعض شىء من أثر الجمرة لكن اللعين بالغ *

ومن ذهب إلى أن الله تعالى كان أجاب سؤاله حل عقدة من لسانه فلم يبق فيه منها أثر قال: المعنى ولا يكاد يبين حجته الدالة على صدقه فيما يدعى لا أنه لا قدرة له على الافصاح باللفظ وهو افتراء عليه عليه السلام ألا ترى إلى

مناظرته له ورده عليه وافحامه إياه ، وقيل : عابه بما كان به عليه السلام من الحبسة أيام كان عنده وأراد اللعين أنه عليه السلام ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة مايعتضد به وهو فى نفسه مخل بماينعت به الرجال من اللسن وإبانة الكلام ، و«أم» على مانقل عن سيبويه والخليل متصلة ، وقد نزل السبب بعدها منزلة المسبب على ماذهب اليه الزمخشرى ، والمعنى افلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع «أم انا خير» موضع ام تبصرون *

وإيضاح ذلك أن فرعون عليه اللعنة لما قدم اسباب البسطة والرياسة بقوله (أليس لى) الخ وعقبه بقوله افلا تبصرون استقصاراً لهم وتنبيها على أنه من الوضوح بمكان لايخفى على ذى عينين قال فى مقابله: «أم انا خير» بمعنى ام تبصرون أنى أنا المقدم المتبوع ، وفى العدول تنبيه على أن هذا الشق هو المسلم لامحالة عندكم فكأنه يحكيه عن لسانهم بعدما أبصروا وهو أسلوب عجيب وفن غريب،وجعله الزمخشرى من انزال السبب مكان المسبب لأن كونه خيراً فى نفسه أى محصلا له أسباب التقدم والملك سبب لأن يقال فيه أنت خير منه وقولهم: أنت خير سبب لكونهم بصراء وسبب السبب قد يقال له سبب فلا يرد مايقال إن السبب قولهم: أنت خير لاقوله: أنا خير ، وقال القاضى البيضاوى: إنه من انزال المسبب منزلة السبب لأن علمهم بأنه خير مستفاد من الابصار ، وفيه أن المذكور أنا خير لا أم تعلمون أنى خير، وله أن يقول: ذلك يغنى غناه لأنه جعله مسلما معلوما ماعندهم فقال: «أم أنا خير» لا أم تعلمون كما سلف، ولايخفى أن ماذكره الزمخشرى أظهر كذا فى الكشف ، وقال العلامة الثانى فى تقرير ذلك: إن قوله: أنا خير سبب لقولهم من جهة بعثه على النظر فى أحواله واستعداده لما ادعاه وقولهم: أنت خير سبب لكونهم بصراء عنده فأنا خير سبب له بالواسطة لكن لايخفى أنه سبب للعلم بذلك والحكم به، وأما بحسب الوجود فالامر بالعكس لأن إبصارهم سبب لقولهم أنت خير فتأمل، وبالجملة إن مابعد «أم» مؤول بجملة فعلية معلولة لفظا ومعنى هى ماسمعت ونحو ذلك من حيث التأويل «أدعوتموهم أم أنتم صامتون» أى أم صمتم، وقوله: * أمخدج اليدين أم أتمت * أى أم متما ، وقيل : حذف المعادل لدلالة المعنى عليه ،والتقدير افلا تبصرون أم تبصرون أنا خير الخ، وتعقب بأن هذا لايجوز إلا إذا كان بعد أم لانحو أيقول زيد أم لاأى أم لايقوم فأما حذفه دون لافليس من كلامهم، وجوز أن يكون فى الكلام طى على نهج الاحتباك والمعنى أهو خير منى فلاتبصرون ماذكرتكم به أم أنا خير منه لأنكم تبصرونه، ولاينبغى الالتفات اليه، وجوز غير واحد كون «أم» منقطعة مقدرة ببل والهمزة التى للتقرير كأن اللعين قال اثر ماعدد أسباب فضلة ومبادى خيريته: أثبت عندكم واستقر لديكم أنى خير وهذه حالى من هذا الخ ، ورجحه بعضهم لما فيه من عدم التكلف فى أمر المعادل اللازم أولا لحسن فى المتصلة ، وقال السدى . وأبو عبيدة: أم بمعنى بل فيكون قد انتقل من ذلك الكلام إلى اخباره بأنه خير كقول الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى وصورتها أم أنت فى العين أملح

وقال أبو البقاء :إنها منقطعة لفظا متصلة معنى وأراد ماتقدم من التأويل، وليس فيه مخالفة لما أجمع عليه النحاة كما توهم، وجملة «لايكاديبين» معطوفة على الصلة أو مستأنفة أو حالية.وقرئ «أما أنا خير» بادخال الهمزة على ماالنافية ، وقرأ الباقر رضى الله تعالى عنه «يبين» بفتح الياء من بان إذا ظهر ﴿فَلَوْلَا أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ كناية عن تمليكه،قال مجاهد: كانوا إذا سودوا رجلا سوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسودده ،

فقال فرعون هلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقا، وهذا من اللعين لزعمه أن الرياسة من لوازم الرسالة كما قال كفار قريش فى عظيم القريتين، والاسورة جمع سوار نحو خمار وأخمرة . وقرأ الاعمش (أساور) ورويت عن أبى، وعن أبى عمرو جمع اسورة فهو جمع الجمع ، وقرأ الجمهور (أساورة) جمع أسوار بمعنى السوار والهاء عوض من ياء أساوير فانها تكون فى الجمع المحذوف مدته للعوض عنها كما فى زنادقة جمع زنديق *

وقد قرأ « أساوير » عبدالله. وأبى فى الرواية المشهورة، وقرأ الضحاك ألقى مبنيا للفاعل أى الله تعالى أساورة بالنصب

﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ٥٣﴾ من قرنته به فاقترن ، وفسر بمقرونين أى به لأنه لازم معناه بناء على هذا ، وفسر أيضا بمتقارنين من اقترن بمعنى تقارن والاقتران مجاز أو كناية عن الاعانة *

ولذا قال ابن عباس : يعينونه على من خالفه ، وقيل: عن التصديق ولولا ذلك لم يكن لذكره بعد قوله معه فائدة، وهو على الأول حسى وعلى الثانى معنوى، وقيل: متقارنين بمعنى مجتمعين كثيرين، وعن قتادة متتابعين *

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فطلب منهم الخفة فى مطاوعته على أن السين للطلب على حقيقتها، ومعنى الخفة السرعة لاجابته ومتابعته كما يقال هم خفوف إذا دعوا وهو مجاز مشهور وقال ابن الأعرابى استخف أحلامهم أى وجدهم خفيفة أحلامهم أى قليلة عقولهم فصيغة الاستفعال للوجدان كالافعال كما يقال أحمدته وجدته محمودا وفى نسبته ذلك للقوم تجوز

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ٥٤﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوى

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أى أسخطونا كما قال على كرم الله تعالى وجهه . وفى معناه ما قيل أى أغضبونا أشد الغضب أى بأعمالهم. والغضب عند الخلف مجاز عن إرادة العقوبة فيكون صفة ذات أو عن العقوبة فيكون صفة فعل*

وقال أبو عبدالله الرضا رضى الله تعالى عنه : إن الله سبحانه لا يأسف كأسفنا ولكن له جل شأنه أولياء يأسفون ويرضون فجعل سبحانه رضاهم رضاه وغضبهم غضبه تعالى، وعلى ذلك قال عز وجل: «من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة» وقال سبحانه: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وعليه قيل: المعنى فلما أسفوا موسى عليه السلام ومن معه، والسلف لا يؤولون ويقولون: الغضب فينا انفعال نفسانى وصفاته سبحانه ليست كصفاتنا بوجه من الوجوه، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تفسير الأسف بالحزن وأنه قال هنا أى أحزنوا أولياءنا المؤمنين نحو السحرة وبنى إسرائيل*

وذكر الراغب أن الاسف الحزن والغضب معا وقد يقال لكل منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا ، ولذلك سئل ابن عباس عنهما فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظا وغضبا ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزنا وجزعا، وبهذا النظر قال الشاعر :

* فحزن كل أخى حزن أخو الغضب * انتهى، وعلى جميع الأقوال آسف منقول بالهمزة من أسف *

﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٥﴾ فى اليم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ قال ابن عباس . وزيد بن أسلم. وقتادة أى متقدمين إلى النار *

وقال غير واحد: قدوة للكفار الذين بعدهم يقتدون بهم فى استيجاب مثل عقابهم ونزوله بهم ، والكلام

على الاستعارة لأن الخالف يقتدي بالسالف فلما اقتدوا بهم في الكفر جعلوا كأنهم اقتدوا بهم في معلول الغضب وهو مصدر نعت به ولذا يصح إطلاقه على القليل والكثير ، وقيل : جمع سالف كحارس وحرس وخادم وخدم وهذا يحتمل أن يراد بالجمع فيه ظاهره ويحتمل أن يراد به اسم الجمع فان فعلا ليس من أبنية الجموع لغلبته في المفردات، والمشهور في جمعه أسلاف وجاء سلاف أيضا *

وقرأ أبو عبدالله. وأصحابه. وسعيد بن عياض. والأعمش. والأعرج. وطلحة. وحمزة والكسائي (سلفا) بضمتين جمع سليف كفريق لفظا ومعنى، سمع القاسم بن معن العرب تقول: مضى سليف من الناس يعنون فريقا منهم وقيل: جمع سلف كصبر جمع صابر أو جمع سلف كجنب *

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه. ومجاهد. والأعرج. أيضا سلفا بضم ففتح إما على أنه أبدلت فيه ضمة اللام فتحة تخفيفا كما يقال في جدد بضم الدال جدد بفتحها أو على أنه جمع سلفة بمعنى الأمة والجماعة من الناس أي فجعلناهم أمة سلفت، والسلف بالضم فالفتح في غير هذا ولد القبج والجمع سلفان كصردان ويضم *

﴿ وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ٥٦ ﴾ أي عظة لهم، والمراد بهم الكفار بعدهم، والجار متعلق على التنازع بسلفا ومثلا، ويجوز أن يراد بالمثل القصة العجيبة التي تسير مسير الأمثال ؛ ومعنى كونهم مثلا للكفار أن يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون ، ويجوز تعلق الجار بالثاني وتعميم الآخرين بحيث يشمل المؤمنين ، وكونهم قصة عجيبة للجميع ظاهر ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ الخ بيان لعناد قريش بالباطل والرد عليهم ، فقد روى أن عبدالله ابن الزبعرى قبل إسلامه ، قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سمعه يقول : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) أليست النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول كان نبيا وعبدا من عباد الله تعالى صالحا فان كان في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ففرح قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى :

﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ٥٧ ﴾ فالمعنى ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وحاجك بعبادة النصارى إياه إذا قومك من ذلك ولأجله يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجدلا ، والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة قيل لها مثل أو المثل بمعنى المثال أي جعله مقياسا وشاهدا على إبطال قوله عليه الصلاة والسلام: إن آلهتهم من حصب جهنم ، وجعل عيسى عليه السلام نفسه مثلا من باب «الحج عرفة» *

وقرأ أبو جعفر. والأعرج . والنخعي. وأبو رجاء . وابن وثاب . وابن عامر . ونافع . والكسائي (يصدون) بضم الصاد من الصدود، وروى ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه، وأنكر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هذه القراءة وهو قبل بلوغه تواترها ، والمعنى عليها إذا قومك من أجل ذلك يعرضون عن الحق بالجدل بحجة داحضة واهية ، وقيل : المراد يثبتون على ما كانوا عليه من الاعراض *

وقال الكسائي. والفراء: يصدون بالكسر ويصدون بالضم لغتان بمعنى واحد مثل يعرشون ويعرشون ومعناهما يضجون ، ويجوز أن يكون يعرضون ﴿ وَقَالُوا ﴾ تمهيدا لما بنوا عليه من الباطل المموه مما يغتر به السفهاء ﴿ ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي ظاهر عندك أن عيسى عليه السلام خير من آلهتنا فحيث كان هو في النار فلا بأس بكونها وأيانا فيها ، وحقق الكوفيون الهمزتين همزة الاستفهام والهمزة الأصلية، وسهل باقي السبعة الثانية بين بين،

وقرأ ورش فى رواية أبى الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر، والظاهر أنه على حذف همزة الاستفهام، وقوله تعالى: ﴿مَاضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾ ابطال لباطلهم اجمالا اكتفاء بما فصل فى قوله تعالى: (إن الذين سبقت) وتنبيها على أنه مما لا يذهب على ذى مسكة بطلانه فكيف على غيره ولكن العناد يعمى ويصم أى ماضربوا لك ذلك إلا لأجل الجدال والخصام لا لطلب الحق فانه فى غاية البطلان بل هم قوم لد شداد الخصومة مجبولون على المحك أى سوء الخلق واللجاج، فجدلا منتصب على أنه مفعول لأجله، وقيل: هو مصدر فى موضع الحال أى مجادلين، وقرأ ابن مقسم (جدالا) بكسر الجيم وألف بعد الدال، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى ما عيسى ابن مريم ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة وروادفها فهو مرفوع المنزلة على القدر لكن ليس له من استحقاق المعبودية من نصيب، كلام حكيم مشتمل على ما اشتمل عليه قوله تعالى: (إن الذين سبقت) ولكن على سبيل الرمز وعلى فساد رأى النصارى فى إيثارهم عبادته عليه السلام تعريضا بمكان عبادة قريش غيره سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أى أمراً عجيبا حقيقا بأن يسير ذكره كالامثال السائرة ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٥٩﴾ حيث خلقناه من غير أب وجعلناله من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ونحو ذلك مالم نجعل لغيره فى زمانه، كلام أجمل فيه وجه الافتتان به وعليه، ووجه دلالته على قدرة خالقه تعالى شأنه وبعد استحقاقه عليه السلام عما قرف به افراطا وتفريطا، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا﴾ الخ تذييل لوجه دلالته على القدرة وأن الافتتان من عدم التأمل وتضمين للانكار على من اتخذ الملائكة آلهة كما اتخذ عيسى عليهم السلام أى ولو نشاء لقدرتنا على عجائب الامور وبدائع الفطر لجعلنا بطريق التوليد وما آله لولدنا ﴿مِنْكُمْ﴾ يارجال ﴿مَلَائِكَةً﴾ كما ولدنا عيسى من غير أب ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ٦٠﴾ أى يخلفونكم فى الارض كما يخلفكم اولادكم اويكونون خلفاء ونسلا لكم ليعرف تميزنا بالقدرة الباهرة وليعلم أن الملائكة ذوات ممكنة تخلق توليدا كما تخلق ابداعا فمن أين لهم استحقاق الالوهية والانتساب اليه سبحانه وتعالى بالبنوة، وجوز أن يكون معنى لجعلنا الخ لحولنا بعضكم ملائكة فمن ابتدائية او تبعيضية و(ملائكة) مفعول ثان أو حال، وقيل: من للبدل كما فى قوله تعالى: (ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) وقوله: * ولم تذق من البقول الفستقا * أى ولو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكة يكونون مكانكم بعد اذهابكم، واليه يشير كلام قتادة ومجاهد، والمراد بيان كمال قدرته تعالى لا التوعد بالاستئصال وإن تضمنه فانه غير ملائم للمقام، وقيل: لا مانع من قصدهما معا نعم كثير من النحويين لا يثبتون لمن معنى البدلية ويتأولون ماورد مما يوهم ذلك والأظهر ماقرر أولا *

وذكر العلامة الطيبى عليه الرحمة ان قوله تعالى: (ان هو الاعبد) الخ جواب عن جدل الكفرة فى قوله سبحانه: (انكم وما تعبدون) الخ وان تقريره ان جدلكم هذا باطل لأنه عليه السلام مادخل فى ذلك النص الصريح لأن الكلام معكم أيها المشركون وأنتم المخاطبون به وانما المراد بما تعبدون الأصنام التى تنحتونها بأيديكم وأما عيسى عليه السلام فما هو الا عبد مكرم منعم عليه بالنبوة مرفوع المنزلة والذكر مشهور فى بنى اسرائيل كالمثل السائر فمن أين تدخل فى قولنا: (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ثم لا اعتراض علينا أن نجعل قوما أهلا للنار وآخرين أهلا للجنة اذ لو نشاء لجعلنا منكم ومن أنفسكم أيها الكفرة ملائكة أي عبيدا مكرمون مهتدون والى الجنة صائرون كقوله تعالى: (ولو شئنا لآتينا كل

نفس هداها) اهـ *

وعلى ما ذكرنا أن الكلام فى ابطال قد تم عند قوله تعالى : (خصمون) ومابعد لما سمعت قبل وهو أدق وأولى مما ذكره بل ماأشار اليه من أن قوله تعالى: (ولو نشاء) الخ لنفي الاعتراض ليس بشيء . وروى أن ابن الزبعرى قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين سمع قوله تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال : خصمتك ورب الكعبة أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيرا، وبنو مليح الملائكة ؟ فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل الله تعالى (ان الذين سبقت) الآية أو نزلت هذه الآية ، وأنكر بعضهم السكوت ، وذكر أن ابن الزبعرى حين قال للنبي عليه الصلاة والسلام . خصمتك رد عليه ﷺ بقوله ماأجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لايعقل ، وروى محيي السنة فى المعالم أن ابن الزبعرى قال له عليه الصلاة والسلام :أنت قلت : (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)؟ قال : نعم قال: أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة ؟ فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : بل هم يعبدون الشيطان فأنزل الله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) وهذا أثبت من الخبر الذى قبله . وتعقب ما تقدم فى الخبر السابق من سؤال ابن الزبعرى أهذا لنا الخ، وقوله عليه الصلاة والسلام : هو لكم الخ بأنه ليس بثبت *

وذكر من أثبته أنه صلى الله تعالى عليه وسلم إنما لم يجب حين سئل عن الخصوص والعموم بالخصوص عملا بما تقتضيه كلمة (ما) لأن إخراج المعهودين عن الحكم عند المحاجة موهم للرخصة فى عبادتهم فى الجملة وعممه عليه الصلاة والسلام للكل لكن لابطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك فى المعبودية من دون الله تعالى ثم بين أنهم بمعزل من أن يكونوا معبوديهم بما جاء فى خبر محيي السنة من قوله عليه الصلاة والسلام: بل هم يعبدون الشيطان كما نطق به قوله تعالى : (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن) الآية ، وقد تقدم ما ينفعك تذكره فتذكر . وفى الدر المنثور أخرج الامام أحمد . وابن أبي حاتم . والطبرانى . وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لقريش : إنه ليس أحد يعبد من دون الله تعالى فيه خير فقالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله تعالى صالحا فان كنت صادقا فانه كآلهتنا فأنزل الله سبحانه : (ولما ضرب ابن مريم مثلا) الخ ، والكلام فى الآيات على هذه الرواية يعلم مما تقدم بأدنى التفات ، وقيل : إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت ، فالمثل مافى قوله تعالى : (إن مثل عيسى) الآية والضارب هو تعالى شأنه أى ولما بين الله سبحانه حاله العجيبة اتخذه قومك ذريعة إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقا بشرا قد عبد فنحن أهدى حيث عبدنا ملائكة مطهرين مكرمين عليه وهو الذى عنوه بقولهم : (أآلهتنا خير أم هو) فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايسة باطل بباطل وأنهم فى اتخاذهم العبد المنعم عليه إلها مبطلون مثلكم فى اتخاذ الملائكة وهم عباد مكرمون ، ثم قال سبحانه : (ولو نشاء لجعلنا منكم) دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله و أنه سبحانه قادر

على أعجب من خلق عيسى عليه السلام وأنه لافرق فى ذلك بين المخلوق توالدا وإبداعا فلا يصلح القسمان للالهية . وفى رواية عن ابن عباس . وقتادة أنه لما نزل قوله تعالى : (لمن مثل عيسى) الآية قالت قريش : ما أراد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من ذكر عيسى عليه السلام إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى *

ومعنى يصدون يضجون ويضجرون، والضمير فى (أم) هو لنبينا عليه الصلاة والسلام، وغرضهم بالموازنة بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبين آلهتهم الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام، وقوله تعالى: (ولو نشاء) الخ ردو تكذيب لهم فى افترائهم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان أن عيسى عليه السلام فى الحقيقة وفيما أوحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف يرضى صلى الله تعالى عليه وسلم بمعبوديته أو كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه ثم بين جل شأنه أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله تعالى وأنه قادر على أبدع منه وأبدع مع التنبيه على سقوط الملائكة عليهم السلام أيضا عن درجة المعبودية بقوله سبحانه : (ولو نشاء) الخ وفيه أن الدلالة على ذلك المعنى غير واضحة، وكذلك رجوع الضمير إلى نبينا عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى : (أم هو) مع رجوعه إلى عيسى فى قوله سبحانه: (إن هو إلا عبد) وفيه من فك النظم ما يجب أن يصان الكتاب المعجز عنه، ولا يكاد يقبل القول برجوع الضمير الثانى اليه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولعل الرواية عن الحبر غير ثابتة، وجوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم: الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه ومن عبادتهم إياهم كأنهم قالوا: ماقلنا بدعا من القول ولا فعلنا منكرا من الفعل فان النصارى جعلوا المسيح ابن الله عز وجل فنحن أشف منهم قولا وفعلا حيث نسبنا اليه تعالى الملائكة عليهم السلام وهم نسبوا اليه الأناسى ، وقوله تعالى : (ولو نشاء) الخ عليه كما فى الوجه الثانى ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى انه بنزوله شرط من أشراطها أو بحدوثه بغير أب أو باحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ماينكره الكفرة من الأمور الواقعة فى الساعة، وأياما كان فعلم الساعة مجاز عما تعلم به والتعبير به للمبالغة، وقرأ أبى (لذكر) وهو مجاز كذلك *

وقرأ ابن عباس . وأبو هريرة . وأبو مالك الغفارى . وزيد بن على . وقتادة . ومجاهد . والضحاك . ومالك بن دينار . والأعمش. والكلبى قال ابن عطية . وأبو نصرة (لعلم) بفتح العين واللام أى لعلامة *

وقرأ عكرمة . قال ابن خالويه . وأبو نصرة (للعلم) معرفا بفتحتين والحصر إضافى ، وقيل : باعتبار أنه أعظم العلامات ، وقد نطقت الأخبار بنزوله عليه السلام فقد أخرج البخارى . ومسلم . والترمذى. وأبو داود. وابن ماجه عن أبى هريرة قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينزلن ابن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسقى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» ، وفى رواية «وانه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وان لم يصبه بلل فليقاتل الناس على الاسلام» وفيه ويهلك المسيح الدجال» وفى أخرى قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» وفى رواية «فأمكم منكم قال ابن أبى ذئب: تدرى ما أمكم منكم ؟ قال : تخبرنى قال : فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم، والمشهور نزوله عليه السلام بدمشق والناس فى

صلاة الصبح فيتأخر الإمام وهو المهدي فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه ويقول: انما أقيمت لك *
وقيل بل يتقدم هو ويؤم الناس والاكثرون على اقتدائه بالمهدي في تلك الصلاة دفعا لتوهم نزوله ناسخا وأما في غيرها فيؤم هو الناس لأنه الافضل والشيعة تأبى ذلك ،
وفي بعض الروايات أنه عليه السلام ينزل على ثنية يقال لها أفيق بفاء وقاف بوزن أمير وهي هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ويمكث في الأرض على ما جاء في رواية عن ابن عباس أربعين سنة وفي رواية سبع سنين قيل والاربعون انما هي مدة مكثه قبل الرفع وبعده ثم يموت ويدفن في الحجرة الشريفة النبوية، وتمام الكلام في البحور الزاخرة للسفاريني، وعن الحسن . وقتادة . وابن جبير أن ضمير (إنه) للقرآن لما أن فيه الاعلام بالساعة فجعله عين العلم مبالغة أيضا، وضعف بانه لم يجر للقرآن ذكر هنا مع عدم مناسبة ذلك للسياق، وقالت فرقة: يعود على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وفيه من البعد مافيه *
وكأن هؤلاء يجعلون ضمير «أم هو» وضمير «إنه هو» له ﷺ أيضا وهو كما ترى ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكن في وقوعها ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ أي واتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي، وقيل: هو قول الرسول ﷺ مأمورا من جهته عز وجل فهو بتقدير القول أي وقل اتبعوني ﴿ هَٰذَا ﴾ أي الذي أدعوكم اليه أو القرآن على أن الضمير في «إنه» له ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١ ﴾ موصل إلى الحق ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ عن اتباعي ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٢ ﴾ أي بين العداوة أو مظهرها حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالامور الواضحات وهي المعجزات أو آيات الانجيل أو الشرائع ولا مانع من ارادة الجميع ﴿ قَالَ ﴾ لبني اسرائيل ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ﴾ أي الانجيل كما قال القشيري. والماوردي . وقال السدي . بالنبوة، وفي رواية أخرى عنه هي قضايا يحكم بها العقل، وقال أبو حيان . أي بما تقتضيه الحكمة الالهية من الشرائع، وقال الضحاك: أي بالموعظة ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم ﴾ متعلق بمقدر أي وجئتكم لأبين لكم، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله ليؤذن بالاهتمام بالعلة حيث جعلت كأنها كلام برأسه . وفي الارشاد هو عطف على مقدر ينبيء عنه المجيء بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم اياها ولأبين لكم ﴿ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو امر الديانات وما يتعلق بالتكليف دون الأمور التي لم يتعبدوا بمعرفتها ككيفية نضد الافلاك وأسباب اختلاف تشكلات القمر مثلا فان الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيان ما يختلف فيه من ذلك ومثلها ما يتعلق بامر الدنيا ككيفية الزراعة وما يصلح الزرع وما يفسده مثلا فان الانبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيانه أيضا كما يشير اليه قوله ﷺ في قصة تأبير النخل «أنتم أعلم بامور دنياكم» *
وجوز أن يراد بهذا البعض بعض أمور الدين المكلف بها وأريد بالبيان البيان على سبيل التفصيل وهي لا يمكن بيان جميعها تفصيلا وبعضها مفوض للاجتهاد، وقال أبو عبيدة: المراد بعض الذي حرم عليهم وقد أحل عليه السلام لهم لحوم الابل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت، وقال مجاهد: بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة ، وقال قتادة: لأبين لكم اختلاف الذين تحزبوا في امره عليه السلام ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ من

مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ فيما أبلغه عنه تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦٤﴾ لا يضل سالكه، وهو اما من تتمة كلام عيسى عليه السلام أو استئناف من الله تعالى مقرر لمقالة عيسى عليه السلام ❊

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ من بين من بعث اليهم وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته عليه السلام، وقيل: المراد النصارى وهم أمة إجابته عليه السلام، وقد اختلفوا فرقا ملكانية ونسطورية ويعقوبية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المختلفين وهم الذين لم يقولوا: إنه عبد الله ورسوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾ هو يوم القيامة وأليم صفة عذاب أو يوم على الاسناد المجازي ❊

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦﴾ الضمير لقريش، وأن تأتيهم بدل من الساعة، والاستثناء مفرغ، وجوز جعل الا بمعنى غير والاستفهام للانكار وينظرون بمعنى ينتظرون أي ما ينتظرون شيئا الا اتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها، وفي ذلك تهكم بهم حيث جعل اتيان الساعة كالمنتظر الذي لا بد من وقوعه ❊

ولما جاز اجتماع الفجأة والشعور وجب أن يقيد ذلك بقوله سبحانه: (وهم لا يشعرون) لعدم اغناء الأول عنه فلا استدراك، وقيل: يجوز أن يراد بلا يشعرون الاثبات لأن الكلام وارد على الانكار كأنه قيل: هل يزعمون أنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون أي لا يكون ذلك بل تأتيهم وهم فطنون، وفيه ما فيه، وقيل: ضمير (ينظرون) للذين ظلموا، وقيل: للناس مطلقا وأيد بما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ: تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة والرجلان يطويان الثوب ثم قرأ عليه الصلاة والسلام هل ينظرون إلا الساعة ان تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون» ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ الظرف متعلق بعدو والفصل لا يضره، والمراد أن المحبات تنقطع يوم اذ تأتيهم الساعة ولا يبقى الا محبة المتقين وهم المتصادقون في الله عز وجل لما أنهم يرون ثواب التحاب في الله تعالى، واعتبار الانقطاع لأن الخل حال كونه خلا محال أن يصير عدوا ❊

وقيل: المعنى الاخلاء تنقطع خلتهم ذلك اليوم الا المجتنبين اخلاء السوء، والفرق بين الوجهين أن المتقي في الأول هو المحب لصاحبه في الله تعالى فاتقى الحب أن يشوبه غرض غير إلهي، وفي الثاني هو من اتقى صحبة الاشرار ❊

والاستثناء فيهما متصل، وجوز أن يكون يومئذ متعلقا بالاخلاء والمراد به في الدنيا ومتعلق عدو مقدر أي في الآخرة، والآية قيل نزلت في أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ٦٨﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله تعالى يومئذ فهو بتقدير قول أي فيقال لهم ياعبادي الخ أو فاقول: لهم بناء على أن المنادى هو الله عز وجل تشريفا لهم، وعن المعتمر بن سليمان أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد الا يفزع فينادي مناد ياعبادي الخ فيرجوها الناس كلهم فيتبعها قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ٦٩﴾ فييأس منها الكفار، فياعباد عام مخصوص اما بالآية السابقة واما باللاحقة، والأول أوفق من أوجه عديدة ❊

والموصول إما صفة للمنادى أو بدل أو مفعول لمقدر أي أمدح ونحوه، وجملة (وكانوا مسلمين) حال من ضمير (آمنوا) بتقدير قد أو بدونه، وجوز عطفها على الصلة، ورجحت الحالية بأن الكلام عليها أبلغ لأن المراد بالاسلام

هنا الانقياد والاخلاص ليفيد ذكره بعد الايمان فاذا جعل حالا أفاد بعد تلبسهم به فى الماضى اتصاله بزمان الايمان، وكان تدل على الاستمرار أيضا ومن هنا جاء التأكيد والأبلغية بخلاف العطف، وكذا الحال المفردة بأن يقال: الذين آمنوا بآياتنا مخلصين، وقرأ غير واحد من السبعة (ياعبادى) بالياء على الاصل، والحذف كثير شائع وبه قرأ حفص. وحمزة. والكسائى، وقرأ ابن محيصن (لاخوف) بالرفع من غير تنوين، والحسن. والزهرى. وابن أبى اسحق. وعيسى. وابن يعمر. ويعقوب. بفتحها من غير تنوين ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ نساؤكم المؤمنات فالاضافة للاختصاص التام فيخرج من لم يؤمن منهن ﴿ تُحْبَرُونَ ٧٠ ﴾ تسرون سرورا يظهر حباره أى أثره من النضرة والحسن على وجوهكم كقوله تعالى: (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أو تزينون من الحبر بفتح الحاء وكسرها وهو الزينة وحسن الهيئة، وهذا متحد بما قبله معنى والفرق فى المشتق منه، وقال الزجاج: أى تكرمون اكراما يبالغ فيه، والحبرة بالفتح المبالغة فى الفعل الموصوف بأنه جميل ومنه الاكرام فهو فى الاصل عام أريد به بعض أفراده هنا ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ بعد دخولهم الجنة حيثما أمروا به ﴿ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ كذلك، والصحاف جمع صحفة قيل هى كالقصعة، وقيل: أعظم أوانى الاكل الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم الكيلة *

والاكواب جمع كوب وهو كوز لاعروة له، وهذا معنى قول مجاهد لااذن له، وهو على ماروى عن قتادة دون الابريق، وقال: بلغنا أنه مدور الرأس ولما كانت أوانى المأكول أكثر بالنسبة لأوانى المشروب عادة جمع الأول جمع كثرة والثانى جمع قلة، وقد تظافرت الاخبار بكثرة الصحاف، اخرج ابن المبارك. وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة. والطبرانى فى الاوسط بسند رجاله ثقات عن انس قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ان اسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم بيد كل واحد صحفتان واحدة من ذهب والاخرى من فضة فى كل واحدة لون ليس فى الاخرى مثله يأكل من آخرها مثل مايأكل من أولها يجد لآخرها من الطيب واللذة مثل الذى يجد لأولها ثم يكون ذلك كرشح المسك الاذفر لايبولون ولايتغوطون ولايتمخطون اخوانا على سرر متقابلين» وفى حديث رواه عكرمة «إن ادنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لايدخل بعده أحد يفسح له فى بصره مسيرة عام فى قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر الامعمور يغدى عليه كل يوم ويراح بسبعين الف صحفة فى كل صحفة لون ليس فى الاخرى مثله شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها لو نزل عليه جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لاينقص ذلك مما أوتى شيئا، وروى ابن أبى شيبة هذا العدد عن كعب أيضا، وإذا كان ذلك للادنى فما ظنك بالاعلى، رزقنا الله تعالى مايليق بجوده وكرمه *

وأمال أبو الحرث عن الكسائى كما ذكر ابن خالويه بصحاف ﴿ وَفِيهَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ ﴾ من فنون الملاذ ﴿ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ أى تستلذ وتقر بمشاهدته، وذكر ذلك الشامل لكل لذة ونعيم بعد ذكر الطواف عليهم بأوانى الذهب الذى هو بعض من التنعم والترفه تعميم بعد تخصيص كما أن ذكر لذة العين التى هى جاسوس النفس بعد اشتهاء النفس تخصيص بعد تعميم، وقال بعض الاجلة: إن قوله تعالى: (يطاف عليهم) بصحاف دل على الاطعمة (وأكواب) على الاشربة، ولايبعد أن يحمل قوله سبحانه: (وفيها ماتشتهيه الانفس) على المنكح والملبس ومايتصل بهما ليتكامل جميع المشتهيات النفسانية فبقيت اللذة الكبرى وهى النظر إلى وجه الله تعالى الكريم

فكنى عنه بقوله عز وجل (وتلذ الاعين) ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما رواه النسائي عن أنس: «حبب إلي الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» وقال قيس بن ملوح :

ولقد هممت بقتلها من حبها كيما تكون خصيمتي في المحشر
حتى يطول على الصراط وقوفنا وتلذ عيني من لذيذ المنظر

ويوافق هذا قول الامام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: شتان بين ما تشتهي الأنفس وبين ما تلذ الأعين لأن جميع ما في الجنة من النعيم والشهوات في جنب ما تلذ الأعين كأصبع تغمس في البحر لأن شهوات الجنة لها حد ونهاية لأنها مخلوقة ولا تلذ عين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي جل وعز ولا حد لذلك ولا صفة ولا نهاية انتهى، ويعلم مما ذكر أن المعنى على اعتبار وفيها ما تلذ الأعين وعلى ذلك بنى الزمخشري قوله : هذا حصر لأنواع النعم لأنها اما مشتهاة في القلوب أو مستلذة في الأعين، وتعقبه في الكشف فقال: فيه نظر لانتقاضه بمستلذات سائر المشاعر الخمس، فان قيل: انها من القسم الأول قلنا: مستلذ العين كذلك فالوجه أنه ذكر تعظيما لنعيمها بأنه مما يتوافق فيه القلب والعين وهو الغاية عندهم في المحبوب لأن العين مقدمة القلب، وهذا قول بأنه ليس في الجملة الثانية اعتبار موصول آخر بل هي والجملة قبلها صلتان لموصول واحد وهو المذكور، وما تقدم هو الذي يقتضيه كلام الاكثرين، وحذف الموصول في مثل ذلك شائع، ولا مانع من إدخال النظر إلى وجهه تعالى الكريم فيما تلذ الاعين على ما ذكرناه أولا، و(أل) في الأنفس والأعين للاستغراق على ما قيل، ولا فرق بين جمع القلة والكثرة، ولعل من يقول بأن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ويفرق بين الجمعين في المبدإ والمنتهى يقول: بأن استغراق جمع القلة أشمل من استغراق جمع الكثرة، وقيل: هي للعهد، وقيل : عوض عن المضاف اليه أي ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم، وجمع النفس والعين الباصرة على أفعل في كلامهم أكثر من جمعهما على غيره بل ليس في القرآن الكريم جمع الباصرة إلا على ذلك، وما أنسب هذا الجمع هنا لمكان (الاخلاء) وحمل ما تشتهيه النفس على المنكح والملبس وما يتصل بهما خلاف الظاهر *

وفي الأخبار أيضا ما هو ظاهر في العموم، أخرج ابن أبي شيبة . والترمذي . وابن مردويه عن بريدة قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : هل في الجنة خيل فانها تعجبني ؟ قال : إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت ، فقال له رجل : إن الابل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال: يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما تشتهي نفسك ولذت عينك » *

وأخرج أيضا نحوه عن عبد الرحمن بن سابط وقال: هو أصح من الاول، وجاء نحوه أيضا في روايات أخر فلا يضره ما قيل من ضعف اسناده، ولا يشكل على العموم أن اللواطة (١) مثلا لا تكون في الجنة لأن ما لا يليق أن يكون فيها لا يشتهى بل قيل في خصوص اللواطة أنه لا يشتهيها في الدنيا الانفس السليمة *

واختلف الناس هل يكون في الجنة حمل أم لا فذهب بعض إلى الاول، فقد أخرج الامام أحمد . وهناد. والدارمي . وعبد بن حميد . وابن ماجه . وابن حبان . والترمذي وحسنه . وابن المنذر . والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال : «قلنا يارسول الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهى *

(١) وقيل : ان أهل الجنة لا ادبار لهم اه منه *

وذهب طاوس. وإبراهيم النخعي. ومجاهد. وعطاء. وإسحق بن إبراهيم إلى الثاني. فقد روى عن أبي رزين العقيلي عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لا يكون لهم ولد» وفي حديث لقيط الطويل الذي رواه عبدالله بن الامام أحمد. وأبو بكر بن عمرو. وأبو أحمد محمد بن أحمد بن ابراهيم. والطبراني. وابن حبان. ومحمد بن اسحق ابن منده. وابن مردويه. وأبو نعيم. وجماعة من الحفاظ وتلقاه الأئمة بالقبول وقال فيه ابن منده: لاينكر هذا الحديث الا جاحد أوجاهل أومخالف للكتاب والسنة قلت: «يارسول الله أو لنا فيها ـ يعني الجنة ـ ازواج أو منهن مصلحات؟ قال: المصلحات للمصلحين تلذذونهن ويلذذنكم مثل لذاتكم في الدنيا غير أن لا توالد».

وقال مجاهد. وعطاء قوله تعالى: (ولهم فيها أزواج مطهرة) أي مطهرة من الولد والحيض والغائط والبول ونحوها، وقال اسحق بن ابراهيم في حديث أبي سعيد السابق: إنه على معنى اذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي ولكن لا يشتهي، وتعقب بأن (اذا) لمتحقق الوقوع ولو أريد ماذكر لقيل. لو اشتهى، وفي حادي الأرواح اسناد حديث أبي سعيد على شرط الصحيح فرجاله يحتج بهم فيه ولكنه غريب جداً.

وقال السفاريني في البحور الزاخرة: حديث أبي سعيد أجود أسانيده اسناد الترمذي وقد حكم عليه بالغرابة وأنه لا يعرف الا من حديث أبي الصديق الناجي وقد اضطرب لفظه فتارة يروى عنه اذا اشتهى الولد وتارة انه يشتهي الولد وتارة ان الرجل ليولد له، واذا قد تستعمل لمجرد التعليق الاعم من المحقق وغيره. ورجح القول بعدم الولاده بعشرة وجوه مذكورة فيها، وأنا أختار القول بالولادة كما نطق بها حديث أبي سعيد وقد قال فيه الاستاذ أبو سهل فيما نقله الحاكم: إنه لا ينكره الا أهل الزيغ، وفيه غير اسناد، وليس تكون الولد على الوجه المعهود في الدنيا بل يكون كما نطق به الحديث ومتى كان كذلك فلا يستبعد تكونه من نسيم يخرج وقت الجماع، وزعم أن الولد انما يخلق من المني فحيث لا مني في الجنة كما جاء في الاخبار لا خلق فيه تعجيز للقدرة. ولا ينافي ذلك مافي حديث لقيط لأن المراد هناك نفي التوالد المعهود في الدنيا كما يشير اليه وقوع غير أن لا توالد بعد قوله عليه الصلاة والسلام: مثل لذاتكم في الدنيا، ويقال نحو ذلك في حديث أبي رزين جمعا بين الأخبار، ثم ان التوالد ليس على سبيل الاستمرار بل هو تابع للاشتهاء ولا يلزم استمراره فالقول بأنه ان استمر لزم وجود أشخاص لانهاية لها وان انقطع لزم انقطاع نوع من لذة أهل الجنة ليس بشيء، وما قيل: إنه قد ثبت في الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يبقى في الجنة فضل فينشئ الله تعالى لها خلقا يسكنهم إياها» ولو كان في الجنة إيلاد لكان الفضل لأولادهم الملازمة فيه ممنوعة لجواز أن يقال من يشتهي الولد يشتهي أن يكون معه في منزله، والقول بأن التوالد في الدنيا لحكمة بقاء النوع وهو باق في الجنة بدون توالد فيكون عبثا يرد عليه أنه ما المانع من أن يكون هناك للذة ونحوها كالأكل والشرب فانهما في الدنيا لشيء وفي الجنة لشيء آخر، وبالجملة ماذكر لترجيح عدم الولادة من الوجوه مما لا يخفى حاله على من له ذهن وجيه.

وقرأ غير واحد من السبعة وغيرهم (ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين) بحذف الضمير العائد على (ما) من الجملتين المتعاطفتين، وفي مصحف عبدالله (ما تشتهيه الانفس وتلذه الأعين) بالضمير فيهما، والقراءة به في الأول دون الثانية لأبي جعفر. وشيبة. ونافع. وابن عامر. وحفص ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة، وقيل: في الملاذ

المفهومة مما تقدم وهو كما ترى ﴿خَالِدُونَ ٧١﴾ دائمون أبد الآبدين، والجملة داخلة في حيز النداء وهي كالتأكيد لقوله تعالى: (لاخوف عليكم) ونودوا بذلك اتماما للنعمة وإكمالا للسرور فان كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر في ثاني الاحوال، ولله تعالى در القائل:

واذا نظرت فان بؤسا زائلا للمرء خير من نعيم زائل

وعن النصراباذي أنه إن كان خلودهم لشهوة الانفس ولذة الاعين فالفناء خير من ذلك وان كان لفناء الاوصاف والاتصاف بصفات الحق والمقام فيها على سرر الرضا والمشاهدة فانتم إذاً انتم، وأنت تعلم ان ماذكره يدخل في عموم ما تقدم دخولا أوليا، وذكر بعضهم هنا أن الخطاب هنا من باب الالتفات وأنه للتشريف

وقال الطيبي: ذق مع طبعك المستقيم معنى الخطاب والالتفات وتقديم الظرف في (وانتم فيها خالدون) لتقف على مالا يكتنهه الوصف ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ مبتدا وخبر وقوله تعالى: ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفة الجنة وقوله سبحانه ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢﴾ متعلق بأورثتموها، وقيل: (تلك الجنة) مبتدأ وصفة و(التي أورثتموها) الخبر والجار بعده متعلق به، وقيل: تلك مبتدا والجنة صفتها والتي اورثتموها صفة الجنة وبما كنتم متعلق بمحذوف هو الخبر *

والاشارة على الوجه الأول الى الجنة المذكورة في قوله تعالى: «ادخلوا الجنة» وعلى الاخيرين الى الجنة الواقعة صفة على ما قيل، والباء للسببية أو للمقابلة، وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة من الجنة ونعيمها الباقي لهم بما يخلفه المرء لوارثه من الاملاك والارزاق ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث اسم فاعل فاستعير الميراث لما استحقوه ثم اشتق اورثتموها فيكون هناك استعارة تبعية، وقال بعض: الاستعارة تمثيلية *

وجوز أن تكون مكنية، وقيل: الارث مجاز مرسل للنيل والاخذ، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من أحد الا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله تعالى: (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) ولا يخلو الكلام عن مجاز عليه أيضا، وأياما كان فسببية العمل لايراث الجنة ونيلها ليس الا بفضل الله تعالى ورحمته عز وجل، والمراد بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لن يدخل أحدكم الجنة عمله» نفي ادخال العمل الجنة على سبيل الاستقلال والسببية التامة فلا تعارض *

وأخرج هناد، وعبد بن حميد في الزهد عن ابن مسعود قال: تجوزون الصراط بعفو الله تعالى وتدخلون الجنة برحمة الله تعالى وتقتسمون المنازل بأعمالكم فتأمل. وقرىء (ورثتموها) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الانواع والاصناف لابحسب الافراد فقط ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٣﴾ أي لا تأكلون الا بعضها وأعقابها باقية في أشجارها فهي مزينة بالثمار أبدا موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وفي الحديث «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها الا نبت مكانها مثلاها» فمن تبعيضية وجوز كونها ابتدائية، والتقديم للحصر الاضافي وقيل لرعاية الفاصلة *

ولعل تكرير ذكر المطاعم في القرآن العظيم مع أنها كلاشيء بالنسبة إلى سائر انواع نعيم الجنة لما كان بأكثرهم في الدنيا من الشدة والفاقة فهو تسلية لهم، وقيل: إن ذلك لكون أكثر المخاطبين عواما نظرهم مقصور على الاكل والشرب. وتعقب بأنه غير تام وللصوفية كلام سيأتي في مواضع إن شاء الله عز وجل ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾

أى الراسخين فى الاجرام الكاملين فيه وهم الكفار فكأنه قيل: إن الكفار ﴿ فى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ٧٤ ﴾ وأيد إرادة ذلك بجعلهم قسيم المؤمنين بالآيات فى قوله تعالى: (الذين آمنوا بآياتنا) فلا تدل الآية على خلود عصاة المؤمنين كما ذهب اليه المعتزلة والخوارج، ولا يضر عدم التعرض لبيان حكمهم بناء على أن المراد بالذين آمنوا المتقون لقوله تعالى: (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) والقول بأن الذين آمنوا شامل لهم لأن العلة إيمانهم واسلامهم لايخفى مافيه. والظرف متعلق بخالدون وخالدون خبر إن، وجوز أن يكون الظرف هو الخبر وخالدون فاعله لاعتماده ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أى لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى اذا سكنت قليلا، والمادة بأى صيغة كانت تدل على الضعف مطلقا ﴿ وَهُمْ فيه ﴾ أى فى العذاب، وقرأ عبدالله «فيها» أى فى جهنم ﴿ مُبْلِسُونَ ٧٥ ﴾ حزينون من شدة البأس، قال الراغب: الابلاس الحزن المعترض من شدة البأس ومنه اشتق ابليس فيما قيل ✽

ولما كان المبلس كثيرا مايلزم السكوت وينسى مايعنيه قيل أبلس فلان اذا سكت وانقطعت حجته انتهى، وقد فسر الابلاس هنا بالسكوت وانقطاع الحجة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ٧٦ ﴾ لسوء اختيارهم، و(هم) ضمير فصل فيفيد التخصيص، وقرأ عبدالله. وأبو زيد (الظالمون) بالرفع على أن هم مبتدأ وهو خبره، وذكر أبو عمر الجرمى أن لغة تميم جعل ماهو فصل عند غيرهم مبتدأ ويرفعون مابعده على الخبر، وقال أبو زيد: سمعتهم يقرؤن (تجدوه عند الله هو خير وأعظم) برفع خير وأعظم، وقال قيس بن ذريح:

تحن الى ليلى وأنت تركتها وكنت عليها بالملا أنت اقدر

وقال سيبويه: بلغنا ان رؤبة كان يقول اظن زيدا هو خير منك يعنى بالرفع ﴿ وَنَادَوْا ﴾ أى من شدة العذاب ✽ وفى بعض الآثار يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيقولون: ادعوا مالكا فيدعون ﴿ يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أى ليميتنا من قضى عليه اذا أماته، ومرادهم سل ربك ان يقضى علينا حتى نستريح، واضافتهم الرب الى ضميره لحثه لا للانكار، وهذا لاينافى الابلاس على التفسير الاول لأنه صراخ وتمنى للموت من فرط الشدة، وأما على التفسير الثانى أنه وان نفاه لكن زمان كل غير زمان الآخر فان أزمنة العذاب متطاولة وأحقابه ممتدة فتختلف بهم الاحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لاخلاص لهم ولو بالموت ويغوثون أوقاتا لشدة مابهم. وتعقب بأنه لايناسب دوام الجملة الاسمية أعنى وهم مبلسون وقيل إن نادوا معطوف بالواو وهى لا تقتضى ترتيبا، ولا يخفى أن تلك الجملة حالية لا تنفك عن الخلود ✽

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود. وابن وثاب. والأعمش «يامال» بالترخيم على لغة من ينتظر وقرأ أبو السوار «يامال» بالترخيم أيضا لكن على لغة من لم ينتظر ✽

قال ابن جنى: وللترخيم فى هذا الموضع سر وذلك أنهم لعظم ما هم فيه ضعفت قواهم وذلت أنفسهم فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة وبهذا يجاب عن قول ابن عباس وقد حكيت له القراءة به على اللغة الأولى: ماأشغل أهل النار عن الترخيم مشيرا بذلك إلى إنكارها فان ماللتعجب وفيها معنى الصد يعنى أنهم فى حالة تشغلهم عن الالتفات إلى الترخيم وترك النداء على الوجه الأكثر فى الاستعمال، وحاصل الجواب أن هذا الترخيم لم يصدر عنهم لقصد التصرف فى الكلام والتفنن فيه كما فى قوله:

يحي رفات العظام بالية ۞ والحق ياءال غير ماتصف

بل للعجز وضيق المجال عن الاتمام كما يشاهد فى بعض المكر وبين ﴿ قَالَ ﴾ أى مالك ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ٧٧ ﴾ مقيمون فى العذاب أبدا لاخلاص لكم منه بموت ولا غيره ، وهذا تقنيط ونكاية لهم فوق ماهم فيه ولا يضر فى ذلك علمه بيأسهم إن قلنا به ۞

وذكر بعض الأجلة أن فيه استهزاء لأنه أقام المكث مقام الخلود والمكث يشعر بالانقطاع لأنه كما قال الراغب ثبات مع انتظار ، ويمكن أن يكون وجه الاستهزاء التعبير بما كثون من حيث أنه يشعر بالاختيار وإجابتهم بذلك بعد مدة ۞

قال ابن عباس يجيبهم بعد مضى ألف سنة ، وقال نوف : بعد مائة ، وقيل ثمانين ، وقيل أربعين ۞

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ٧٨ ﴾ خطاب توبيخ وتقريع من جهته تعالى مقرر لجواب مالك ومبين اسبب مكثهم ، ولا مانع من خطابه سبحانه الكفرة تقريعا لهم ، وقيل : هو من كلام بعض الملائكة عليهم السلام وهو كما يقول أحد خدم الملك للرعية أعلمنا كم وفعلنا بكم قيل لا يجوز أن يكون من قول مالك لا لأن ضمير الجمع ينافيه بل لأن مالكا لا يصح منه أن يقوله لأنه لاخدمة له غير خزنه للنار ۞ وفيه بحث ، وقيل : فى (قال) ضميره تعالى فالكل مقوله عز وجل ، وقيل : إن قوله تعالى (إنكم ما كثون) خاتمة حال الفريقين ، وقوله سبحانه لقد الخ كلام آخر مع قريش والمراد عليه جئناكم فى هذه السورة أو القرآن بالحق ، وعلى ماتقدم لقد جئناكم فى الدنيا بالحق وهو التوحيد وسائر مايجب الايمان به وذلك بارسال الرسل وإنزال الكتب ولكن أكثركم للحق أى حق كان كارهون لا يقبلونه وينفرون منه وفسر الحق بذلك دون الحق المعهود سواء كان الخطاب لأهل النار أو لقريش لمكان (أكثركم) فان الحق المعهود كلهم كارهون له مشمئزون منه ، وقد يقال : الظاهر العهد وعبر بالأكثر لأن من الأتباع من يكفر تقليدا . وقرىء (لقد جئتكم) وقوله تعالى :

﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا ﴾ كلام مبتدأ ناع على المشركين مافعلوا من الكيد برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، و (أم) منقطعة وما فيها معنى بل للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للانكار فان أريد بالابرام الاحكام حقيقة فهى لانكار الوقوع واستبعاده ، وإن أريد الاحكام صورة فهى لانكار الواقع واستقباحه أى بل أبرم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ٧٩ ﴾ كيدنا حقيقة لاهم أو فانا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما أبرموا كيدهم صورة كقوله تعالى (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) والآية إشارة إلى ماكان منهم من تدبير قتله عليه الصلاة والسلام فى دار الندوة وإلى ماكان منه عز وجل من تدميرهم ، وقيل : هو من تتمة الكلام السابق ، والمعنى أم أبرموا فى تكذيب الحق ورده ولم يقتصروا على كراهته فانا مبرمون أمرا فى مجازاتهم ، فان كان ذلك خطابا لأهل النار فابرام الأمر فى مجازاتهم هو تخليدهم فى النار معذبين ، وإن كان خطابا لقريش فهو خذلانهم ونصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم فكأنه قيل : فانا مبرمون أمرا فى مجازاتهم وإظهار أمرك ، وفيه إشارة إلى أن ابرامهم لا يفيدهم ، ولا يغنى عنهم شيئا والعدول عن الخطاب فى أكثركم إلى الغيبة فى أبرموا على هذا

القيل للاشعار بأن ذلك أسوأ من كراهتهم. ويؤيده ماذكر أولا على ما قيل قوله تعالى :

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ لأنه يدل على أن ما أبرموه كان أمرا قد أخفوه فيناسب الكيد دون تكذيب الحق لأن الكفرة مجاهرون فيه والمراد بالسر هنا حديث النفس أى بل أيحسبون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك الكيد ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أى تناجيهم وتحادثهم سرا *

وقال غير واحد: السر ماحدثوا به أنفسهم أو غيرهم فى مكان خال والنجوى ماتكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى ﴿بَلَى﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمون لهم ﴿يَكْتُبُونَ ٨٠﴾ أى يكتبونهما أو يكتبون كل ماصدر عنهم من الأفعال والأقوال التى من جملتها ماذكر *

والمضارع للاستمرار التجددى، وهو مع فاعله خبر و(لديهم) حال قدم للفاصلة أو خبر أيضا وجملة المبتدا والخبر إما عطف على مايترجم عنه بلى أو حال أى نسمع ذلك والحال أن رسلنا يكتبونه، وإذا كان المراد بالسر حديث النفس فالآية ظاهرة فى أن السر والكلام المخيل مسموع له تعالى، وكذا هى ظاهرة فى أن الحفظة تكتبه كغيره من أقوالهم وأفعالهم الظاهرة، ولا يبعد ذلك بأن يطلعهم الله تعالى عليه بطريق من طرق الاطلاع فيكتبوه * ومن خص كتابهم بالأمور الغير القلبية خص السر بما حدث به الغير فى مكان خال ، والظاهر أن حسبانهم ذلك حقيقة ولا يستبعد من الكفرة الجهلة، فقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال: بينا ثلاثة عند الكعبة وأستارها قرشيان وثقفى أو ثقفيان وقرشى فقال واحد منهم ترون الله تعالى يسمع كلامنا فقال واحد: إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت (أم يحسبون الآية) *

وقيل: إنهم نزلوا فى إقدامهم على الباطل وعدم خوفهم من الله عز وجل منزلة من يحسب أن الله سبحانه لايسمع سره ونجواه ﴿قُلْ﴾ أى للكفرة تحقيقا للحق وتنبيها لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك مايعبدون من الملائكة عليهم السلام ليس لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة مانسبوا اليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ٨١﴾ أى لذلك الولد وكان بمعنى صح كما يقال ماكان لك أن تفعل كذا وهو أحد استعمالاتها، و(أول) أفعل تفضيل والمفضل عليه المقول لهم، وجوز اعتبار ذلك مطلقا، والمراد إظهار الرغبة والمسارعة ، والمنساق إلى الذهن الأول *

ووجه الملازمة أنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بشؤنه تعالى وبما يجوز عليه وبما لايجوز وأحرصهم على مراعاة حقوقه وماتوجبه من تعظيم ولده سبحانه فان حق الوالد على شخص يوجب عليه تعظيم ولده لما أن تعظيم الولد تعظيم الوالد، فالمعنى ان كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لعظم أبيه، وهذا نفى لكينونة ولد له سبحانه على أبلغ وجه وهو الطريق البرهانى والمذهب الكلامى، فانه فى الحقيقة قياس استثنائى استدل فيه بنفى اللازم البين انتفاؤه وهو عبادته ﷺ للولد على نفى الملزوم وهو كينونة الولد له سبحانه ، وذلك نظير قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) لكنه جىء بأن دون لو لجعل مافى حيزها بمنزلة مالاقطع بعدمه على طريق المساهلة وارخاء العنان للتبكيت والافحام *

وفى الكشف أن فى الآية مبالغة من حيث أنه جعل الممكن فى نفسه أعنى عبادته عليه الصلاة والسلام لما يدعونه ولدا محالا فهو نفى لعبادة الولد على أبلغ وجه حيث جعل مسببا عن محال ثم نفى للولد كذلك من طريق آخر وهو أنه لما لم يعبد ﷺ الولد مع كونه أولى بعبادته لو كان دل على نفيه، ونحوها ذكر فى الآية مرويا عن قتادة. والسدى. والطبرى *

وأخرج عبد الرزاق. وعبد بن حميد. وابن جرير عن مجاهد أن المعنى قل إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول من عبدالله تعالى وحده وكذبكم بما تقولون فالمراد من كونه عليه الصلاة والسلام أول العابدين كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أول من ينكر ذلك عليهم، والملازمة فى الشرطية باعتبار أن نسبتهم الولد له تعالى تقتضى أن يكذبهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأن يكون أول من ينكره لأنه صاحب الدعوة إلى التوحيد، وقد خفى ذلك على الامام فنفى صحة هذا الوجه، وتكلف بعضهم فقال: إن تسبب الجزاء عن الشرط عليه باعتبار الأولية فى العبادة والتوحيد من بينهم فانهم إذا أطبقوا على ذلك الزعم يكون النبى ﷺ أولهم فى عبادة الله تعالى وحده لامحالة، وقيل: ان السببية باعتبار الاخبار والذكر نحو ان تضربنى فأنا لا أضربك وهو أولى مما قبله، والانصاف ان الارتباط خفى لا يظهر الا لمجاهد، وحكى أبو حاتم عن جماعة ولم يسم أحدا منهم ان (العابدين) من عبد يعبد كفرح يفرح اذا أنف من الشىء، ومنه قوله:

* وأعبد ان اهجو كليبا بدارم * وقول الآخر:

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما

أى ان كان للرحمن ولد فأنا أول الآنفين من الولد أو من كونه لله سبحانه ونسبته له عز وجل. وروى نحو هذا عن ابن عباس أخرج الطستى عنه أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرنى عن قوله تعالى (فأنا أول العابدين) فقال: أنا أول من ينفر عن أن يكون لله تعالى ولد، وأيد ذلك بقراءة السلمى. واليمانى (العبدين) جمع عبد كحذر وحذرين وهو المعروف فى معنى أنف وقلما يقال فيه عابد، ومن هنا ضعف ابن عرفة هذا الوجه لما فيه من استعمال ما قل استعماله فى كلامهم، وذكر الخليل فى كتاب العين أنه قرئ (العبدين) بسكون الباء تخفيف العبدين بكسرها، وقال أبو حاتم: العبد بكسر الباء الشديد الغضب، وقال أبو عبيدة: العرب تقول عبدنى حقى أى جحدنى، وروى عن الحسن. وابن زيد. وزهير بن محمد وهو رواية عن ابن عباس. وقتادة. والسدى أيضا أن (إن) نافية أى ما كان للرحمن ولد فانا أول من قال ذلك وعبد ووحد، و (كان) دالة للاستمرار والمقصود استمرار النفى لا نفى الاستمرار والفاء للسببية. وتعقب بأنه خلاف الظاهر مع خفاء وجه السببية أو حسنها، وزعم مكى أنه لا يجوز لايهامه نفى الولد فيما مضى وهو كما ترى *

وقرأ عبد الله. وابن وثاب. وطلحة. والأعمش. وحمزة. والكسائى كما قال القاضى (ولد) بضم الواو وسكون اللام جمع ولد بفتحهما *

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾ اى عن وصفهم أو الذى يصفونه

به من كونه سبحانه له ولد ، وفى إضافة اسم الرب إلى أعظم الاجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته تعالى وربوبيته عز وجل كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزأ منه سبحانه وهو ينافى وجوب الوجود ، وفى تكرير ذلك الاسم الجليل تفخيم لشأن العرش ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدعهم غير ملتفت اليهم حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلى ﴿ يَخُوضُوا ﴾ فى أباطيلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ فى دنياهم فان ماهم فيه من الأقوال والأفعال ليس إلا من باب الجهل ، والجزم لجواب الأمر ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ٨٣ ﴾ وهو يوم القيامة عند الأكثرين ، وعن عكرمة . وجماعة أنه يوم بدر وقد وعدوا الهلاك فيه ، وقريب منه تفسيره بيوم الموت ، وقيل : ينبغى تفسيره به دون يوم القيامة لأن الغاية للخوض واللعب إنما هو يوم الموت لانقطاعهما بالموت ، وانتصر للاكثرين بأن يوم القيامة هو اليوم الموعود وبه سمى فى لسان الشرع وتفسيره بذلك مخالف للمعروف ولما بعد من ذكر الساعة ، وما ذكر من أمر الانقطاع مدفوع بان الموت وما بعده فى حكم القيامة ولذا ورد من مات فقد قامت قيامته ومثله قد يراد به الدلالة على طول المدة مع قطع النظر عن الانتهاء فيقال : لايزال فى ضلالة إلى أن تقوم القيامة *

وقرأ أبو جعفر . وابن محيصن . وعبيد بن عقيل . عن أبى عمرو (يلقوا) مضارع لقى ، والآية قيل منسوخة بآية السيف ﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلٰهٌ ﴾ الظرفان متعلقان باله لأنه صفة بمعنى معبود من أله بمعنى عبد وهو خبر مبتدا محذوف أى هو إله وذلك عائد الموصول وحذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه *

وقال غير واحد : الجار متعلق باله باعتبار ما ينبيء عنه من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود بالحق وهذا كتعلق الجار بالعلم المشتهر بصفة نحو قولك : هو حاتم فى طيء حاتم فى تغلب ، وعلى هذا تخرج قراءة عمر . وعلى . وعبد الله . وأبى . والحكم بن أبى العالى . وبلال بن أبى بردة . وابن يعمر . وجابر . وابن زيد . وعمر بن عبد العزيز . وأبو شيخ الهنائى . وحميد . وابن مقسم . وابن السميقع (وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله) فيعلق الجار بالاسم الجليل باعتبار الوصف المشتهر به ، واعتبر بعضهم معنى الاستحقاق للعبادة وعلل ذلك بان العبادة بالفعل لاتلزم ، وجوز كون الجار والمجرور صلة الموصول ، و(إله) خبر مبتدا محذوف أيضا على أن الجملة بيان للصلة وأن كونه سبحانه فى السماء على سبيل الالهية لا على معنى الاستقرار *

واختير كون (إله) فى هذا الوجه خبر مبتدا محذوف على كونه خبرا آخر للمبتدا المذكور أو بدلا من الموصول أو من ضميره بناء على تجويزه لأن إبدال النكرة الغير الموصوفة من المعرفة إذا أفادت ما لم يستفد أولا كما هنا جائز حسن على ما قال أبو على فى الحجة لأن البيان ههنا أتم وأهم فلذا رجح مع ما فيه من التقدير وحينئذ فلا فاصل أجنبى بين المتعاطفين ، ولا يجوز كون الجار والمجرور خبر مقدما وإله مبتدأ مؤخرا للزوم خلو الجملة عن العائد مع فساد المعنى ، وفى الآية نفى الآلهة السماوية والأرضية واختصاص الالهية به عز وجل لما فيها من تعريف طرفى الاسناد ، والموصول فى مثل ذلك كالمعرف بالأداة وللاعتناء بكل من إلهيته تعالى فى السماء وإلهيته عز وجل فى الأرض قيل (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) ولم يقل : وهو الذى فى السماء وفى الأرض إله أو هو الذى فى السماء والأرض إله ، وحديث الاعادة قيل مما لايجرى ههنا لأن القاعدة أغلبية كأكثر قواعد العربية *

وقال بعض الأفاضل : يجوز إجراء القاعدة فيه والمغايرة بين الشيئين أعم من أن تكون بالذات أو بالوصف

والاعتبار والمراد هنا الثانى ولاشك أن طريق عبادة أهل السماء له تعالى غير طريق عبادة أهل الأرض على ما يشهد به تتبع الآثار فاذا كان إله بمعنى معبود كان معنى الآية أنه تعالى معبود فى السماء على وجه ومعبود فى الأرض على وجه آخر ، وإن كان بمعنى التحير فيه فالتحير فى أهل السماء غير التحير فى أهل الأرض فلاجرم تكون أطوارهم مخالفة لأطوار أهل الأرض، ومن ذلك اختلاف علومهم فان علوم أهل الأرض إن كانت ضرورية فأكثرها مستندة إلى الحس وإن كانت نظرية كانت مكتسبة من النظر فاذا انسد طريق النظر والحس عجزوا وتحيروا ولا كذلك أهل السماء لتنزههم عن الكسب والحس فتحيرهم على نحو آخر، أونقول التحير فى إدراك ذاته تعالى وصفاته إنما ينشأ من مشاهدة آثار عظمته وكمال قدرته سبحانه ولا شك أن تلك الآثار فى السماء أعظم من الآثار فى الأرض وعليه فيجوز أن يكون الاله بمعنى المتحير فيه ويكون مجازا عن عظيم الشأن من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم فيكون المعنى أنه تعالى عظيم الشأن فى السماء على نحو وعظيم الشأن فى الأرض على نحو آخر اه ، ولا يخلو عن شىء كما لايخفى ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ٨٤ ﴾ كالدليل على النفى والاختصاص المشار إليهما فان من لا يتصف بكمال الحكمة والعلم لايستحق الإلهية .

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كالهواء ومخلوقات الجو المشاهدة وغيرها ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى العلم بالساعة أى الزمان الذى تقوم القيامة فيه فالمصدر مضاف لمفعوله، والساعة بمعناها اللغوى وهو مقدار قليل من الزمان، ويجوز أن يراد بها معناها الشرعى وهو يوم القيامة، والمحذور مندفع بادنى تأمل ، وفى تقديم الخبر إشارة إلى استئثاره تعالى بعلم ذلك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٥ ﴾ للجزاء، والالتفات إلى الخطاب للتهديد ، وقرأ الأكثر بياء الغيبة والفعل فى القراءتين مبنى للمفعول ؛ وقرىء بفتح تاء الخطاب والبناء للفاعل ، وقرىء (تحشرون) بتاء الخطاب أيضا والبناء للمفعول ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أى ولا يملك آلهتهم الذين يدعونهم ﴿ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله عزوجل ، وقرىء (تدعون) بتاء الخطاب والتخفيف ، والسلمى . وابن وثاب بها وشد الدال ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ الذى هو التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٨٦ ﴾ اى يعلمونه، والجملة فى موضع الحال، وقيد بها لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يعول عليها، وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الافراد أولا باعتبار لفظه ، والمراد به الملائكة. وعيسى وعزير . وأضرابهم صلاة الله تعالى وسلامه عليهم، والاستثناء قيل : متصل إن أريد بالذين يدعون من دونه كل ما يعبد من دون الله عز وجل ومنفصل إن اريد بذلك الاصنام فقط ، وقيل : هو منفصل مطلقا وعلل بان المراد نفى ملك الآلهة الباطلة الشفاعة للكفرة ومن شهد بالحق منها لايملك الشفاعة لهم أيضا وإنما يملك الشفاعة للمؤمنين فكأنه قيل على تقدير التعميم : ولا يملك الذين يدعونهم من دون الله تعالى كائنين ما كانوا الشفاعة لهم لكن من شهد بالحق يملك الشفاعة لمن شاء الله سبحانه من المؤمنين؛ فالكلام نظير قولك: ماجاء القوم الى الا زيدا جاء الى عمرو فتأمل .

وقال مجاهد . وغيره: المراد بمن شهد بالحق المشفوع فيهم، وجعل الاستثناء عليه متصلا والمستثنى منه محذوفا كأنه قيل : ولا يملك هؤلاء الملائكة واضرابهم الشفاعة فى أحد الافيمن وحد عن ايقان واخلاص

ومثله فى حذف المستثنى منه قوله :

نجا سالم والنفس منه بشرقه ولم ينج الاجفن سيف ومئزرا

أى ولم ينج شىء الاجفن سيف ، واستدل بالآية على أن العلم مما لابد منه فى الشهادة دون المشاهدة ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ أى سألت العابدين أو المعبودين ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لتعذر المكابرة فى ذلك من فرط ظهوره ووجه قول المعبودين ذلك أظهر من أن يخفى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٨٧﴾ فكيف يصرفون عن عبادته تعالى الى عبادة غيره سبحانه ويشركونه معه عز وجل مع اقرارهم بانه تعالى خالقهم أو مع علمهم باقرار آلهتهم بذلك، والفاء جزائية أى اذا كان الامر كذلك فانى الخ ، والمراد التعجب من اشراكهم مع ذلك، وقيل: المعنى فكيف يكذبون بعد علمهم بذلك فهو تعجب من عبادة غيره تعالى وانكارهم للتوحيد مع أنه مركوز فى فطرتهم، وأياما كان فهو متعلق بما قبله من التوحيد والاقرار بأنه تعالى هو الخالق، وأما كون المعنى فكيف أو أين يصرفون عن التصديق بالبعث مع أن الاعادة أهون من الابداء وجعله متعلقا بامر الساعة كما قيل فيأباه السياق .

وقرأ عبد الوارث عن أبى عمرو (تؤفكون) بتاء الخطاب ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ٨٨﴾ بجر (قيله) وهى قراءة عاصم . وحمزة . والسلمى . وابن وثاب : والأعمش .

وقرأ الاعرج . وأبو قلابة . ومجاهد . والحسن . وقتادة . ومسلم بن جندب برفعه وهى قراءة شاذة .

وقرأ الجمهور بنصبه، واختلف فى التخريج فقيل الجر على عطفه على لفظ الساعة فى قوله تعالى (وعنده علم الساعة) أى عنده علم قيله ، والنصب على عطفه على محلها لأنها فى محل نصب بعلم المضاف اليها فانه كما قدمنا مصدر مضاف لمفعوله فكأنه قيل : يعلم الساعة ويعلم قيله، والرفع على عطفه على (علم الساعة) على حذف مضاف والاصل وعلم قيله فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ونسب الوجه الأول لابى على والثالث لابن جنى وجميع الاوجه للزجاج وضمير (قيله) عليها للرسول صلى الله تعالى عليه المفهوم من قوله تعالى (ولئن سألتهم) والقيل والقال والقول مصادر جاءت بمعنى واحد ، والمنادى ومافى حيزه مقول القول، والكلام خارج مخرج التحسر والتحزن والتشكى من عدم ايمان أولئك القوم ، وفى الاشارة اليهم بهؤلاء دون قوله قومى ونحوه تحقير لهم وتبر منهم لسوء حالهم، والمراد من اخباره تعالى بعلمه ذلك وعيده سبحانه اياهم، وقيل: الجر على اضمار حرف القسم والنصب على حذفه وايصال فعله اليه محذوفا والرفع على نحو لعمرك لأفعلن واليه ذهب الزمخشرى وجعل المقول يارب وقوله سبحانه (إن هؤلاء) الخ جواب القسم على الاوجه الثلاثة وضمير (قيله) كما سبق، والكلام اخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون وإقسامه سبحانه عليه بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : يارب لرفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتعظيم دعائه والتجائه اليه تعالى، والواو عنده للعطف أعنى عطف الجملة القسمية على الجملة الشرطية لكن لما كان القسم بمنزلة الجملة الاعتراضية صارت الواو كالمضمحل عنها معنى العطف ، وفيه أن الحذف الذى تضمنه تخريجه من ألفاظ شاع استعمالها فى القسم كعمرك وايمن الله واضح الوجه على الاوجه الثلاثة ، وأما فى غيرها كالقيل هنا فلا يخلو عن ضعف، وقيل: الجر على أن الواو واو القسم والجواب محذوف أى لننصرنه أو لنفعلن بهم مانشاء حكاه فى البحر وهو كما ترى ، وقيل: النصب على العطف على مفعول يكتبون المحذوف أى يكتبون أقوالهم

وأفعالهم وقيله يارب الخ وليس بشيء ، وقيل: هو على العطف على مفعول يعلمون أعنى الحق أى يعلمون الحق وقيل الخ ، وهو قول لايكاد يعقل ، وعن الاخفش أنه على العطف على (سرهم ونجواهم) ورد بأنه ليس بقوى فى المعنى مع وقوع الفصل بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم. وتعقب أن ماذكر من الفصل ظاهر وأما ضعف المعنى وتنافر النظم فغير مسلم لأن تقديره أم يحسبون انا لانسمع سرهم ونجواهم وانا لانسمع قيله الخ وهو منتظم أتم انتظام ، وعنه أيضا أنه على اضمار فعل من القيل ناصب له على المصدرية والتقدير قال قيله ويؤيده قراءة ابن مسعود (وقال الرسول) والجملة معطوفة على ما قبلها . ورد بأنه لايظهر فيه مايحسن عطفه على الجملة قبله وليس التأكيد بالمصدر فى موقعه ولا ارتباط لقوله تعالى: (فاصفح) به ، وقال العلامة الطيبى: فى توجيهه إن قوله تعالى: (ولئن سألتهم) تقديره وقلنا لك: ولئن سألتهم الخ وقلت: يارب يأسا من إيمانهم وانما جعل غائبا على طريق الالتفات لأنه كأنه صلى الله تعالى عليه وسلم فاقد نفسه للتحزن عليهم حيث لم ينفع فيهم سعيه واحتشاده، وقيل: الواو على هذا الوجه للحال وقال بتقدير قد والجملة حالية أى فانى يؤفكون وقد قال الرسول يارب الخ، وحاصله فانى يؤفكون وقد شكا الرسول عليه الصلاة والسلام اصرارهم على الكفر وهو خلاف الظاهر ، وقيل: الرفع على الابتداء والخبر يارب الى لا يؤمنون أو هو محذوف أى مسموع أو متقبل فجملة النداء وما بعده فى موضع نصب بقيله والجملة حال أو معطوفة، ولا يخفى ما فى ذلك ، والاوجه عندى مانسب الى الزجاج، والاعتراض عليه بالفصل هين، وبضعف المعنى والتنافر غير مسلم، فنى الكشف بعد ذكر تخريج الزجاج الجرأن الفاصل أعنى من قوله تعالى (واليه ترجعون ـ الى ـ يؤفكون) يصلح اعتراضا لأن قوله سبحانه (وعنده علم الساعة) مرتبط بقوله تعالى: (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) على ما لا يخفى ، والكلام مسوق للوعيد البالغ بقوله تعالى: (واليه ترجعون) الى قوله عزوجل: (وهم يعلمون) متصل بقوله تعالى: (وعنده علم الساعة) اتصال العصا بلحاها، وقوله تعالى (ولئن سألتهم) خطاب لمن يتأتى منه السؤال تتميم لذلك الكلام باستحقاقهم ما أوعدوه لعنادهم البالغ ، ومنه يظهر وقوع التعجب فى قوله سبحانه (فأنى يؤفكون) وعلى هذا ظهر ارتباط وعلم قيله بقوله تعالى: (وعنده علم الساعة) وأن الفاصل متصل بهما اتصالا يحل موقعه، ومن هذا التقرير يلوح أن ماذهب اليه الزجاج فى الاوجه الثلاثة حسن ، ولك أن ترجحه على ماذهب اليه الاخفش بتوافق القراءتين، وأن حمل (ولئن سألتهم) على الخطاب المتروك الى غير معين أوفق بالمقام من حمله على خطابه عليه الصلاة والسلام وسلامته من اضمار القول قبل قوله تعالى: (ولئن سألتهم) مع أن السياق غير ظاهر الدلالة عليه اه ، وهو أحسن ما رأيته للمفسرين فى هذا المقام . وقرأ أبو قلابة (يارب) بفتح الباء ووجه ظاهر ﴿فَاصْفَحْ﴾ فأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ ولاتطمع فى ايمانهم ، وأصل الصفح لى صفحة العنق فكنى به عن الاعراض ☼

﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلَامٌ﴾ أى امرى سلام تسلم منكم ومتاركة فليس ذلك امرا بالسلام عليهم والتحية وإنما هو امر بالمتاركة، وحاصله إذا أبيتم القبول فأمرى التسلم منكم، واستدل بعضهم بذلك على جواز السلام على الكفار وابتدائهم بالتحية ، اخرج ابن أبى شيبة . عن شعيب بن الحبحاب قال: كنت مع على بن عبد الله البارقى فمر علينا يهودى او نصرانى فسلم عليه قال شعيب: فقلت: إنه يهودى او نصرانى فقرأ على آخر سورة الزخرف (وقيله يارب) إلى الآخر ، وأخرج ابن أبى شيبة أيضا عن عون بن عبد الله أنه قال قلت لعمر بن عبد العزيز كيف

تقول أنت فى ابتداء أهل الذمة بالسلام؟ فقال: ماارى بأسا أن نبتدئهم. قلت لم؟ قال: لقوله تعالى: (فاصفح عنهم وقل سلام) ومما ذكرنا يعلم ضعفه ، وقال السدى: المعنى قل خيرا بدلا من شرهم ، وقال مقاتل: اردد عليهم معروفا، وحكى الماوردى أى قل ماتسلم به من شرهم والكل كما ترى والحق ماقدمنا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٨٩﴾ حالهم السيئة وإن تأخر ذلك وهو وعيد من الله سبحانه لهم وتسلية لرسوله ﷺ ، وقرأ أبو جعفر . والحسن . والاعرج . ونافع . وهشام (تعلمون) بتاء الخطاب على أنه داخل فى حيز (قل) وإن أريد من الآية الكف عن القتال فهى منسوخة وإن أريد الكف عن مقاباتهم بالكلام فليست بمنسوخة والله تعالى أعلم ●

سورة الزخرف

مكية بإجماع. وقال مقاتل: إلا قوله ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾[١]. وهي تسع وثمانون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿حمٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾.

[٣] ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿حم. والكتاب المبين﴾ تقدّم[٢] الكلام فيه. وقيل: ﴿حم﴾ قسم. ﴿والكتاب المبين﴾ قسم ثانٍ؛ ولله أن يقسم بما شاء. والجواب ﴿إنا جعلناه﴾. وقال ابن الأنباري: من جعل جواب ﴿والكتاب﴾ ﴿حم﴾ ـ كما تقول نزل والله وَجَب والله ـ وقف على ﴿الكتاب المبين﴾. ومن جعل جواب القسم ﴿إنا جعلناه﴾ لم يقف على ﴿الكتاب المبين﴾. ومعنى ﴿جعلناه﴾ أي سميناه ووصفناه؛ ولذلك تعدّى إلى مفعولين؛ كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾[٣]. وقال السدي: أي أنزلناه قرآناً. مجاهد: قلناه. الزجاج وسفيان الثَّوْري: بيّناه. ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلسان العرب؛ لأن كل نبيّ أنزل كتابه بلسان قومه؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وقال مقاتل: لأن لسان أهل السماء عربيّ. وقيل: المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربياً. والكناية في قوله: ﴿جعلناه﴾ ترجع إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفهمون أحكامه ومعانيه. فعلى هذا القول يكون خاصاً للعرب دون العجم؛ قاله ابن عيسى. وقال ابن زيد: المعنى لعلكم تتفكرون؛ فعلى هذا يكون خطاباً عاماً للعرب والعجم. ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه؛ على ما تقدّم في غير موضع.

---

(١) آية ٤٥. (٢) راجع / ١٥ ٢٨٩. (٣) آية ١٠٣ سورة المائدة.

[٤] ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكتَابِ﴾ يعني القرآن في اللوح المحفوظ ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا ﴿لَعَليٌّ حَكيمٌ﴾ أي رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[١] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ[٢] مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾. وقال ابن جريج: المراد بقوله تعالى: ﴿وإنه﴾ أي أعمال الخالق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية. ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي رفيع عن أن ينال فيبدّل ﴿حَكِيمٌ﴾ أي محفوظ من نقص أو تغيير. وقال ابن عباس: أوّل ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق؛ فالكتاب عنده، ثمّ قرأ ﴿وإِنَّهُ في أُمِّ الْكتَاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. وكسرَ الهمزةَ من ﴿أم الكتاب﴾ حمزة والكسائي. وضم الباقون، وقد تقدّم[٣].

[٥] ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾ يعني: القرآن؛ عن الضحاك وغيره. وقيل: المراد بالذكر العذاب؛ أي أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدي، ورواه العَوْفِي عن ابن عباس. وقال ابن عباس: المعنى أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به. وعنه أيضاً أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون. وقال السدي أيضاً: المعنى أفنترككم سُدًى فلا نأمركم ولا ننهاكم . وقال قتادة : المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم. وعنه أيضاً: أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم . وقاله ابن زيد . قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته . وقال الكسائي: أفنطوي عنكم الذكر طَيًّا فلا توعظون ولا تؤمرون. وقيل: الذكر التذكر؛ فكأنه قال أنترك تذكيركم لأن كنتمّ قوماً مسرفين؛ في قراءة من فتح. ومن كسر جعلها للشرط

---

(١) آية ٧٧ سورة الواقعة. (٢) آية ٢١ سورة البروج.
(٣) راجع ٥/ ٧٢.

وما قبلها جواباً لها؛ لأنها لم تعمل في اللفظ. ونظيره ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ منَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١] وقيل: الجواب محذوف دل عليه ما تقدّم؛ كما تقول: أنت ظالم إن فعلت. ومعنى الكسر عند الزجاج الحال؛ لأن في الكلام معنى التقرير والتوبيخ. ومعنى ﴿صَفْحاً﴾ إعراضاً؛ يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه. وقد ضربت عنه صفحاً إذا أعرضت عنه وتركته. والأصل فيه صفحة العنق؛ يقال: أعرضت عنه أي وليته صفحة عنقي. قال الشاعر[٢]:

صفُوحاً فما تلقاك إلا بخيلَةً ... فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّتِ

وانتصب ﴿صَفْحا﴾ على المصدر لأن معنى ﴿أفنضرب﴾ أفنصفح. وقيل: التقدير أفنضرب عنكم الذكر صافحين، كما يقال: جاء فلان مَشْياً. ومعنى ﴿مُسْرِفِينَ﴾ مشركين. واختار أبو عبيدة الفتح في ﴿أنْ﴾ وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وابن عامر، قال: لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم.

[٦] ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

[٧] ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

[٨] ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأوّلينَ ﴾ ﴿ كم ﴾ هنا خبرية والمراد بها التكثير؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيونٍ ﴾[٣] أي ما أكثر ما تركوا. ﴿ وَمَا يَأتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ أي لم يكن يأتيهم نبي ﴿ إلاّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك. يعزي نبيّه محمداً ﷺ ويسلّيه. ﴿ فَأهْلَكْنَا أشَدّ مِنْهُمْ بَطْشاً ﴾ أي قوماً أشدّ منهم قوّة. والكناية في ﴿ منهم ﴾ ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله: ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ فكنّى عنهم بعد أن خاطبهم. و ﴿أشدّ﴾ نصب على الحال. وقيل هو مفعول؛ أي فقد أهلكنا

---

(١) آية ٢٧٨ سورة البقرة. (٢) هو كثير عزة. (٣) آية ٢٥ سورة الدخان.

أقوى من هؤلاء المشركين في أبدانهم وأتباعهم. ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأوّلِينَ﴾ أي عقوبتهم؛ عن قتادة. وقيل: صفة الأولين؛ فخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم؛ حكاه النقاش وَالمَهْدَوِيّ. والْمَثَلُ: الوصف والخبر.

[٩] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني المشركين. ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ العَلِيمُ﴾ فأقرّوا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم. وقد مضى في غير[١] موضع.

[١٠] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مِهَاداً﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة. وهذا ابتداء إخبارٍ منه عن نفسه، ولو كان هذا إخباراً عن قول الكفار لقال الذي جعل لنا الأرض. ﴿مهادا﴾ فراشاً وبساطاً. وقد تقدّم[٢]. وقرأ الكوفيون ﴿مَهْداً﴾ ﴿وجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أي معايش. وقيل طرقا، لتسلكوا منها إلى حيث أردتم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته. وقيل: ﴿لعلكم تهتدون﴾ في أسفاركم؛ قاله ابن عيسى. وقيل: لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: تهتدون إلى معايشكم.

[١١] ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ قال ابن عباس: أي لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة، حتى

---

(١) راجع ٦/ ٣٨٤ وما بعدها.
(٢) راجع ١١/ ٢٠٩.

يكون معاشا لكم ولأنعامكم. ﴿فأَنْشَرْنَا﴾ أي أحيينا. ﴿به﴾ أي بالماء. ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ أي مقفرة من النبات. ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي من قبوركم؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾ مجوّدا[1]. وقرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وابن ذَكْوان عن ابن عامر ﴿يَخْرُجون﴾ بفتح الياء وضم الراء. الباقون على الفعل المجهول.

[١٢] ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ﴾ أي واللَّهُ الذي خلق الأزواج. قال سعيد بن جبير: أي الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أراد أزواج النبات؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2] و ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ[3] كَرِيمٍ﴾. وقيل ما يتقلّب فيه الإنسان من خير وشر، وإيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم.

قلت: وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ﴾ السفن ﴿وَالأنْعَامِ﴾ الإبل ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البر والبحر. ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ ذكّر الكناية لأنه ردّه إلى ما في قوله ﴿ما تركبون﴾؛ قاله أبو عبيد. وقال الفَرّاء: أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند؛ فلذلك ذَكّر، وجَمَع الظهور، أي على ظهور هذا الجنس.

---

(١) راجع ٧/ ٢٣٠. (٢) آية ٧ سورة ق.
(٣) آية ٧ سورة الشعراء.

الثانية ـ قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها؛ وهو الصحيح لقوله عليه السلام: «بينما رجلٌ راكب بقرة إذ قالت له لَمْ أخلق لهذا إنما خلقت للحرث» فقال النبيّ ﷺ: «آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر». وما هما[١] في القوم. وقد مضى هذا في أوّل سورة ﴿النحل﴾[٢] مستوفًى والحمد لله.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ يعني به الإبل خاصة بدليل ما ذكرنا، ولأن الفلك إنما تركب بطونها، ولكنه ذكّرهما جميعاً في أوّل الآية وعطف آخرها على أحدهما. ويحتمل أن يجعل ظاهرهما باطنهما؛ لأن الماء غمره وستره وباطنهما ظاهراً؛ لأنه ٱنكشف للظاهرين وظهر للمبصرين.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ركبتم عليه. وذِكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا في البر والبحر. ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي ذلّل لنا هذا المركب. وفي قراءة عليّ بن أبي الطالب ﴿سبحان من سخر لنا هذا﴾. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين؛ في قول ٱبن عباس والكلبي. وقال الأخفش وأبو عبيدة: ﴿مقرنين﴾ ضابطين. وقيل: مماثلين في الأيد والقوّة؛ من قولهم: هو قِرْن فلان إذا كان مثله في القوّة. ويقال: فلان مُقْرِن لفلان أي ضابط له. وأقرنت كذا أي أطقته. وأقرن له أي أطاقه وقوِيَ عليه؛ كأنه صار له قِرْنا. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين. وأنشد قُطْرُب قول عمرو بن مَعْدِيكَرِب:

لقد علم القبائل ما عُقيلٌ ... لنا في النائبات بمقرنينا

وقال آخر:

ركبتم صَعْبَتي أشَراً وحَيْفاً ... ولستم للصّعاب بمقرنينا

والمُقْرِن أيضاً: الذي غلبته ضَيعته؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها، أو يكون يسقِي إبله ولا ذائد له يذودها. قال ٱبن السِّكّيت: وفي أصله قولان: **أحدهما** ـ أنه مأخوذ من الإقران؛ **يقال**: أقرنَ يقرن إقراناً إذا أطاق. وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته؛ كأنه جعله

(١) أي أبو بكر وعمر لم يكونا حاضرين.   (٢) راجع ١٠/ ٧٢.

في قرن ـ وهو الحبل ـ فأوثقه به وشدّه. **والثاني** ـ أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض في السير؛ يقال: قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه.

الخامسة ـ علمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب، وعرّفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن؛ وهي قوله تعالى: ﴿وقال ٱرْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيها ومُرْساها إنّ رَبِّي لغفورٌ رحِيمٌ﴾[1] فكم من راكب دابة عثَرَت به أو شَمَسَتْ أو تَقَحّمت[2] أو طاح من ظهرها فهلك[3]. وكم من راكبين في سفينة ٱنكسرت بهم فغرِقوا. فلما كان الركوب مباشرةَ أمرٍ محظور وٱتصالاً بأسباب من أسباب التلف أمر ألا ينسى عند ٱتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه. ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه. والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه. حكى سليمان بن يسار أن قوماً كانوا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا: ﴿سبحان الذي سَخّر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنين﴾ وكان فيهم رجل على ناقة له رازم ـ وهي التي لا تتحرّك هزالا[4] ـ فقال: أمّا أنا فإنّي لهذه لمقرِن، قال: فقمصت به فدقت عنقه. وروي أن أعرابياً ركب قعوداً له وقال إني لمقرن له فركضت به القعود[5] حتى صرعته فٱندقّت عنقه. ذكر الأوّل الماوردي والثاني ٱبن العربي. قال: وما ينبغي لعبد أن يدع قول هذا وليس بواجب ذكره باللسان؛ فيقول متى ركب وخاصة في السفر إذا تذكر: ﴿سبحانَ الذي سَخَّر لنا هذا وما كُنَّا له مُقْرنين. وإنَّا إلى رَبِّنَا لمُنْقَلِبُونَ﴾ اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر، وكآبة المنقلَب، والجَوْر بعد الكَوْر، وسوء المنظر في الأهل والمال. يعني بـ «ـالجور بعد الكور» تشتت أمر الرجل بعد ٱجتماعه. وقال عمرو بن دِينار: ركبت مع أبي جعفر إلى أرضٍ له نحو حائط يقال لها مدركة، فركب

(١) آية ٤١ سورة هود. (٢) تقحم الفرس براكبه ألقاه على وجهه.

(٣) في الأصول فهلكت. (٤) وجد على هامش نسخة من الأصل بخط ناسخه: «الرازم من الإبل: الثابت على الأرض الذي لا يقوم من الهزال. وقد رزمت الناقة ترزُم وترزِم رزوماً ورُزاما قامت من الإعياء والهزال فلم تَتَحرّك فهي رازم. قاله الجوهري في الصحاح».

(٥) هذه عبارة ابن العربي والأصول: ويلاحظ أن القعود مذكر.

على جمل صَعْب فقلت له: أبا جعفر! أما تخاف أن يصرعك؟ فقال إن رسول الله ﷺ قال: «على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا ٱسم الله كما أمركم ثم ٱمتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله». وقال عليّ بن ربيعة: شهدت عليّ بن أبي طالب ركب دابة يوماً فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فلما ٱستوى على الدابة قال الحمد لله، ثم قال: ﴿سبحان الذي سَخّرَ لنا هذا وما كنا له مُقْرِنين. وإنا إلى ربنا لمُنْقَلِبونَ﴾ ثم قال: الحمد لله والله أكبر ـ ثلاثاً ـ اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ ثم ضحك فقلت له: ما أضحكك؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعتُ، وقال كما قلت؛ ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «العبد ـ أو قال ـ عجباً لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فٱغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره». خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، وأبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد في أحكامه. وذكر الثعلبيّ نحوه مختصراً عن عليّ رضي الله عنه، ولفظه عنه: أن النبيّ ﷺ كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «باسم الله ـ فإذا استوى قال ـ الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين». وروى ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد قال: من ركب ولم يقل ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ قال له الشيطان تَغَنّه؛ فإن لم يحسن قال له تمنّه؛ ذكره النحاس. ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلّ طِلاهم[1] وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم، لا يذكرون إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامره. الزَّمَخْشَرِيّ: ولقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر، فلم يَصْحُ إلا بعد ما ٱطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به؛ فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية!؟

(١) الطلاء: ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه. وبعض العرب يسمي الخمر الطلاء؛ يريد بذلك تحسين اسمها.

[١٥] ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا له مِن عِبادِهِ جُزْءاً﴾ أي عِدْلاً؛ عن قتادة. يعني ما عبد من دون الله عز وجل. الزجاج والمبرد: الجزء هاهنا البنات؛ عجّب المؤمنين من جهلهم إذ أقرّوا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به؛ لأن هذا من صفات النقص. قال الماوردي: والجزء عند أهل العربية البنات؛ يقال: قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات؛ قال الشاعر:

إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عجبٌ قد تجزىء الحُرَّةُ المِذكار أحياناً

الزمخشريّ: ومن بِدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث، وادّعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدَث متحوّل، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتاً، وبيتاً:

إن أجزأت حرة يوما فلا عجب
زُوِّجْتُها من بنات الأوْسِ مُجزِئة[(١)]

وإنما قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾ متصل بقوله: ﴿ولئن سَأَلْتَهمْ﴾ أي ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى ﴿مِن عِبادِهِ جُزْءاً﴾ أن قالوا الملائكة بنات الله؛ فجعلوهم جزءاً له وبعضاً، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءاً له. وقرىء ﴿جزؤا﴾ بضمتين. ﴿إنَّ الإنْسَانَ﴾ يعني الكافر. ﴿لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ قال الحسن: يعدّ المصائب وينسى النعم. ﴿مُبِينٌ﴾ مظهر الكفر.

---

(١) وتمامه كما في اللسان مادة جزأ:

للعوسج اللدن في أبياتها زجل

[١٦] ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ الميم صلة؛ تقديره أتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ. ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ أي اختصكم وأخلصكم بالبنين؛ يقال: أصفيته بكذا؛ أي آثرته به. وأصفيته الودّ أخلصته له. وصافيته وتصافينا تخالصنا: عجب من إضافتهم إلى الله اختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين؛ وهو مقدّس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه اتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس؟ وهذا كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ[١] وَلَهُ الأنثى. تِلك إذا قِسمةٌ ضِيزَى﴾.

[١٧] ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ أي بأنه ولدت له بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ أي صار وجهه ﴿مُسْوَدًّا﴾ قيل ببطلان مَثَله الذي ضربه. وقيل: بما بُشِّر به من الأنثى؛ دليله في سورة النحل ﴿وإذا بُشِّرَ أحدُهم بِالأنثى[٢]﴾. ومِن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم واربدّ وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب. وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزة[٣] لا يأتينا يَظَلّ في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا وإنما نأخذ ما أعطينا

وقرىء ﴿مسودٌ، ومسوادٌّ﴾. وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه اسم ﴿ظل﴾ و﴿مسودا﴾ خبر ﴿ظل﴾. ويجوز أن يكون في ﴿ظل﴾ ضمير عائد على أحد وهو اسمها، و ﴿وجهه﴾

(١) آية ٢١ سورة النجم. (٢) راجع ١١٦/١٠.
(٣) في رواية «جمرة» بالجيم. وفي بلوغ الأرب للألوسي: «لأبي الذلفاء».

بدل من الضمير. و ﴿مسوداً﴾ خبر ﴿ظل﴾. ويجوز أن يكون رفع ﴿وجهه﴾ بالابتداء، ويرفع ﴿مسوداً﴾ على أنه خبره، وفي ﴿ظل﴾ ٱسمها والجملة خبرها. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي حزين؛ قاله قتادة. وقيل مكروب؛ قاله عكرمة. وقيل ساكت؛ قاله ابن أبي حاتم؛ وذلك لفساد مَثَله وبطلان حجته. ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شِبهاً لِلَّه؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه. ومن اسودّ وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه؛ فكيف إلى الله عز وجل وقد مضى في ﴿النحل﴾ في معنى هذه الآية ما فيه كفاية[1].

[١٨] ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

[١٩] ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ﴾ فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأ﴾ أي يُرَبَّى ويَشِبّ. والنُّشوء: التربية؛ يقال: نشأت في بَني فلان نَشْأً ونشوءاً إذا شَبَبْت فيهم. ونُشِّىء وأنشىء بمعنًى. وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وَثّاب وحفص وحمزة والكسائي وخَلَف ﴿يُنَشّأ﴾ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ أي يربى ويَكْبَر في الحِلْية. وٱختاره أبو عبيد؛ لأن الإسناد فيها أعلى. وقرأ الباقون ﴿يَنْشأ﴾ بفتح الياء وإسكان النون، وٱختاره أبو حاتم؛ أي يرسخ وينبت؛ وأصله من نشأ أي ارتفع؛ قاله الهَرَوِيّ. فـ ﴿يُنَشّأ﴾ متعد، و ﴿ينشأ﴾ لازم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿فِي الحِلْيَةِ﴾ أي في الزينة. قال ابن عباس وغيره: هنّ الجواري زِيُّهن غير زيّ الرجال. قال مجاهد: رُخّص للنساء في الذهب والحرير؛ وقرأ هذه الآية. قال الكِيا: فيه دلالة على إباحة الحُلِيّ للنساء، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى.

(١) راجع ١٠/١١٦.

قلت: روي عن أبي هريرة أنه كان يقول لابنته: يا بنيّة، إياك والتحلّي بالذهب! فإني أخاف عليك اللهب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي في المجادلة والإدلاء بالحجة. قال قتادة: ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها. وفي مصحف عبد الله ﴿وهو في الكلام غير مبين﴾. ومعنى الآية: أيضاف إلى الله من هذا وصفه! أي لا يجوز ذلك. وقيل: المنشّأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة وحلّوْها؛ قاله ابن زيد والضحاك. ويكون معنى ﴿وهو في الخصام غير مبين﴾ على هذا القول: أي ساكت عن الجواب. و ﴿مَن﴾ في محل نصب؛ أي اتخذوا لله من ينشأ في الْحِلية. ويجوز أن يكون رفعاً على الابتداء والخبر مضمر؛ قاله الفَرّاء. وتقديره: أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة. وإن شئت قلت خفض رداً إلى أوّل الكلام وهو قوله: ﴿بما ضَرَب﴾، أو على ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مما يخلق بنات ﴾. وكون البدل في هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلة بين البدل والمبدل منه. ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثاً﴾ قرأ الكوفيون ﴿ عباد ﴾ بالجمع . واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذبهم في قولهم إنهم بنات الله، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا ببناته. وعن ابن عباس أنه قرأ ﴿ عُبّاد الرحمن ﴾، فقال سعيد بن جبير: إن في مصحفي ﴿ عبد الرحمن ﴾ فقال : امحها واكتبها ﴿ عباد الرحمن ﴾ . وتصديق هذه القراءة قولُه تعالى: ﴿ بل عِبادٌ مُكْرَمُونَ ﴾[(١)] . وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾[(٢)] . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[(٣)] . وقرأ الباقون ﴿ عند الرحمن ﴾ بنون ساكنة ، واختاره أبو حاتم . وتصديق هذه القراءة قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾[(٤)] وقولُه ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَ هُ﴾[(٥)]. والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم

(١) آية ٢٦ سورة الأنبياء.
(٢) آية ١٠٢ سورة الكهف.
(٣) آية ١٩٤ سورة الأعراف.
(٤) آخر سورة الأعراف.
(٥) آية ١٩ سورة الأنبياء.

في نسبة الأولاد إلى الله سبحانه، ثم في تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله. وذِكر العباد مدح لهم؛ أي كيف عبدوا من هو في نهاية العبادة، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل. والجعل هنا بمعنى القول والحُكْم؛ تقول: جعلت زيداً أعلم الناس؛ أي حكمت له بذلك. ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث. وقيل: إن النبيّ ﷺ سألهم وقال: «فما يدريكم أنهم إناث»؟ فقالوا: سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا في أنهم إناث، فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ أي يسألون عنها في الآخرة. وقرأ نافع ﴿أَؤُشْهِدوا﴾[1] بهمزة ٱستفهام داخلة على همزة مضمومة مسهّلة، ولا يمدّ سوى ما روى المسيّبي عنه أنه يمدّ. وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقّق الهمزتين. والباقون ﴿أشهِدوا﴾ بهمزة واحدة للاستفهام. وروي عن الزهري ﴿أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ على الخبر، ﴿ستكتب﴾ قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول ﴿شهادتهم﴾ رفعاً. وقرأ السُّلمِي وأبن السَّمَيْقَع وهُبيرة عن حفص ﴿سنكتب﴾ بنون، ﴿شهادتهم﴾ نصباً بتسمية الفاعل. وعن أبي رجاء ﴿ستكتب شهاداتهم﴾ بالجمع.

[٢٠] ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾ يعني قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرحمن على زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل . وكل شيء بإرادة الله ، وإرادتُه تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم يقع . ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ما حصل منهم. وقد مضى هذا المعنى في الأنعام عند قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾[2] وفي يس: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾[3]. وقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مردود إلى

(١) رسمناها هكذا تصويراً للنطق. (٢) راجع ٧/١٢٨. (٣) راجع ١٥/٣٧.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ أي ما لهم بقولهم: الملائكة بنات الله؛ من علم؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي: وقال مجاهد وابن جريج: يعني الأوثان؛ أي مالهم بعبادة الأوثان من علم. ﴿مِن﴾ صلة. ﴿إِنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أي يَخدِسون ويكذبون؛ فلا عذر لهم في عبادة غير الله عز وجل. وكان في ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضي ذلك منا، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة.

[٢١] ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

هذا معادل لقوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾. والمعنى: أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتاباً من قبله؛ أي من قبل القرآن بما ادعوه؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه.

[٢٢] ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بن عبد العزيز. وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة ﴿على إِمّةٍ﴾ بكسر الألف. والأمّة الطريقة. وقال الجوهري: والإمة (بالكسر): النعمة. والإمّة أيضاً لغة في الأُمّة، وهي الطريقة والدّين؛ عن أبي عبيدة. قال عَدِيّ بن زيد في النعمة:

ثــم بعــد الفَــلَاح والمُلْــكِ والأمّــة وارتْهُـمُ هنـاك القبـور

عن غير الجوهري. وقال قتادة وعطية: ﴿على أمة﴾ على دِين؛ ومنه قول قيس بن الْخَطِيم:

كنــا علــى أمّــة آبــائنــا ويقتــدي الآخــر بــالأوّل

قال الجوهري: والأمّة الطريقة والدِّين، يقال: فلان لا أمة له؛ أي لا دين له ولا نِحْلة. قال الشاعر:

وهــــل يستــــوي ذو أمّــــة وكَفُــــورُ

وقال مجاهد وقطرب: على دين على ملة. وفي بعض المصاحف ﴿قالوا إنا وجدنا آباءنا على مِلة﴾ وهذه الأقوال متقاربة. وحكي عن الفرّاء على ملة على قِبْلة. الأخفش: على استقامة، وأنشد قول النابغة:

حَلَفْتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وهل يأثَمَنْ ذو أُمّة وهو طائع

الثانية ـ ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ﴾ أي نهتدي بهم. وفي الآية الأخرى ﴿مقتدون﴾ أي نقتدي بهم، والمعنى واحد. قال قتادة: مقتدون متبعون. وفي هذا دليل على إبطال التقليد؛ لذمّه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ. وقد مضى القول في هذا في ﴿البقرة﴾ مستوفًى(١). وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة بن ربيعة من قريش؛ أي وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلهم أيضاً. يُعَزّي نبيّه ﷺ؛ ونظيره: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَدْ قيل للرُّسُلِ مِنْ قَبْلِك﴾(٢). والمترَف: المنعَّم؛ والمراد هنا الملوك والجبابرة.

[٢٤] ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى﴾ أي قل يا محمد لقومك: أو ليس قد جئتكم من عند الله بأهدى؛ يريد بأرشد. ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني بكل ما أرسل به الرسل. فالخطاب للنبيّ ﷺ ولفظه لفظ الجمع؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه. وقرىء ﴿قل وقال وجئتكم وجئناكم﴾ يعني أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى. وقد مضى في ﴿البقرة﴾ القول في التقليد وذمه فلا معنى لإعادته(١).

(١) راجع ٢/٢١١ فما بعدها، طبعة ثانية. (٢) آية ٤٣ سورة فصلت.

[٢٥] ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا منهم﴾ بالقحط والقتل والسبي ﴿فانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ آخر أمر من كذب الرسل. [وقراءة العامة[1] ﴿قل أولو جئتكم﴾. وقرأ ابن عامر وحفص ﴿قال أوَلَوْ﴾ على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة. وقرأ أبو جعفر ﴿قل أولو جئناكم﴾ بنون وألف؛ على أن المخاطبة من رسول الله ﷺ عن جميع الرسل].

[٢٦] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.
[٢٧] ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي ذكّرهم إذ قال: ﴿إِبْرَاهِيمُ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يثنّى ولا يجمع ولا يؤنث؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت؛ لا يقال: البراءان والبراءون؛ لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء. قال الجوهري: وتبرّأت من كذا، وأنا منه بَراء، وخَلاء منه، لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر في الأصل؛ مثل: سَمِع سَماعاً. فإذا قلت: أنا بريء منه وخَلِيّ ثنّيتَ وجمعت وأنّثت، وقلت في الجمع: نحن منه بُرَآء مثل فقيه وفقهاء، وبِراء أيضاً مثل كريم وكِرام، وأبراء مثل شريف وأشراف، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء، وبريئون. وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات وبرايا. ورجل بريء وبُراء مثل عجيب وعجاب. والبَراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس. ﴿إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء متصل، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم. قال قتادة: كانوا يقولون الله ربنا؛ مع عبادة الأوثان. ويجوز أن يكون منقطعاً؛ أي لكن الذي فطرني فهو يهدين. قال ذلك ثقةً بالله وتنبيهاً لقومه إن الهداية من ربه.

[٢٨] ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) ما بين المربعين مقحم من الآية السابقة.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ الضمير في ﴿جعلها﴾ عائد على قوله ﴿إلا الذي فطرني﴾. وضمير الفاعل في ﴿جعلها﴾ لله عز وجل؛ أي وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية في عقبه، وهم ولده وولد ولده؛ أي إنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضاً في ذلك. والعقب من يأتي بعده. وقال السدي: هم آل محمد ﷺ. وقال ابن عباس: قوله ﴿في عقبه﴾ أي في خلفه. وفي الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها كلمة باقية في عقبه. أي قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله. قال مجاهد وقتادة: الكلمة لا إله إلا الله. قال قتادة: لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة. وقال الضحاك: الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله. عكرمة: الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[١]. القرظي: وجعل وصية إبراهيم التي وصى بها بنيه وهو قوله: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ ـ الآية المذكورة في ﴿البقرة﴾[٢] ـ كلمةً باقية في ذريته وبنيه. وقال ابن زيد: الكلمة قوله: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ وقرأ ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾. وقيل: الكلمة النبوّة. قال ابن العربي: ولم تزل النبوّة باقية في ذرية إبراهيم. والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم.

الثانية ـ قال ابن العربي: إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين؛ **إحداهما** ـ في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قال وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قال لا يَنَالُ عَهْدِي الظالِمين﴾[٣] فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد. **ثانيهما** ـ قوله: ﴿واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[٤]. وقيل: بل الأولى قوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِين﴾[٥] فكل أمة تعظمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو نوح.

الثالثة ـ قال ابن العربي: جرى ذكر العقب هاهنا موصولاً في المعنى، وذلك مما يدخل في الأحكام وترتب عليه عقود العُمْرَى[٦] والتحبيس. قال النبيّ ﷺ:

---

(١) آخر سورة الحج. (٢) آية ١٣٢. (٣) آية ١٢٤ سورة البقرة.
(٤) آية ٣٥ سورة إبراهيم. (٥) آية ٨٤ سورة الشعراء.
(٦) العمرى (كحبلى): تمليك الشيء مدّة العمر.

«أيُّمَا رَجُلٍ أُعْمِر عُمْرَى له ولعقِبه فإنها للذي أعطِيَها لا ترجع إلى الذي أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث». وهي تَرِد على أحد عشر لفظاً:

اللفظ الأوّل ـ الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وُجد من الرجل وامرأته في الإناث والذكور. وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعاً؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعيّن وأولاد الذكور من المعيّن دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين، ولذلك لم يدخلوا في الحبس بهذا اللفظ؛ قاله مالك في المجموعة وغيرها.

قلت: هذا مذهب مالك وجميع أصحابه المتقدّمين، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أولادِكم﴾[١]. وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس؛ يقول المحبِس: حبست على ولدي أو على عَقِبي. وهذا اختيار أبي عمر بن عبد البر وغيره؛ واحتجوا بقول الله جل وعز: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾[٢]. قالوا: فلما حَرَّم الله البنات فحرمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنها بنت ووجب أن تدخل في حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه. وقد مضى هذا المعنى في ﴿الأنعام﴾[٣] مستوفًى.

اللفظ الثاني ـ البنون؛ فإن قال: هذا حبس على ابني؛ فلا يتعدّى الولد المعين ولا يتعدّد. ولو قال ولدي، لتعدّى وتعدّد في كل من ولد. وإن قال على بنيّ، دخل فيه الذكور والإناث. قال مالك: من تصدّق على بنيه وبني بنيه فإن بناته وبنات بناته يدخلن في ذلك. روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن في ذلك مع بنات صلبه. والذي عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون في البنين. فإن قيل فقد قال النبيّ ﷺ في الحسن ابن ابنته: «إن ابني هذا سيّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». قلنا: هذا مجاز، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل في ولد بنته ليس بابني؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه؛

(١) آية ١١ سورة النساء. (٢) آية ٢٣ سورة النساء. (٣) راجع ٣١/٧.

لأن الحقائق لا تنفى عن منتسباتها[١]. ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه؛ ولذلك قيل في عبد الله بن عباس: إنه هاشمي وليس بهلالي وإن كانت أمه هلالية.

قلت: هذا الاستدلال غير صحيح، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة لوجود معنى الولادة فيه، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعالى: ﴿حرمت عليكم أمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿ومِنْ ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسليمان ـ إلى قوله ـ مِن الصالحِين﴾[٢] فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدّم بيانه هناك. فإن قيل فقد قال الشاعر:

بنـونـا بنـو أبنـائنـا، وبنـاتنـا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

قيل لهم: هذا لا دليل فيه؛ لأن معنى قوله إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب، وإن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك؛ إذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن؛ وقد يقول الرجل في ولده ليس هو بابني إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقاً، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه. ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولداً فقد أفسد معناه وأبطل فائدته، وتأول على قائله ما لا يصح؛ إذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابناً، ولا يسمى ولد الابنة ابناً؛ من أجل أن معنى الولادة التي اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى، لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة، وولد الابن إنما هو ولده بماله مما كان سبباً للولادة. ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده في «اللسان»، وإنما أخرجهم منه قياساً على الموارثة. وقد مضى هذا في «الأنعام»[٢] والحمد لله.

اللفظ الثالث ـ الذرية؛ وهي مأخوذة من ذرأ الله الخلق؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله: ﴿ومن ذُرِّيَّته داود وسليمان ـ إلى أن قال ـ وزكريا ويحيى وعيسى﴾. وإنما كان من ذريته من قبل أمه. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[٣] اشتقاق الذرية وفي ﴿الأنعام﴾ الكلام على ﴿ومن ذريته﴾ الآية؛ فلا معنى للإعادة.

---

(١) في نسخة من الأصل: «مشبهاتها». وفي ابن العربي «مسمياتها».
(٢) آية ٨٤ سورة الأنعام. راجع ٧/ ٣١. (٣) راجع ٢/ ١٠٧ طبعة ثانية.

اللفظ الرابع - العقب؛ وهو في اللغة عبارة عن شيء بعد شيء كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال: أعقب الله بخير؛ أي جاء بعد الشدّة بالرخاء. وأعقب الشيبُ السواد. وعَقَب يَعْقُب عقوباً وعَقْباً إذا جاء شيئاً بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل: عَقِبه. والمِعْقَاب من النساء: التي تلد ذكراً بعد أنثى، هكذا أبداً. وعقب الرجل: ولده وولد ولده الباقون بعده. والعاقبة الولد؛ قال يعقوب: في القرآن ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً في عَقِبِهِ﴾. وقيل: بل الورثة كلهم عَقِب. والعاقبة الولد؛ ولذلك فسره مجاهد هنا. وقال ابن زيد: هاهنا هم الذرية. وقال ابن شهاب: هم الولد وولد الولد. وقيل غيره على ما تقدّم عن السُّدي. وفي «الصحاح» والعقب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهي مؤنّثة. وعقب الرجل أيضاً ولده وولد ولده. وفيه لغتان: عَقِب وعَقْب (بالتسكين) وهي أيضاً مؤنثة، عن الأخفش. وعَقَب فلان مكان أبيه عاقبة أي خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى: ﴿ليس لِوَقْعَتِهَا كاذبة﴾[1]. ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد في المعنى. واختلف في الذرّية والنسل فقيل إنهما بمنزلة الولد والعقب؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك. وقيل: إنهم يدخلون فيهما. وقد مضى الكلام في الذرية هنا وفي ﴿الأنعام﴾[2].

اللفظ الخامس - نسلي؛ وهو عند علمائنا كقوله ولدي وولد ولدي؛ فإنه يدخل فيه ولد البنات. ويجب أن يدخلوا؛ لأن نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجه، ولم يقترن به ما يخصه كما اقترن بقوله عَقْبى ما تناسلوا. وقال بعض علمائنا: إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيه ولد البنات؛ إلا أن يقول المحبس نسلي ونسل نسلي، كما إذا قال عقبي وعقب عقبي. وأما إذا قال ولدي أو عقبي مفرداً فلا يدخل فيه البنات.

اللفظ السادس - الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع. قال ابن القاسم: هما سواء، وهم العَصَبة والإخوة والبنات والعمات، ولا يدخل فيه الخالات. وأصل أهل الاجتماعُ،

---

(١) آية ٢ سورة الواقعة.

(٢) راجع ٧/٣١.

يقال: مكانٌ آهل إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومن دخل في القُعْدَد[1] من النساء، والعصبة مشتقة منه وهي أخص به. وفي حديث الإفك: يا رسول الله، أَهْلُكَ! ولا نعلم إلا خيرا؛ يعني عائشة. ولكن لا تدخل فيه الزوجة بإجماع وإن كانت أصل التأهل؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربطها وينحل بالطلاق. وقد قال مالك: آل محمد كلُّ تقي؛ وليس من هذا الباب. وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فأشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة. وقد قال أبو إسحاق التونسي: يدخل في الأهل كل من كان من جهة الأبوين؛ فوفّى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال. وهذه المعاني إنما تبنى على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق؛ فهذان لفظان.

اللفظ الثامن ـ قرابة؛ فيه أربعة أقوال: **الأوّل ـ** قال مالك في كتاب محمد وابن عبدوس: إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالات. **الثاني ـ** يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه؛ قاله عليّ بن زياد. **الثالث ـ** قال أشهب: يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء. **الرابع ـ** قال ابن كنانة: يدخل فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت. وقد قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبَى﴾[2] قال: إلا أن تصِلوا قرابة ما بيني وبينكم. وقال: لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبيّ ﷺ قرابة؛ فهذا يضبطه والله أعلم.

اللفظ التاسع ـ العشيرة؛ ويضبطه الحديث الصحيح: إن الله تعالى لما أنزل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ﴾[3] دعا النبيّ ﷺ بطون قريش وسماهم ـ كما تقدّم ذكره ـ وهم العشيرة الأقربون؛ وسواهم عشيرة في الإطلاق. واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد، كما تقدّم من قول علمائنا.

---

(١) في الأصول: «ومن دخل في العقد» وفي ابن العربي: «ومن دخل في العقدة» وقد أثبتناه كما ترى استئناساً بما في «شرح الباجي» على الموطأ؛ وعبارته: «. . . ولا يدخل في ذلك الخالات. ومعنى ذلك عندي العصبة أو من كان في قعددهن من النساء». والقعدد (بضم أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه وفتحه): القربى.

(٢) آية ٢٣ سورة الشورى.

(٣) آية ٢١٤ سورة الشعراء راجع ١٣/ ١٤٣.

اللفظ العاشر ـ القوم؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء. والقوم يشمل الرجال والنساء؛ وإن كان الشاعر قد قال:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقـــوم آل حِصْـــن أم نســـاء

ولكنه أراد أن الرجل إذا دعا قومه للنصرة عنى الرجال، وإذا دعاهم للحُزْمة دخل فيهم الرجال والنساء؛ فتعمّمه الصفة وتخصّصه القرينة.

اللفظ الحادي عشـر ـ الموالي؛ قال مالك: يدخل فيه موالي أبيه وابنه مع مواليه. وقال ابن وهب: يدخل فيه أولاد مواليه. قال ابن العربي: والذي يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء؛ قال: وهذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسنة المبيّنة له؛ والتفريع والتتميم في كتاب المسائل، والله أعلم.

[٢٩] ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ وقرىء ﴿بل متعنا﴾. ﴿هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهَمْ﴾ أي في الدنيا بالإمهال. ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي محمد ﷺ بالتوحيد والإسلام الذي هو أصل دين إبراهيم. وهو الكلمة التي بقّاها الله في عقبه. ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ جاحدون. ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ﴾ أي هلاّ نزل ﴿هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ﴾

وقرىء ﴿على رَجْل﴾ بسكون الجيم. ﴿مِن الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي من إحدى القريتين؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي من أحدهما. أو على أحد رجلين من القريتين. القريتان: مكة والطائف. والرجلان: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبي جهل. والذي من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي؛ قاله قتادة. وقيل: عمير بن عبد يا لِيل الثقفي من الطائف، وعتبة بن ربيعة من مكة؛ وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس: أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي. وقال السدي: كنانة بن عبد بن عمرو. وروي أن الوليد بن المغيرة ـ وكان يسمى ريحانة قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل عليّ أو على أبي مسعود؛ فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوّة فيضعونها حيث شاءوا. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي أفقرنا قوماً وأغنينا قوماً؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوّض أمر النبوّة إليهم. قال قتادة: تلقاه ضعيف القوّة قليل الحيلة عَيِيّ اللسان وهو مبسوط له، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتَّرٌ عليه. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن في رواية عنه ﴿معايشهم﴾. وقيل: أي نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما عليّ وأنا قادر على نزع النّعمة عنهما؛ فأي فضل وقدر لهما. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي فاضلنا بينهم؛ فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرؤوس؛ قاله مقاتل. وقيل: بالحرية والرق؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل: بالغنى والفقر؛ فبعضهم غني وبعضهم فقير. وقيل: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ قال السدي وابن زيد: خَوَلاً وخدّاما، يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض. وقال قتادة والضحاك: يعنى ليملك بعضهم بعضاً. وقيل: هو من السخرِية التي بمعنى الاستهزاء؛ أي ليستهزىء الغني بالفقير. قال الأخفش: سَخِرت به وسَخِرت منه، وضَحِكت منه وضَحِكت به، وهَزِئت منه وبه؛ كلٌّ يقال. والاسم السُّخرِية (بالضم). والسُّخْرِيّ والسِّخْرِي (بالضم والكسر). وكل الناس ضمُّوا ﴿سخريا﴾ إلا ابن مُحَيْصِن ومجاهد فإنهما قرآ ﴿سِخريا﴾. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ

خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي أفضل مما يجمعون من الدنيا. ثم قيل: الرحمة النبوّة، وقيل الجنة. وقيل: تمام الفرائض خير من كثرة النوافل. وقيل: ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم.

[٣٣] ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قال العلماء: ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة وَدَرَجها ذهباً وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب؛ فيحمل ذلك على الكفر. قال الحسن: المعنى لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه؛ لهوان الدنيا عند الله عز وجل. وعلى هذا أكثر المفسرين ٱبن عباس والسدي وغيرهم. وقال ٱبن زيد: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في طلب الدنيا وٱختيارها على الآخرة ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ﴾. وقال الكسائي: المعنى لولا أن يكون في الكفار غنيٌّ وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها.

الثانية - قرأ ٱبن كثير وأبو عمرو ﴿سَقْفاً﴾ بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع ٱعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾. وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع؛ مثل رَهْن ورُهُن. قال أبو عبيد: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف؛ مثل كَثيب وكُثب، ورَغيف ورُغُف؛ قاله الفراء. وقيل: هو جمع سُقوف؛ فيصير جَمْعَ الجمع: سَقْف وسُقُوف، نحو فَلْس وفُلُوس. ثم جعلوا فُعُولا كأنه ٱسم واحد فجمعوه على فُعُل. وروي عن مجاهد ﴿سَقْفاً﴾ بإسكان القاف. وقيل: اللام في ﴿لبيوتهم﴾ بمعنى على؛ أي على بيوتهم. وقيل: بدل؛ كما تقول فعلت هذا لزيد لكرامته؛ قال الله تعالى ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحد مِنْهُمَا السُّدُس﴾ كذلك قال هنا ﴿لَجَعَلْنَا لمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِم﴾.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ يعني الدَرَج؛ قاله ابن عباس وهو قول الجمهور. واحدها مِعراج، والمِعراج السُلَّم؛ ومنه ليلة المعراج. والجمع معارج ومعاريج؛ مثل مفاتح ومفاتيح؛ لغتان. ﴿وَمعاريج﴾ قرأ أبو رجاء العُطَارِدِي وطلحة بن مُصَرِّف؛ وهي المراقي والسلاليم. قال الأخفس: إن شئت جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج؛ مثل مِرقاة ومَرقاة. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي على المعارج يرتقون ويصعدون؛ يقال: ظهرت على البيت أي علوت سطحه. وهذا لأن من علا شيئاً وارتفع عليه ظهر للناظرين. ويقال: ظهرت على الشيء أي علمته. وظهرت على العدوّ أي غلبته. وأنشد نابغة بني جعْدة رسول الله ﷺ قوله:

عَلَـوْنـا السمـاء عِـزّةً ومهـابـةً وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهراً[1]

أي مصعدا؛ فغضب رسول الله ﷺ وقال «إلى أين»؟ قال إلى الجنة؛ قال «أجل إن شاء الله». قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك! فكيف لو فعل؟!

الرابعة ـ استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لا حَقّ فيه لرب العُلْو؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها. وهذا مذهب مالك رحمه الله. قال ابن العربي: وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف وباب؛ فمن له البيت فله أركانه. ولا خلاف أن العلوّ له إلى السماء. واختلفوا في السفل؛ فمنهم من قال هو له، ومنهم من قال ليس له في باطن الأرض شيء. وفي مذهبنا القولان. وقد بيّن حديث الإسرائيلي الصحيح فيما تقدّم: أن رجلا باع من رجل داراً فبناها فوجد فيها جَرّة من ذهب، فجاء بها إلى البائع فقال: إنما اشتريت الدار دون الجَرّة، وقال البائع: إنما بعت الدار بما فيها؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبيّ ﷺ أن يزوّج أحدهما ولده من بنت

(١) رواية البيت كما في كتاب الأغاني ٥/٨ طبع دار الكتب المصرية:

بلغنـا السمـاء مجـدنـا وجـدودنـا

وروايته كما في جمهرة أشعار العرب:

بلغنـا السمـا مجـدا وجـودا وسـؤددا

وروايته كما في اللسان مادة «ظهر»:

بلغنـا السمـاء مجـدنـا وسنـاؤنـا

الآخر ويكون المال لهما. والصحيح أن العُلْو والسُّفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع؛ فإذا باع أحدهما أحد الموضعين فله منه ما ينتفع به وباقيه للمبتاع منه.

الخامسة ـ من أحكام العُلْوِ والسُّفل. إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيعتلّ السفل أو يريد صاحبه هَدْمَه؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال: إذا أراد صاحب السفل أن يهدم، أو أراد صاحب العلو أن يبني علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة، ويكون هدمه له أرفق لصاحب العلو؛ لئلاّ ينهدم بانهدامه العلو، وليس لرب العلو أن يبني على علوه شيئاً لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذي لا يضر بصاحب السفل. ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها ويخاف ضررها على صاحب السفل. قال أشهب: وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو أنهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه، وليس على صاحب العلو أن يبني السفل؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل له بِعْ ممن يبني. وروى ابن القاسم عن مالك في السفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله؛ لأن عليه إمّا أن يحمله على بنيان أو على تعليق، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثاني على صاحب الأوسط. وقد قيل: إن تعليق العلو الثاني على رب العلو حتى يبني الأسفل. وحديث النعمان بن بشير عن النبيّ ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوْا جميعاً» ـ أصلٌ في هذا الباب. وهو حجة لمالك وأشهب. وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضرّ به، وأنه إن أحدث عليه ضرراً لزمه إصلاحه دون صاحب العلو، وأن لصاحب العلو منعه من الضرر؛ لقوله عليه السلام: «فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوْا جميعاً» ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو ممنوع من

إحداث ما لا يجوز له في السنة. وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وقد مضى في ﴿الأنفال﴾[1]. وفيه دليل على جواز القرعة واستعمالها، وقد مضى في ﴿آل عمران﴾[2] فتأمل كُلاً في موضعه تجده مبيَّناً، والحمد لله.

[٣٤] ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً﴾ أي ولجعلنا لبيوتهم. وقيل: ﴿لبيوتهم﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿لِمَنْ يَكْفُر بِالرَّحْمَنِ﴾. ﴿أَبْوَاباً﴾ أي من فضة. ﴿وَسُرُراً﴾ كذلك؛ وهو جمع السرير. وقيل: جمع الأسِرَّة، والأسِرّة جمع السرير؛ فيكون جمع الجمع. ﴿يَتَّكِئُونَ عَلَيْهَا﴾ الاتكاء والتَّوَكُّؤ: التحامل على الشيء؛ ومنه ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾. ورجل تُكَأة؛ مثال هُمَزَة؛ كثير الاتكاء. والتُّكأة أيضاً: ما يُتَّكَأ عليه. واتكأ على الشيء فهو متّكِىء؛ والموضع متَّكأ. وطعنه حتى أتكأه (على أَفْعَلَه) أي ألقاه على هيئة المُتَّكِىء. وتوكّأت على العصا. وأصل التاء في جميع ذلك واو، ففُعل به ما فُعل باتّزن واتّعد. ﴿وَزُخْرُفاً﴾ الزخرف هنا الذهب؛ عن ابن عباس وغيره. نظيره: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ وقد تقدّم[3]. وقال ابن زيد: هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة والأثاث. وقال الحسن: النقوش؛ وأصله الزينة. يقال: زخرفت الدار؛ أي زينتها. وتزخرف فلان؛ أي تزين. وانتصب ﴿زخرفاً﴾ على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً. وقيل: بنزع الخافض؛ والمعنى فجعلنا لهم سُقُفاً وأبواباً وسرراً من فضة ومن ذهب؛ فلما حذف ﴿مِن﴾ قال ﴿وزخرفا﴾ فنصب. ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر ﴿وإنّ كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾ بالتشديد. الباقون بالتخفيف؛ وقد ذُكر هذا. وروي عن أبي رجاء كسر اللام من ﴿لَمَّا﴾؛ فـ ﴿ما﴾ عنده بمنزلة الذي، والعائد عليها محذوف؛ والتقدير: وإن كل ذلك للذي

(١) راجع ٧/ ٣٩١ فما بعدها. (٢) راجع ٤/ ٨٦ فما بعدها. (٣) راجع ١٠/ ٣٣١.

هو متاع الحياة الدنيا، وحذفُ الضمير هاهنا كحذفه في قراءة من قرأ ﴿مَثَلاً ما بَعُوضَةٌ فما[1] فوقها﴾ و ﴿تَمَاماً على الذِي أَحْسَنُ﴾[2]. أبو الفتح: ينبغي أن يكون ﴿كُلُّ﴾ على هذه القراءة منصوبة؛ لأن ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، وهي إذا خففت وبطل عملها لزمتها اللام في آخر الكلام للفرق بينها وبين «إن» النافية التي بمعنى ما؛ نحو إن زيد لقائم، ولا لام هنا سوى الجارة. ﴿وَالآخِرةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يريد الجنة لمن اتقى وخاف. وقال كعب: إني لأجد في بعض كتب الله المنزلة: لولا أن يَحْزَن عبدي المؤمن لكلّلت رأس عبدي الكافر بالإكليل، ولا يتصدّع ولا ينبِض منه عرق بوجع. وفي «صحيح الترمذي» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». وفي الباب عن أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب. وأنشدوا:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن ... إذاً لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً ... وقد شَبِعت فيها بطون البهائم

وقال آخر:

تمتّع من الأيام إن كنت حازما ... فإنك فيها بين ناهٍ وآمِر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه ... فما فاته منها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن زَقّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثواباً لمحسن ... ولا رضي الدنيا عقاباً لكافر

[٣٦] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

---

(١) راجع ١/٢٤٣.
(٢) راجع ٧/١٤٢.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً. فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ وقرأ ابن عباس وعكرمة ﴿وَمَنْ يَعْشَ﴾ بفتح الشين، ومعناه يعمى؛ يقال منه عَشِيَ يَعْشَى عشاً إذا عَمِيَ. ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر؛ ومنه قول الأعشى:

رأتْ رجلاً غائب الوافِدَيْـ ـنِ مختلفَ الخلق أعْشَى ضريراً(١)

وقوله:

أأن رأت رجلاً أعْشَى أضَرَّ به رَيْبُ المنونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ

الباقون بالضم؛ من عشا يعشو إذا لحقه ما يلحق الأعشى. وقال الخليل: العشو هو النظر ببصر ضعيف؛ وأنشد:

متى تأتِه تعْشُو إلى ضَوْء ناره تَجِد خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقدِ(٢)

وقال آخر:

لنعم الفتى يعشو إلى ضوء ناره إذا الريح هبّت والمكان جديب

الجَوْهَرِيّ: والعَشَا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان. وأعشاه الله فعشِي (بالكسر) يَعْشَى عَشًى، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا يَعْشوان؛ لأن الواو لما صارت في الواحد ياء لكسرة ما قبلها تُركت في التثنية على حالها. وتعاشى إذا أرى من نفسه أنه أعشى. والنسبة إلى أَعْشَى أعْشَوِيّ. وإلى العَشِيّة عَشَوِيّ. والعشواء: الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تَخْبِط بيديها كلّ شيء. وركب فلان العشواء إذا خَبَط أمره على غير بصيرة. وفلان خابطٌ خبطَ عشواء.

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً﴾(٣) أي نواصل لكم الذكر، فمن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً﴾ أي نسبب له شيطانا جزاء له على كفره ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ قيل في الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قول ابن عباس.

---

(١) في اللسان مادة «وفد»: «والوافدان اللذان في شعر الأعشى هما الناشزان من الخدّين عند المضغ؛ فإذا هرم الإنسان غاب وافداه». (٢) البيت للحطيئة. (٣) آية ٥.

وقيل في الآخرة إذا قام من قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْرِي. وفي الخبر؛ أن الكافر إذا خرج من قبره يُشْفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأن المؤمن يُشْفع بمَلَك حتى يقضي الله بين خلقه؛ ذكره المهدويّ. وقال القشيري: والصحيح فهو له قرين في الدنيا والآخرة. وقال أبو الهيثم والأزهري: عَشَوْت إلى كذا أي قصدته. وعشوت عن كذا أي أعرضت عنه، فتفرق بين «إلى» و «عن»؛ مثل: ملْتُ إليه، وملْتُ عنه. وكذا قال قتادة: يَعْشُ، يُعْرِض؛ وهو قول الفراء. النحاس: وهو غير معروف في اللغة. وقال القُرَظي: يولّي ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه. وأنكر العُتْبيّ عشوت بمعنى أعرضت؛ قال: وإنما الصواب تعاشيت. والقول قول أبي الهيثم والأزهري. وكذلك قال جميع أهل المعرفة. وقرأ السُّلَمِيّ وابن أبي إسحاق ويعقوب وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش ﴿يقيّض﴾ (بالياء) لذكر ﴿الرحمن﴾ أوّلا؛ أي يقيّض له الرحمن شيطاناً. الباقون بالنون. وعن ابن عباس ﴿يُقَيَّضْ لَهُ شَيْطَانٌ فهو له قَرِينٌ﴾ أي ملازم ومصاحب. قيل: ﴿فهو﴾ كناية عن الشيطان؛ على ما تقدّم. وقيل: عن الإعراض[1] عن القرآن؛ أي هو قرين للشيطان. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى؛ وذُكر بلفظ الجمع لأن ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿ومن يعش﴾ في معنى الجمع. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي ويحسب الكفار ﴿أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وقيل: ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص؛ يعني الكافر يوم القيامة. الباقون ﴿جاءانا﴾ على التثنية، يعني الكافر وقرينه وقد جُعلا في سلسلة واحدة، فيقول الكافر ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[2] ونحوه قول مقاتل. وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لهما جميعاً؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده؛ كما قال:

وعَيْنٌ لها حَدْرةٌ بَدْرةٌ ... شُقَّت مآقيهما من أُخُرْ[3]

(١) في الأصول: «عن التعرض». (٢) آية ١٧ سورة الرحمن. (٣) البيت لامرىء القيس: وحدرة: مكتنزة صلبة، وقيل الواسعة الجاحظة. وبدرة: تبدر بالنظر، وقيل تامة كالبدر.

قال مقاتل: يتمنى الكافر أن بينهما بُعْدَ مَشْرِق أطول يوم في السنة إلى مَشْرِق أقصر يوم في السنة، ولذلك قال: ﴿بُعْدَ المشرقين﴾. وقال الفراء: أراد المشرق والمغرب فغَلَّب اسم أحدهما، كما يقال: القمران للشمس والقمر، والعُمرَان لأبي بكر وعمر، والبصرتان للكوفة والبصرة، والعصران للغداة والعصر. وقال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكم ... لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجَرِير:

ما كان يرضى رسول الله فعلهم ... والعُمَران أبو بكر ولا عمر

وأنشد سيبويه:

قَدْنِيَ من نَصْر الخُبَيْبَيْن قَدِي

يريد عبد الله ومصعباً ابني الزبير، وإنما أبو خبيب عبد الله. ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أي فبئس الصاحب أنت؛ لأنه يورده إلى النار. قال أبو سعيد الخُدْرِيّ: إذا بُعث الكافر زوّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار.

[٣٩] ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ ﴿إذ﴾ بدل من اليوم؛ أي يقول الله للكافر لن ينفعكم اليوم إذ أشركتم في الدنيا هذا الكلام؛ وهو قول الكافر: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي لا تنفع الندامة اليوم. ﴿إنكم﴾ بالكسر ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وهي قراءة ابن عامر باختلاف عنه. الباقون بالفتح. وهي في موضع رفع تقديره: ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه. أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسّي كما يتأسّى أهل المصائب في الدنيا، وذلك أن التأسّي يستروِحه أهل الدنيا فيقول أحدهم: لي في البلاء والمصيبة أسوة؛ فيسكن ذلك من حزنه؛ كما قالت الخنساء:

فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزّي النفس عنه بالتأسّي

فإذا كان في الآخرة لم ينفعهم التأسّي شيئاً لشغلهم بالعذاب. وقال مقاتل: لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم؛ لأن قُرَناءكم وأنتم في العذابِ مشترِكون كما اشتركتم في الكفر.

[٤٠] ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ يا محمد ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلال مُبِينٍ﴾ أي ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا؛ ففيه تسلية للنبيّ ﷺ. وفيه ردّ على القدرية وغيرهم، وأن الهدى والرشد والخذلان في القلب خَلْقُ الله تعالى، يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء.

[٤١] ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش. ﴿فإنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ. أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ وهو الانتقام منهم في حياتك. ﴿فإنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر؛ وهو قول أكثر المفسرين. وقال الحسن وقتادة: هي في أهل الإسلام؛ يريد ما كان بعد النبيّ ﷺ من الفتن. و ﴿نَذْهَبَنَّ بك﴾ على هذا نتوفينّك. وقد كان بعد النبيّ ﷺ نقمة شديدة فأكرم الله نبيه ﷺ وذهب به فلم يُرِه في أمته إلا التي تَقَرّ به عينه وأبقى النقمة بعده، وليس من نبيّ إلا وقد أُرِي النّقمة في أمته. وروي أن النبيّ ﷺ أُرِي ما لقيت أمته من بعده، فما زال منقبضاً، ما انبسط ضاحكاً حتى لقي الله عز وجل. وعن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ قال: «إذا أراد الله بأمة خيراً قبض نبيّها قبلها فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً. وإذا أراد الله بأمة عذاباً عذّبها ونبيُّها حيٌّ لتقَرّ عينه لما كذّبوه وعصَوْا أمره».

[٤٣] ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب؛ فـ ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يوصّلك إلى الله ورضاه وثوابه. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم؛ نظيره: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾(١) أي شرفكم. فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب؛ فاحتاج أهل اللغات كلّها إلى لسانهم كلّ من آمن بذلك فصاروا عيالاً عليهم؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عنى به من الأمر والنهي وجميع ما فيه من الأنباء، فَشرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سُمِّي عربيًّا. وقيل: بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة. وقيل: تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به. وقيل: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ يعني الخلافة فإنها في قريش لا تكون في غيرهم؛ قال النبيّ ﷺ: «الناس تَبَعٌ لقريش في هذا الشأن مُسْلمُهم تَبَعٌ لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم». وقال مالك: هو قول الرجل حدّثني أبي عن أبيه، حكاه ٱبن أبي سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر الماورديّ والثعليّ وغيرهما. قال ابن العربي: ولم أجد في الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببَغْداد فإن بني التميمي بها يقولون: حدّثني أبي قال حدّثني أبي، إلى رسول الله ﷺ؛ وبذلك شَرُفت أقدارهم، وعظّم الناس شأنهم، وتهمّمت الخلافة بهم. ورأيت بمدينة السلام ٱبني أبي محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبي الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد بن أُكَيْنة بن عبد الله التميمي وكانا يقولان: سمعنا أبانا رزق الله يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت عليّ بن أبي طالب

(١) آية ١٠ سورة الأنبياء.

يقول وقد سئل عن الحنّان المَنّان فقال: الحنان الذي يُقبل على من أعرض عنه، والمنّان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال. والقائل سمعت عليًا: أكَيْنة بن عبد الله جدّهم الأعلى. والأقوى أن يكون المراد بقوله: ﴿وإنه لذكْرٌ لك ولقومك﴾ يعني القرآن؛ فعليه انبنى الكلام وإليه يرجع المصير، والله أعلم. قال الماوَرْدي: ﴿ولقومك﴾ فيهم قولان: أحدهما ـ من اتبعك من أمتك؛ قاله قتادة وذكره الثعلبي عن الحسن. الثاني ـ لقومك من قريش؛ فيقال ممن هذا؟ فيقال من العرب، فيقال من أيّ العرب؟ فيقال من قريش؛ قاله مجاهد.

قلت: والصحيح أنه شرف لمن عمِل به، كان من قريش أو من غيرهم. روى ابن عباس قال: أقبل نبيّ الله ﷺ من سَرِيّة أو غَزَاة فدعا فاطمة فقال: «يا فاطمة اشتري نفسك من الله فإني لا أُغْنِي عنك من الله شيئاً» وقال مثل ذلك لِنِسْوَته، وقال مثل ذلك لعِتْرته. ثم قال نبيّ الله ﷺ: «ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ولا قريش بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ولا الأنصار بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ولا الموالي بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة وأنتم كجِمَام[1] الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى». وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرًّا عند الله من الجِعلان التي تدفع النَّتْن بأنفها كلّكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنكم عَيْبة الجاهلية وفخرها بالآباء [الناس] مؤمن تقيٌّ وفاجر شقي». خرجهما الطبري. وسيأتي لهذا مزيد بيان في الحُجُرات إن شاء الله تعالى. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفرّاء. وقال ابن جُريج: أي تسألون أنت ومن معك على ما أتاك. وقيل تسألون عما عملتم فيه؛ والمعنى متقارب.

[٤٥] ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

---

(١) الجمام (بالتثليث): ما علا رأس المكيال من الطفاف.

قال ابن عباس وابن زيد: لما أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـ وهو مسجد بيت المقدس ـ بعث الله له آدم ومَن وُلد من المرسلين، وجبريل مع النبيّ ﷺ؛ فأذّن جبريل ﷺ ثم أقام الصلاة، ثم قال: يا محمد تقدّم فصل بهم؛ فلما فرغ رسول الله ﷺ قال له جبريل ﷺ: «سل يا محمد من أرسلنا مِن قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون. فقال رسول الله ﷺ: «لا أسأل قد اكتفيت». قال ابن عباس: وكانوا سبعين نبيًّا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم. في غير رواية ابن عباس: فصلّوْا خلف رسول الله ﷺ سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة؛ وكان يلي ظهر رسول الله ﷺ إبراهيم خليل الله، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمّهم ركعتين؛ فلما انفتل[1] قام فقال: «إن ربّي أوحى إليّ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله»؟ فقالوا: يا محمد، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وإنك خاتم النبيين وسيد المرسلين، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا، وأن لا نبيّ بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى ابن مريم فإنه مأمور أن يتّبع أثرك». وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ قال: لقِيَ الرّسلَ ليلة أسري به. وقال الوليد بن مسلم في قوله تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ قال: سألت عن ذلك خليد بن دَعْلَج فحدّثني عن قتادة قال سألهم ليلة أسري به، لقي الأنبياء ولقي آدم ومالك خازن النار.

قلت: هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية. و ﴿مِن﴾ التي قبل ﴿رسلنا﴾ على هذا القول غير زائدة. وقال المبرد وجماعة من العلماء: إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا. وروي أن في قراءة ابن مسعود ﴿واسأل الذي أرسلنا إليهم قبلك رسلنا﴾.

---

(١) انفتل عن الصلاة: إذا انصرف عنها.

وهذه قراءة مفسّرة ؛ فـ ﴿مِن﴾ على هذا زائدة، وهو قول مجاهد والسُّدّي والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وابن عباس أيضاً. أي واسأل مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وقيل: المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك؛ فحذفت ﴿عن﴾، والوقف على ﴿ رسلنا ﴾ على هذا تام، ثم ابتدأ بالاستفهام على طريق الإنكار. وقيل: المعنى واسأل تُبّاع مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا، فحذف المضاف. والخطاب للنبيّ ﷺ والمراد أمته. ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أخبر عن الآلهة كما أخبر عمن يعقل فقال ﴿يعبدون﴾ ولم يقل تعبد ولا يعبدن ؛ لأن الآلهة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل.

وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبيّ ﷺ: إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير؛ لا لأنه كان في شك منه. واختلف أهل التأويل في سؤال النبيّ ﷺ لهم على قولين: **أحدهما** ـ أنه سألهم فقالت الرسل بُعثنا بالتوحيد؛ قاله الواقدي. **الثاني** ـ أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل؛ حتى حكى ابن زيد أن ميكائيل قال لجبريل: «هل سألك محمد عن ذلك؟ فقال جبريل: هو أشدّ إيماناً وأعظم يقيناً من أن يسأل عن ذلك». وقد تقدّم هذا المعنى في الروايتين حسبما ذكرناه.

[٤٦] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) ﴾.

[٤٧] ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) ﴾.

[٤٨] ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) ﴾.

[٤٩] ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) ﴾.

[٥٠] ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾.

[٥١] ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾

[٥٢] ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ لمَّا أعلم النبيّ ﷺ أنه منتقم له من عدوّه، وأقام الحجة بٱستشهاد الأنبياء وٱتفاق الكل على التوحيد أكّد ذلك بقصة موسى وفرعون، وما كان من فرعون من التكذيب، وما نزل به وبقومه من الإغراق والتكذيب؛ أي أرسلنا موسى بالمعجزات وهي التسع الآيات فكُذِّب؛ فجعلت العاقبة الجميلة له، فكذلك أنت.. ومعنى ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء وسخرية؛ يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل، وأنهم قادرون عليها. وقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي كانت آيات موسى من كبار الآيات، وكانت كل واحدة أعظمَ مما قبلها. وقيل: ﴿إلا هي أكبر من أختها﴾ لأن الأولى تقتضي علماً والثانية تقتضي علماً، فتُضَمّ الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح. ومعنى الأُخُوّة المشاكلة والمناسبة؛ كما يقال: هذه صاحبة هذه؛ أي هما قريبتان في المعنى. ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي على تكذيبهم بتلك الآيات؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[1]. والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع. وكانت هذه الآيات الأخيرة عذاباً لهم وآياتٍ لموسى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من كفرهم. ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ لما عاينوا العذاب قالوا يا أيها الساحر؛ نادَوهُ بما كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم. وقيل: كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: ﴿يا أيها الساحر﴾ يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً يوقّرونه؛ ولم يكن السحر صفةَ ذم. وقيل: يا أيها الذي غَلَبنَا بسحره، يقال: ساحرته فسحرته؛ أي غلبته بالسحر؛ كقول العرب: خاصمته فخصمته أي غلبته بالخصومة، وفاضلته ففضلته؛ ونحوها. ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معنى الاستفهام، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا. وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بن وَثّاب ﴿أيُّهُ الساحر﴾ بغير ألف والهاء مضمومة؛ وعلّتها أن الهاء خُلطت بما قبلها وألزمت ضم الياء الذي أوجبه النداء المفرد. وأنشد الفرّاء:

يـا أيُّـهُ القلـبُ اللّجُـوجُ النفس أفق عن البيض الحسانِ اللُّعْسِ

(١) آية ١٣٠ سورة الأعراف.

فضم الهاء حملاً على ضم الياء؛ وقد مضى في ﴿النور﴾[1] معنى هذا. ووقف أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويحيى والكسائي ﴿أيها﴾ بالألف على الأصل. الباقون بغير ألف؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف. ﴿أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا؛ فسله يكشف عنا. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي فيما يستقبل. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ﴾ أي فدعا فكشفنا. ﴿إذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ أي ينقضون العهد الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا. وقيل: قولهم ﴿إننا لمهتدون﴾ إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدّوا.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ قيل: لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال؛ فنادى بمعنى قال؛ قاله أبو مالك. فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه في جموع القبط؛ وكأنه نودي به بينهم. وقيل: إنه أمر من ينادي في قومه؛ قاله ابن جريج. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ أي لا ينازعني فيه أحد. قيل: إنه ملك منها أربعين فرسخاً في مثلها؛ حكاه النقاش. وقيل: أراد بالملك هنا الإسكندرية. ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ يعني أنهار النيل، ومعظمها أربعة[2]: نهر الملِك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تِنّيس. قال قتادة: كانت جناناً وأنهاراً تجري من تحت قصوره. وقيل: من تحت سريره. وقيل: ﴿من تحتي﴾ أي تصرّفي نافذ فيها من غير صانع. وقيل: كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجَرْي. قال القُشَيْرِيّ: ويجوز ظهور خوارق العادة على مدّعي الرُّبُوبية؛ إذ لا حاجة في تمييز الإله من غير الإله إلى فعلٍ خارق للعادة. وقيل: معنى ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ أي القوّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائي؛ قاله الضحاك. وقيل: أراد بالأنهار الأموال، وعبّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها. وقوله: ﴿تجري من تحتي﴾ أي أفرّقها على مَن يتبعني؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون

---

(١) راجع ١٢/٢٣٨.

(٢) في كتاب «روح المعاني» للألوسي: «والأنهار: الخلجان التي تخرج من النيل المبارك؛ كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس، ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك، لكنه اندرس فجدّده أحمد بن طولون ملك مصر في الإسلام».

الأنهار. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وقوّتي وضَعْف موسى. وقيل قدرتي على نفقتكم وعجز موسى. والواو في ﴿وهذه﴾ يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على ﴿مُلك مِصر﴾ و ﴿تجري﴾ نصب على الحال منها. ويجوز أن تكون واو الحال، وٱسم الإشارة مبتدأ، و ﴿الأنهار﴾ صفة لاسم الإشارة، و ﴿تجري﴾ خبر للمبتدأ. وفتحَ الياء من ﴿تحتيَ﴾ أهل المدينة والبَزِّي وأبو عمرو، وأسكن الباقون. وعن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأوَلّيَنّها أحسن عبيدي، فولاّها الخَصيبَ، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: أهذه القرية التي ٱفتخر بها فرعون حتى قال: ﴿أليس لي ملك مصر﴾؟! والله لهي عندي أقلّ من أن أدخلها! فثنى عنانه. ثم صرّح بحاله فقال ﴿أم أنَا خَيْرٌ﴾ قال أبو عبيدة والسُّدِّي: ﴿أم﴾ بمعنى ﴿بل﴾ وليست بحرف عطف؛ على قول أكثر المفسرين. والمعنى: قال فرعون لقومه بل أنا خير ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي لا عِزّ له فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني ما كان في لسانه من العقدة؛ على ما تقدّم في ﴿طه﴾[1]. وقال الفراء: في ﴿أم﴾ وجهان: إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله، وإن شئت جعلتها نَسَقاً على قوله ﴿أليس لي ملك مصر﴾. وقيل: هي زائدة. وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون ﴿أم﴾ زائدة؛ والمعنى أنا خير من هذا الذي هو مهين. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال:

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جُلاجِلٍ وبين النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ[2]

أي أنت أحسن أمْ أمّ سالم. ثم ٱبتدأ فقال أنا خير. وقال الخليل وسيبويه: المعنى أفلا تبصرون، أم أنتم بصراء، فعطف بـ ﴿أم﴾ على ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن معنى ﴿أم أنا خير﴾ أي أم تبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء. وروي عن عيسى

---

(١) راجع ١١/ ١٩٢.

(٢) القائل هو ذو الرمة. والوعساء: رملة لينة. وجلاجل: موضع بعينه. والنقاء: الكثيب من الرمل.

الثَّقفِيّ ويعقوب الحَضْرَميّ أنهما وقفاً على ﴿أم﴾ على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف تبصرون الثاني. وقيل: مَن وقف على ﴿أم﴾ جعلها زائدة، وكأنه وقف على ﴿تبصرون﴾ من قوله ﴿أفلا تبصرون﴾. ولا يتم الكلام على ﴿تبصرون﴾ عند الخليل وسيبويه؛ لأن ﴿أم﴾ تقتضي الاتصال بما قبلها. وقال قوم: الوقف على قوله: ﴿أفلا تبصرون﴾ ثم ابتدأ ﴿أم أنا خير﴾ بمعنى بل أنا خير؛ وأنشد الفَرّاء:

بدت مثل قَرْن الشمس في رَوْنق الضحى وصـورتِهـا أم أنـتِ فـي العيـن أمْلَحُ

فمعناه: بل أنتِ أملح. وذكر الفَرّاء أن بعض القراء قرأ ﴿أمَا أنا خير﴾؛ ومعنى هذا ألست خيراً. وروي عن مجاهد أنه وقف على ﴿أم﴾ ثم يبتدىء ﴿أنا خير﴾ وقد ذُكر.

[٥٣] ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ﴾ أي هلاّ ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزِيّ أهل الشرف. وقرأ حفص ﴿أسْوِرة﴾ جمع سِوار، كخمار وأخمرة. وقرأ أُبَيّ ﴿أساور﴾ جمع إسوار. وابن مسعود ﴿أساوير﴾. الباقون ﴿أساورة﴾ جمع الأسورة؛ فهو جمع الجمع. ويجوز أن يكون ﴿أساورة﴾ جمع ﴿إسوار﴾ وألحقت الهاء في الجمع عوضاً من الياء؛ فهو مثل زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشبهه. وقال أبو عمرو بن العَلاَء: واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار، وهي لغة في سِوار. قال مجاهد: كانوا إذا سوّروا رجلاً سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق ذهب علامةً لسيادته ، فقال فرعون : هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقاً ! ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعني متتابعين؛ في قول قتادة. مجاهد: يمشون معاً. ابن عباس: يعاونونه على من خالفه؛ والمعنى: هلاّ ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه؛ فيكون ذلك أهْيَبَ في القلوب. فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا

كرسل الملوك في الشاهد، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيّدوا بالجنود السماوية؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرّده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعواناً ـ في قول مقاتل ـ أو دليلاً على صدقه ـ في قول الكلبي ـ وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف، وقد كان في الجائز أن يُكَذَّب مع مجيء الملائكة كما كُذّب مع ظهور الآيات. وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم.

[٥٤] ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ قال ابن الأعرابي: المعنى فٱستجهل قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفة أحلامهم وقلّة عقولهم؛ يقال: استخفه الفرح أي أزعجه، وٱستخفه أي حمله على الجهل؛ ومنه ﴿وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾(١). وقيل: استفزّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب. وقيل: استخفَّ قومه أي وجدهم خفاف العقول. وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه، فلا بدّ من إضمارٍ بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه. وقيل: استخف قومه وقهرهم حتى ٱتبعوه؛ يقال استخفه خلاف استثقله، وٱستخف به أهانه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله.

[٥٥] ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس: أي غاظونا وأغضبونا. وروى عنه عليّ بن أبي طلحة: أي أسخطونا. قال الماورديّ: ومعناهما مختلف، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهة، والغضب إرادة الانتقام. القُشَيْريّ: والأسف هاهنا بمعنى الغضب؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات، وإما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قول الماوردي.

(١) آية ٦٠ سورة الروم.

وقال عمر بن ذَرّ: يا أهل معاصي الله، لا تغترّوا بطول حلم الله عنكم، واحذروا أسفه؛ فإنه قال: ﴿فَلَمّا آسَفُونا انتقمنا منهم﴾. وقيل: ﴿آسفونا﴾ أي أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين؛ نحو السحرة وبني إسرائيل. وهو كقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ الله﴾[١] و ﴿يحاربون الله﴾[٢] أي أولياءه ورسله.

[٥٦] ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً﴾ أي جعلنا قوم فرعون سَلَفاً. قال أبو مِجْلَز: ﴿سَلَفاً﴾ لمن عمل عملهم، ﴿وَمَثَلاً﴾ لمن يعمل عملهم. وقال مجاهد: ﴿سلفاً﴾ إخباراً لأمة محمد ﷺ، ﴿ومثلاً﴾ أي عبرة لهم. وعنه أيضاً ﴿سلفاً﴾ لكفار قومك يتقدّمونهم إلى النار. قتادة: ﴿سلفاً﴾ إلى النار، ﴿ومثلاً﴾ عِظةً لمن يأتي بعدهم. والسلف المتقدّم؛ يقال: سَلَف يَسْلُف سَلَفاً؛ مثل طلب طلباً؛ أي تقدّم ومضى. وسلف له عمل صالح أي تقدّم. والقوم السُّلاّف المتقدّمون. وسَلَفُ الرجلِ: آباؤه المتقدّمون؛ والجمع أسلاف وسُلاّف. وقراءة العامة ﴿سَلَفاً﴾ (بفتح السين واللام) جمع سالف؛ كخادم وخَدَم، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس. وقرأ حمزة والكسائي ﴿سُلُفاً﴾ (بضم السين واللام). قال الفراء: هو جمع سليف، نحو سرير وسُرُر. وقال أبو حاتم: هو جمع سَلَف؛ نحو خَشَب وخُشُب، وثَمَر وثُمُر؛ ومعناهما واحد. وقرأ عليّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنَّخَعي وحُميد بن قيس ﴿سُلَفاً﴾ (بضم السين وفتح اللام) جمع سُلْفة، أي فِرقة متقدّمة. قال المُؤَرِّج والنَّضر بن شُمَيل: ﴿سُلَفاً﴾ جمع سُلْفة، نحو غُرْفَة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم.

[٥٧] ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

لمّا قال تعالى: ﴿واسأل مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ تعلّق المشركون بأمر عيسى وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلٰهاً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم إلٰهاً؛ قاله قتادة. ونحوه عن مجاهد قال: إن قريشاً قالت إن محمداً

---

(١) آية ٥٧ سورة الأحزاب. (٢) آية ٣٣ سورة المائدة.

يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى؛ فأنزل الله هذه الآية. وقال ابن عباس: أراد به مناظرة عبد الله بن الزِّبَعْرَى مع النبيّ ﷺ في شأن عيسى، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حالة كفره لما قالت له قريش إن محمداً يتلو ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] الآية، فقال: لو حضرته لرددت عليه؛ قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عُزَيْراً، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم؛ وذلك معنى قوله ﴿يَصِدُّونَ﴾. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2]. ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها؛ لأنه قال ﴿وما تعبدون﴾ ولم يقل ومن تعبدون، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقِل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين. وقد مضى هذا في آخر سورة ﴿الأنبياء﴾[3]. وروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش لا خير في أحد يُعبد من دون الله». قالوا: أليس تزعم أن عيسى كان عبداً نبيًّا وعبداً صالحاً، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله!. فأنزل الله تعالى ﴿ولَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُك مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يضِجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال. قرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿يَصُدون﴾ (بضم الصاد) ومعناه يُعرِضون؛ قاله النَّخَعِيّ، وكسر الباقون. قال الكسائي: هما لغتان؛ مثل يَعْرِشون ويَعْرُشون، ويَنِمُّون ويَنُمُّون، ومعناه يَضِجُّون. قال الجوهري: وصَدّ يَصُدّ صديداً؛ أي ضَجَّ وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج؛ قاله قُطْرُب. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحق لكانت: إذا قومك عنه يصدون. الفَرّاء: هما سواء؛ منه وعنه. ابن المُسيّب: يصدون يضجون. الضحاك يعجون. ابن عباس: يضحكون. أبو عبيدة: مَن ضَمّ فمعناه يعدلون؛ فيكون المعنى: من أجل المَيْل يعدلون. ولا يُعَدّى ﴿يصدون﴾ بمن، ومن كسر فمعناه يضِجون؛ فـ ﴿ـمن﴾ متصلة بـ ﴿ـيصدون﴾ والمعنى يضجون منه.

---

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء.

(٢) آية ١٠١ سورة الأنبياء.

(٣) راجع ١١/ ٣٤٣ فما بعدها.

[٥٨] ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي آلهتنا خير أم عيسى؟ قاله السُّدِّي. وقال: خاصموه وقالوا إن كل من عبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنَى أولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الآية. وقال قتادة: ﴿أم هو﴾ يعنون محمداً ﷺ. وفي قراءة ابن مسعود ﴿آلهتنا خير أم هذا﴾. وهو يقوّي قول قتادة، فهو استفهام تقرير في أن آلهتهم خير. وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿أآلهتنا﴾ بتحقيق الهمزتين، ولَيّن الباقون. وقد تقدم. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلاً جَدَلاً﴾ ﴿جدلاً﴾ حال؛ أي جدلين. يعني ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مجادلون بالباطل. وفي «صحيح الترمذيّ» عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ـ ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ـ ﴿ما ضربوه لك إلا جَدَلاً بل هم قوم خصِمون﴾».

[٥٩] ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ ﴾ .

[٦٠] ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ۝٦٠ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي ما عيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوّة، وجعله مَثَلاً لبني إسرائيل؛ أي آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى؛ فإن عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يُجعل لغيره في زمانه، مع أن بني إسرائيل كانوا يومئذٍ خير الخلق وأحبّه إلى الله عز وجل، والناسُ دونهم، ليس أحد عند الله عز وجل مثلَهم. وقيل: المراد بالعبد المنعم عليه محمد ﷺ؛

والأوّل أظهر. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أي بَدَلاً منكم ﴿مَلَائِكَةً﴾ يكونون خَلَفاً عنكم؛ قاله السُّدِّي. ونحوه عن مجاهد قال: ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم. وقال الأزهري: إن ﴿مِن﴾ قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية.

قلت: قد تقدم هذا المعنى في ﴿براءة﴾[1] وغيرها. وقيل: لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة وإن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف؛ والمعنى: لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم بنات الله. ومعنى ﴿يَخْلُفُونَ﴾ يخلف بعضهم بعضاً؛ قاله ابن عباس.

[٦١] ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

[٦٢] ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جُبير: يريد القرآن؛ لأنه يدل على قرب مجيء الساعة، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها. وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة أيضاً: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة. وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك ﴿وإنه لَعَلَمٌ للساعة﴾ (بفتح العين واللام) أي أمارة. وقد روي عن عِكرمة ﴿وإنه للعلم﴾ (بلامين) وذلك خلاف للمصاحف. وعن عبد الله بن مسعود قال: لما كان ليلة أُسْرِي برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم؛ فرد الحديث إلى عيسى ابن مريم قال: قد عُهد إليّ فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل؛ فذكر خروج الدجال ـ قال: فأنزل فأقتله. وذكر الحديث، خرجه ابن ماجه في سننه. وفي «صحيح مسلم» «فبينما هو ـ يعني المسيح الدجال ـ إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ

---

(١) راجع ٨/ ١٤١.

دِمَشْق بين مَهْرُودتَين[١] واضعاً كفّيه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ رأسَه قَطَر وإذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللُّؤلؤ فلا يَحِلّ لكافر يجد ريحَ نَفَسه إلا مات ونَفَسُه [ينتهي] حيث ينتهي طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ[٢] فيقتله...» الحديث... وذكر الثعلبيّ والزَّمَخْشَرِيّ وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء على ثَنِيّة من الأرض المقدسة يقال لها أفِيق[٣] بين مُمَصَّرَتَيْن[٤] وشعر رأسه دَهين وبيده حربة يقتل بها الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر والإمام يؤمّ بهم فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلّي خلفه على شريعة محمد ﷺ ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البِيَع والكنائس ويقتل النصارى إلاّ من آمن به». وروى خالد عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوة لِعَلّات أمهاتُهم شَتّى ودينهم واحد وأنا أوْلَى الناس بعيسى ابن مريم إنه ليس بيني وبينه نبيّ وإنه أوّل نازل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام». قال الماوَرْدِيّ: وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رُفع التكليف لئلا يكون رسولاً إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى وينهاهم. وهذا قول مردود لثلاثة أمور؛ منها الحديث، ولأن بقاء الدنيا يقتضي التكليف فيها، ولأنه ينزل آمراً بمعروف وناهياً عن منكر. وليس يُستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصوراً على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه.

قلت: ثبت في «صحيح مسلم» وابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْزِلَنّ عيسى ابن مريم حَكَماً عادلاً فَلَيَكْسِرَنّ الصليبَ وليَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضَعَنّ الجِزْيَة ولَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنَّ الشحناء والتّباغُضُ والتحاسد ولَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يقبله أحد». وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامُكم منكم» وفي رواية «فأمّكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري «ما أمّكم

---

(١) أي شقتين أو حلتين.
(٢) لد (بالضم والتشديد): قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين.
(٣) في «روح المعاني»: «أفيق بفاء وقاف بوزن أمير، وهي هنا مكان بالقدس الشريف نفسه...».
(٤) الممصرة من الثياب: التي فيها صفرة خفيفة.

منكم»؟ قلت: تخبرني؛ قال: فأمَّكم بكتاب ربّكم وسُنّةِ نبيّكم ﷺ». قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فهذا نصٌّ على أنه ينزل مجدّداً لدين النبيّ ﷺ للذي دُرس منه، لا بشرع مبتدأ والتكليف باقٍ؛ على ما بيناه هنا وفي كتاب التذكرة. وقيل: ﴿وإنه لَعِلْمٌ للسّاعة﴾ أي وإن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى؛ قاله ابن إسحاق.

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى ﴿وإنه﴾ وإن محمداً ﷺ لعلم للساعة؛ بدليل قوله عليه السلام: «بُعثت أنا والساعةَ كهاتين» وضَمّ السبابة والوسطى؛ خرّجه البخاري ومسلم. وقال الحسن: أوّل أشراطها محمد ﷺ. ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بها﴾ فلا تشكُّون فيها؛ يعني في الساعة، قاله يحيى بن سلام. وقال السُّدّي: فلا تكذبون بها، ولا تجادلون فيها فإنها كائنة لا محالة. ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أي في التوحيد وفيما أبلغكم عن الله. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي طريق قويم إلى الله، أي إلى جَنّته. وأثبت الياء يعقوب في قوله ﴿واتبعون﴾ في الحالين، وكذلك ﴿وأطيعون﴾. وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع في الوصل دون الوقف، وحذف الباقون في الحالين. ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي لا تغترُّوا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين؛ فإن شرائع الأنبياء لم تختلف في التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة أو نار. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تقدم في ﴿البقرة﴾[1] وغيرها.

[٦٣] ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾.

[٦٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالبَيِّنَاتِ﴾ قال ابن عباس: يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخَلْقَ الطير والمائدة وغيرها، والإخبار بكثير من الغيوب. وقال قتادة: البينات

(١) راجع ٢/٢٠٩ طبعة ثانية.

هنا الإنجيل. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي النبوّة؛ قاله السُّدّي. ابن عباس: علم ما يؤدي إلى الجميل ويكف عن القبيح. وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيري والماوردي. ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال مجاهد: من تبديل التوراة. الزجاج: المعنى لأبين لكم في الإنجيل بعض الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد: وبيّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بين لهم بعض الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها. وقيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم. ومذهب أبي عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[1]: وأنشد الأخفش قول لبيد:

تــراك أمكنــة إذا لــم أرضهــا ... أو تعتلق بعض النفوس حِمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض. ويقال للمنية: عَلُوق وعَلاّقة. قال المفضّل البكري:

وســائلــة بثَعْلَبــة بــن سَيْــر[2] ... وقــد علِقــت بثعلبــةَ العَلُــوقُ

وقال مقاتل: هو كقوله ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[3]. يعني ما أحل في الإنجيل مما كان محرماً في التوراة؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلٰهاً أو ابن إله. ﴿وأطِيعونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي عبادة الله صراط مستقيم، وما سواه معوجّ لا يؤدّي سالكه إلى الحق.

[٦٥] ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾.

[٦٦] ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

(١) آية ٢٨ سورة غافر. (٢) يريد ثعلبة بن سيار. (٣) آية ٥٠ سورة آل عمران.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ قال قتادة: يعني ما بينهم، وفيهم قولان: أحدهما ـ أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، حالف بعضهم بعضاً؛ قاله مجاهد والسدي. الثاني ـ فرق النصارى من النُّسْطُورِية والملكية واليعاقبة، اختلفوا في عيسى؛ فقالت النسطورية: هو ٱبن الله. وقالت اليعاقبة: هو الله. وقالت الملكية: ثالث ثلاثة أحدهم الله؛ قاله الكلبي ومقاتل، وقد مضى هذا في سورة ﴿مريم﴾[(١)]. ﴿فَوَيْلٌ لِلّذينَ ظَلَمُوا﴾ أي كفروا وأشركوا؛ كما في سورة ﴿مريم﴾[(١)]. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي أليم عذابه؛ ومثله: ليل نائم؛ أي ينام فيه. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يريد الأحزاب لا ينتظرون. ﴿إلا الساعة﴾ يريد القيامة. ﴿أن تأتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة. ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ يفطنون. وقد مضى في غير موضع[(٢)]. وقيل: المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة. ويكون ﴿الأحزاب﴾ على هذا، الذين تحزّبوا على النبيّ ﷺ وكذّبوه من المشركين. ويتصل هذا بقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً﴾[(٣)].

[٦٧] ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ الأخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي أعداء، يعادي بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً. ﴿ إلاَّ المُتَّقِينَ ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في أُمَيّة بن خَلَف الجُمَحِيّ وعُقْبة بن أبي مُعَيط، كانا خليلين؛ وكان عقبة يجالس النبيّ ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بن أبي مُعَيط، فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تَتْفُل في وجهه؛ ففعل عقبة ذلك؛ فنذر النبيّ ﷺ قتله فقتله يوم بَدْرٍ صَبْراً[(٤)]، وقُتل أميّة في المعركة؛ وفيهم نزلت هذه الآية. وذكر الثعلبيّ رضي الله عنه في هذه الآية قال: كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا رب،

---

(١) راجع ١١/١٠٦، ١٠٨. (٢) راجع ١/١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة.
(٣) آية ٥٨ من هذه السورة.
(٤) الصبر: نصب الإنسان للقتل.

إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، وكان يأمرني بالخير وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملاقيك، يا رب فلا تُضِلّه بعدي، وأهده كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني؛ فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما، فيقول الله تعالى: لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه؛ فيقول يا رب، إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملاقيك؛ فيقول الله تعالى: نِعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان. قال: ويموت أحد الكافرَيْن فيقول: يا رب، إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك يا رب ألاّ تَهْدِه بعدي، وأن تضله كما أضللتني، وأن تهينه كما أهنتني؛ فإذا مات خليله الكافر قال الله تعالى لهما: ليثن كل واحد منكما على صاحبه؛ فيقول: يا رب، إنه كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب؛ فيقول الله تعالى: بئس الصاحب والأخ والخليل كنت. فيلعن كلّ واحد منهما صاحبه.

قلت: والآية عامة في كل مؤمن ومتقٍ وكافر ومُضِل.

[٦٨] ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه: ينادي منادٍ في العَرَصات «يا عبادِي لا خوف عليكم اليوم»، فيرفع أهل العَرْصة رؤوسهم؛ فيقول المنادي: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فينكّس أهل الأديان رؤوسهم غير المسلمين. وذكر المحاسبي في الرعاية: وقد روي في هذا الحديث أن المنادي ينادي يوم القيامة: ﴿يا عِبادِي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فيرفع الخلائق رؤوسهم، يقولون: نحن عباد الله. ثم ينادي الثانية: ﴿الذِين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مسلِمين﴾ فينكّس الكفار رؤوسهم ويبقى الموحدون رافعي رؤوسهم. ثم ينادي الثالثة: ﴿الذِين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فينكس أهل الكبائر رؤوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم؛ لأنه أكرم الأكرمين، لا يخذل ولِيّه ولا يُسلمه عند الهلكة. وقرىء ﴿يا عبادِ﴾.

[٦٩] ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩﴾.

[٧٠] ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾.

قال الزجاج: ﴿الذِين﴾ نصب على النعت لـ ﴿ـعبادي﴾ لأن ﴿عبادي﴾ منادي مضاف. وقيل: ﴿الذين آمنوا﴾ [خبر لمبتدأ محذوف أو][1] ابتداء وخبره محذوف؛ تقديره هم الذين آمنوا، أو الذين آمنوا يقال لهم ﴿ادخلوا الجنة﴾. وقرأ أبو بكر وزِرّ بن حُبيش ﴿يَا عِبادِيَ﴾ بفتح الياء وإثباتها في الحالين؛ ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس ساكنة في الحالين. وحذفها الباقون في الحالين؛ لأنها وقعت مثبتة في مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة، أو يا عبادي الذين آمنوا ادخلوا الجنة. ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ المسلمات في الدنيا. وقيل: قرناؤكم من المؤمنين. وقيل: زوجاتكم من الحُور العين. ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تكرمون؛ قاله ابن عباس؛ والكرامة في المنزلة. الحسن: تفرحون، والفرح في القلب. قتادة: تنعمون؛ والنعيم في البدن. مجاهد: تسرّون؛ والسرور في العين. ابن أبي نجِيح: تعجبون؛ والعجب هاهنا درك ما يستطرف. يحيى بن أبي كثير: هو التلذذ بالسماع. وقد مضى هذا في ﴿الروم﴾[2].

[٧١] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٧١﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي لهم في الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم في صحاف من ذهب وأكواب. ولم يذكر الأطعمة والأشربة؛ لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء. وذكر الذهب في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب؛ كقوله تعالى:

(١) زيادة لا يستقيم المعنى إلا بها. (٢) راجع ١٢/١٤.

﴿والذَّاكِرِين اللَّهَ كَثِيراً والذَّاكِراتِ﴾[١]. وفي الصحيحين عن حُذيفة أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «لا تلبَسوا الحرير ولا الدِّيباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها[٢] فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقد مضى في سورة ﴿الحج﴾[٣] أن من أكل فيهما في الدنيا أو لبس الحرير في الدنيا ولم يتب حُرِم ذلك في الآخرة تحريماً مؤبداً. والله أعلم. وقال المفسرون: يطوف على أدناهم في الجنة منزلةً سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب، يُغْدَى عليه بها، في كل واحدة منها لون ليس في صاحبتها، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها، لا يشبه بعضه بعضاً، ويراح عليه بمثلها. ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام، مع كل غلام صحفة من ذهب، فيها لون من الطعام ليس في صاحبتها، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها، لا يشبه بعضه بعضاً. ﴿وأكْوَابٍ﴾ أي ويطاف عليهم بأكواب؛ كما قال تعالى: ﴿ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضةٍ وأكوابٍ﴾[٤]. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبي قِلابة قال: يُؤْتَوْن بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتَضْمُر لذلك بطونهم، ويفيض عرقاً من جلودهم أطيب من ريح المسك؛ ثم قرأ ﴿شراباً طهوراً﴾. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يَتْفُلُون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخِطون] قالوا فما بال الطعام؟ قال: جُشاء ورَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التّسبيحَ والتحميد والتكبير ـ في رواية ـ كما يلهمون النَّفَس».

الثانية ـ روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبيّ ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يُجَرْجِر في بطنه نار جهنم» وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها» وهذا يقتضي التحريم، ولا خلاف في ذلك.

---

(١) آية ٣٥ سورة الأحزاب. راجع ١٤/ ١٨٥.

(٢) قوله «في صحافها» على حدّ قوله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها...﴾ فالضمير عائد على الفضة، ويلزم حكم الذهب بطريق الأولى.

(٣) راجع ١٢/ ٢٩. (٤) آية ١٥ سورة الإنسان.

واختلف الناس في استعمالها في غير ذلك. قال ٱبن العربي: والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها في شيء؛ لقول النبيّ ﷺ في الذهب والحرير: «هذان حرام لذكور أمتي حلّ لإناثها». والنهي عن الأكل والشرب فيها يدل على تحريم استعمالها؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز. أصله الأكل والشرب، ولأن العلة في ذلك استعجال أمر[1] الآخرة، وذلك يستوي فيه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع؛ ولأنه ﷺ قال: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة» فلم يجعل لنا فيها حظاً في الدنيا.

الثالثة ـ إذا كان الإناء مُضَبَّباً بهما أو فيه حَلْقة منهما؛ فقال مالك: لا يعجبني أن يُشرب فيه، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبني أن ينظر فيها وجهه. وقد كان عند أنس إناء مضبّب بفضة وقال: لقد سقيت فيه النبيّ ﷺ. قال ٱبن سيرين: كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة؛ فقال أبو طلحة: لا أغير شيئاً مما صنعه رسول الله ﷺ؛ فتركه.

الرابعة ـ إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور[2]. وفي كتب علمائنا أنه يلزم الغُرْم في قيمتها لمن كسرها. وهو معنى فاسد، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها. ولا يجوز تقويمها في الزكاة بحال. وغير هذا لا يلتفت إليه.

قوله تعالى: ﴿بِصِحَافٍ﴾ قال الجوهري: الصحفة كالقَصْعة والجمع صِحاف. قال الكسائي: أعظم القصاع الجَفْنة ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم المِئْكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحَيفة تُشبع الرجل. والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف.

قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ قال الجوهري: الكوب كوز لا عروة له، والجمع أكواب. قال الأعشى يصف الخمر:

---

(١) في ٱبن العربي: «أجر».
(٢) الطنبور: من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس؛ معرّب.

صَرِيفيّة طَيّبٌ طَعْمُهَا لها زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ[١]

وقال آخر[٢]:

مُتّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه يسعى عليه العَبْدُ بالكُوب

وقال قتادة: الكُوب المدوّر القصير العنق القصير العروة. والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة. وقال الأخفش: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قُطْرُب: هي الأباريق التي ليست لها عُرَى. وقال مجاهد: إنها الآنية المدوّرة الأفواه. السُّدّي: هي التى لا آذان لها. ابن عَزيز: ﴿أكواب﴾ أباريق لا عُرَى لها ولا خراطيم؛ واحدها كوب.

قلت: وهو معنى قول مجاهد والسُّدّي، وهو مذهب أهل اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عُرَى.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ روى الترمذيّ عن سليمان بن بُريدة عن أبيه أن رجلاً سأل النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من خيل؟ قال: «إنِ اللَّهُ أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك [في الجنة][٣] حيث شئت». قال: وسأله رجل فقال يا رسول الله، هل في الجنة من إبل؟ قال: فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه قال: «إنْ يُدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك». وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس﴾، الباقون ﴿تشتهي الأنفس﴾ أي تشتهيه الأنفس؛ تقول: الذي ضربت زيد؛ أي الذي ضربته زيد. ﴿وَتَلَذّ الأَعْيُنُ﴾ تقول: لَذّ الشيءُ يَلَذّ لذاذا، ولذاذة. ولَذِذت بالشيء ألَذّ (بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل) لذاذا ولذاذة؛ أي وجدته لذيذاً. والتذذت به وتلذذت به بمعنًى. أي في الجنة ما تستلذه العين فكان حَسَن المَنْظَر. وقال سعيد بن جبير: ﴿وتلذ الأعين﴾ النظر إلى الله عز وجل؛ كما في الخبر: «أسألك لذة النظر إلى وجهك». ﴿وأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ باقون دائمون؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت.

---

(١) الصريفية: الخمر المنسوبة إلى صريفون، وهي قرية عند عكبراء، أو لأنها أخذت من الدنّ ساعتئذ كاللبن الصريف (الحليب الحار ساعة يصرف من الضرع).

(٢) هو عدي بن زيد. (٣) زيادة عن سنن الترمذي.

[٧٢] ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ أي يقال لهم هذه تلك الجنة التي كانت توصف لكم في الدنيا. وقال ابن خالَوَيْه: أشار تعالى إلى الجنة بتلك وإلى جهنم بهذه؛ ليخوّف بجهنم ويؤكد التحذير منها. وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التي ينظر إليها. ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: خلق الله لكل نفس جنة وناراً؛ فالكافر يرث نار المسلم، والمسلم يرث جنة الكافر؛ وقد تقدم هذا مرفوعاً في ﴿قد أفلح المؤمنون﴾[١] من حديث أبي هريرة، وفي ﴿الأعراف﴾[٢] أيضاً.

[٧٣] ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

الفاكهة معروفة، وأجناسها الفواكه، والفاكِهانيّ الذي يبيعها. وقال ابن عباس: هي الثمار كلها، رطبها ويابسها، أي لهم في الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها.

[٧٤] ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

[٧٥] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

[٧٦] ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لما ذكر أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضاً ليبين فضل المطيع على العاصي. ﴿لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم ذلك العذاب. ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من الرحمة. وقيل: ساكتون سكوت يأس؛ وقد مضى في ﴿الأنعام﴾[٣]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالمينَ﴾ أنفسهم بالشرك. ويجوز «ولكن كانوا هم الظالمون» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبر كان.

[٧٧] ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) راجع ١٢/١٠٨. (٢) راجع ٧/٢٠٨. (٣) راجع ٦/٤٢٦.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يا مالِكُ﴾ وهو خازن جهنم، خلقه لغضبه؛ إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضاً. وقرأ عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما ﴿ونادوا يا مالِ﴾ وذلك خلاف المصحف. وقال أبو الدرداء وابن مسعود: قرأ النبيّ ﷺ: ﴿ونادوا يا مال﴾ باللام خاصة؛ يعني رخم الاسم وحذف الكاف. والترخيم الحذف، ومنه ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر، فتقول في مالك: يا مال، وفي حارث: يا حار، وفي فاطمة: يا فاطم، وفي عائشة: يا عائش، وفي مروان: يا مرو، وهكذا. قال:

يا حار لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية ... لم يَلْقَها سُوقَةٌ قَبْلي ولا مَلِكُ[1]

وقال أمرؤ القيس:

أحار ترى بَرْقاً أُرِيك وَمِيضه ... كلمع اليدين في حَبِيّ مُكلّلِ[2]

وقال أيضاً:

أفاطِم مَهْلاً بعضَ هذا التدلُّلِ ... وإن كنت قد أزمعتِ صُرْمِي فأجْمِلِ[3]

وقال آخر[4]:

يا مرو إن مَطِيّتي محبوسةٌ ... ترجو الحِباء ورَبُّها لم ييأس

وفي صحيح الحديث «أي فل، هَلُمَّ». ولك في آخر الاسم المرخّم وجهان: أحدهما ـ أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف. والآخر ـ أن تبنيه على الضم؛ مثل: يا زيد؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراعِ المحذوف. وذكر أبو بكر الأنباري قال: حدّثنا محمد بن يحيى المرْوزيّ قال حدّثنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ قال حدّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو من قصيدة يخاطب بها الحارث بن ورقاء الصيداوي وكان أغار على بني عبد الله بن غطفان فغنم وأخذ إبل زهير وراعيته يساراً، فطالبهم بذلك ليردوا عليه ما أخذوه وتوعدهم بالهجاء... الخ، راجع شرح ديوان زهير ص ١٦٤ المطبوع بدار الكتب المصرية.

(٢) يروى «أصاح». والحي: السحاب المعترض بالأفق. والمكلل. المتراكب.

(٣) فاطمة هي ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر. والصرم (بالضم): القطيعة.

(٤) هو الفرزدق يخاطب مروان بن الحكم وكان واليا على المدينة فوفد عليه مادحا له، فأبطأ عليه جائزته... والحباء (بكسر الحاء المهملة): العطاء. وجعل الرجاء للناقة وهو يريد نفسه مجازا. (شرح الشواهد للشنتمري).

عيينة عن مجاهد قال: كنا لا ندري ما الزخرف حتى وجدناه في قراءة عبد الله ﴿بيت من ذهب﴾[١]، وكنا لا ندري ﴿ونادوا يا مالك﴾ أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه في قراءة عبد الله ﴿ونادوا يا مالِ﴾ على الترخيم. قال أبو بكر: لا يعمل على هذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله في الرواية عن الرسول عليه السلام؛ وكتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفى عنه الباطل.

قلت: وفي «صحيح البخاري» عن صَفوان بن يَعْلَى عن أبيه قال سمعت النبيّ ﷺ يقرأ على المنبر ﴿ونادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ علينا ربك﴾ بإثبات الكاف. وقال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني ـ أو ذكر لي ـ أن أهل النار استغاثوا بالخَزَنة فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الّذين فِي النَّارِ لِخَزَنةِ جهنم ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِن العذاب﴾[٢] فسألوا يوماً واحداً يخفف عنهم فيه العذاب؛ فردّتْ عليهم ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ قال: فلما يَئسوا مما عند الخزنة نادَوْا مالكاً؛ وهو عليهم وله مجلس في وسطها، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا: ﴿يا مالك ليقضِ علينا رَبُّك﴾ قال: سألوا الموت، قال: فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة، قال: والسنة ستون وثلثائة يوم، والشهر ثلاثون يوما، واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال: ﴿إنكم ماكثون﴾ وذكر الحديث؛ ذكره ابن المبارك. وفي حديث أبي الدَّرداء عن النبيّ ﷺ قال: «فيقولون أُدعوا مالكاً فيقولون يا مالك لِيَقْض علينا رَبُّك قال إنكم ماكثون». قال الأعمش: نُبِّئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام؛ خرّجه الترمذي. وقال ابن عباس يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة، ثم يقول إنكم ماكثون. وقال مجاهد ونَوْف البِكَالِيّ: بين ندائهم وإجابته إياهم مائة سنة. وقال عبد الله بن عمرو: أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ آية ٩٣ سورة الإسراء. راجع ١٠/ ٣٣١
(٢) آية ٤٩ سورة غافر.

[٧٨] ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم؛ أي إنكم ماكثون في النار لأنا جئناكم في الدنيا بالحق فلم تقبلوا. ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم؛ أي بيّنا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ قال ابن عباس: ﴿ولكن أكثركم﴾ أي ولكن كلكم. وقيل: أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم، وأما الأتباع فما كان لهم أثر. ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي للإسلام ودين الله ﴿كَارِهُونَ﴾.

[٧٩] ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم بالمكر بالنبيّ ﷺ في دار النَّدْوَة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجلٌ ليشتركوا في قتله فتضعف المطالبة بدمه؛ فنزلت هذه الآية، وقتل الله جميعهم ببدر. ﴿أَبْرَمُوا﴾ أحكموا. والإبرام الإحكام. أبرمت الشيء أحكمته. وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثاني، والأول سَحِيل؛ كما قال:

... ... مِـن سَحِيـلٍ[١] ومُبْـرَمِ

فالمعنى أم أحكموا كيداً فإنا محكمون لهم كَيْداً؛ قاله ابن زيد ومجاهد. قتادة: أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث. الكلبي: أم قضَوا أمراً فإنا قاضون عليهم بالعذاب. وأم بمعنى بل. وقيل: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ عطف على قوله ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٢]. وقيل: أي ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا، أم سمعوا فأعرضوا لأنهم في أنفسهم أبرموا أمرا آمنوا به العقاب.

[٨٠] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

---

(١) هذا عجز بيت لزهير بن أبي سلمى. والبيت كما في ديوانه:

يمينـا لنعـم السيـدان وجـدتمـا ... علـى كـل حـال مـن سحيـل ومبـرم

والسحيل، الغزل الذي لم يبرم.

(٢) آية ٤٥ من هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي ما يسرّونه في أنفسهم ويتناجَوْن به بينهم. ﴿بَلَى﴾ نسمع ونعلم. ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي الحفظة عندهم يكتبون عليهم. وروي أن هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا؟ وقال الثاني. إذا جَهَرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع. وقال الثالث: إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظي. وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود في سورة ﴿فُصِّلَتْ﴾[١].

[٨١] ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

[٨٢] ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ اختلف في معناه؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّي: المعنى ما كان للرحمن ولد؛ فـ ﴿إن﴾ بمعنى ما، ويكون الكلام على هذا تاماً، ثم تبتدىء ﴿فأنا أوّل العابِدِين﴾ أي الموحّدين من أهل مكة على أنه لا ولد له. والوقف على ﴿العابدين﴾ تام. وقيل: المعنى قل يا محمد إن ثبت لله ولد فأنا أوّل من يعبد ولدَه، ولكن يستحيل أن يكون له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلتَ بالدليل فأنا أوّل من يعتقده؛ وهذا مبالغة في الاسبعاد؛ أي لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيق في الكلام؛ كقوله: ﴿وإنّا أوْ إيّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[٢]. والمعنى على هذا: فأنا أوّل العابدين لذلك الولد، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد. وقال مجاهد: المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل من عبده وحده، على أنه لا ولد له. وقال السُّدِّي أيضاً: المعنى لو كان له ولد كنت أوّل من عبده؛ على أن له ولداً ولكن لا ينبغي ذلك. قال المَهْدوِيّ: فـ ﴿إن﴾ على هذه الأقوال للشرط، وهو الأجود، وهو اختيار الطبري؛ لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى. وقيل: إن معنى ﴿العابدين﴾ الآنفين. وقال بعض العلماء: لو كان كذلك لكان العَبِدِين.

(١) راجع ١٥/٣٥١.   (٢) آية ٢٤ سورة سبأ. راجع ١٤/٢٩٨.

وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني ﴿فأنا أوّل العَبِدِين﴾ بغير ألف، يقال، عَبِدَ يَعْبَد عَبَداً (بالتحريك) إذا أنِف وغضِب فهو عَبِد، والاسم العَبَدة مثل الأنفة، عن أبي زيد. قال الفرزدق:

أولئك أجلاسي فجئني بمثلهم وأَعْبَدُ أن أهْجُو كُلَيْباً بدارِمِ

وينشد أيضاً:

أولئك ناس إن هَجَوْنِي هجوتهم وأَعْبَدُ أن يهجي كُلَيْبٌ بدارم

قال الجوهري: وقال أبو عمرو وقوله تعالى: ﴿فأنا أوّل العابدين﴾ من الأَنَف والغضب؛ وقاله الكسائي والقُتَبِي، حكاه الماوردي عنهما. وقال الهَرَوِي: وقوله تعالى: ﴿فأنا أوّل العابدين﴾ قيل هو من عَبِد يَعْبَد؛ أي من الآنفين. وقال ابن عرفة: إنما يقال عَبِد يَعبدُ فهو عَبِد؛ وقلّما يقال عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ، ولكن المعنى فأنا أوّل من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لا ولد له. وروي أن آمرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر، فذُكر ذلك لعثمان رضي الله عنه فأمر برجمها؛ فقال له عليّ: قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثلاثون شهراً﴾ وقال في آية أخرى ﴿وفصاله فِي عَامَيْنِ﴾ فوالله ما عَبِد عثمانُ أن بعث إليها تُرَدّ. قال عبد الله بن وهب: يعني ما استنكف ولا أنِف. وقال ابن الأعرابي: ﴿فأنا أوّل العابِدِين﴾ أي الغضاب الآنفين. وقيل: ﴿فأنا أوّل العابدين﴾ أي أنا أوّل من يعبده على الوحدانية مخالفاً لكم. أبو عبيدة: معناه الجاحدين؛ وحكى عَبَدَني حَقّي أي جحدني. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ﴿وُلْد﴾ بضم الواو وإسكان اللام. الباقون وعاصم ﴿وَلَد﴾ وقد تقدّم(١). ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي تنزيهاً له وتقديساً. نزّه نفسه عن كل ما يقتضي الحدوث، وأمرَ النبيّ ﷺ بالتنزيه. ﴿عما يصِفون﴾ أي عما يقولون من الكذب.

[٨٣] ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

(١) راجع ١١/ ١٥٥.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ يعني كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة. أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ إمّا العذاب في الدنيا أو في الآخرة. وقيل: إن هذا منسوخ بآية السيف. وقيل: هو مُحْكَم، وإنما أخرج مخرج التهديد. وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد وحُميد وابن القَعْقَاع وابن السَّمَيْقَع ﴿حتى يَلْقوا﴾ بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف، وفتح القاف هنا وفي ﴿الطور﴾(١) و ﴿المعارج﴾(٢). الباقون ﴿يُلاَقُوا﴾.

[٨٤] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

هذا تكذيب لهم في أن لله شريكاً وولداً؛ أي هو المستحق للعبادة في السماء والأرض. وقال عمر رضي الله عنه وغيره: المعنى وهو الذي في السماء إله في الأرض(٣)؛ وكذلك قرأ. والمعنى أنه يعبد فيهما. وروي أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما ﴿وهو الذي فِي السماءِ اللَّهُ وفِي الأرضِ اللَّهُ﴾ وهذا خلاف المصحف. و ﴿إِلٰهٌ﴾ رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي وهو الذي في السماء هو إلٰه؛ قاله أبو علي. وحسن حذفه لطول الكلام. وقيل: ﴿في﴾ بمعنى على؛ كقوله تعالى: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جذوع النخل؛ أي هو القادر على السماء والأرض. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ تقدّم(٤).

[٨٥] ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة؛ وقد تقدّم(٥). ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي وقت قيامها. ﴿وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿وإليهِ يرجعون﴾ بالياء. الباقون بالتاء. وكان ابن مُحَيْصِن وحُميد ويعقوب وابن أبي إسحاق يفتحون أوله على أصولهم. وضم الباقون.

---

(١) آية ٤٥. (٢) آية ٤٢. (٣) في بعض نسخ الأصل: «... في السماء إله وفي الأرض...». (٤) راجع ١/٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة. (٥) راجع ٧/٢٢٣.

[٨٦] ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿مَن﴾ في موضع الخفض. وأراد بـ ﴿ـالذين يدعون مِن دونِهِ﴾ عيسى وعُزَيْراً والملائكة. والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة؛ قاله سعيد بن جبير وغيره. قال: وشهادة الحق لا إله إلا الله. وقيل: ﴿من﴾ في محل رفع؛ أي ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة؛ يعني الآلهة ـ في قول قتادة ـ أي لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق؛ يعني عُزيراً وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما شهدوا به. وقيل: إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث وَنَفَراً من قريش قالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولّى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه؛ فأنزل الله ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلا مَنْ شَهد بِالحق﴾ أي اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة. ﴿إِلاَّ مَنْ شَهدَ بِالْحَقِّ﴾ يعني المؤمنين إذا أذِن لهم. قال ابن عباس: ﴿إلا من شهِد بِالحق﴾ أي شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وقيل: أي لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق؛ فإن من شهد بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك. و ﴿إلا﴾ بمعنى لكن؛ أي لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق؛ فهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأن في جملة ﴿الذِين يدعون مِن دونِهِ﴾ الملائكة. ويقال: شَفَعْته وشَفَعْت له؛ مثل كِلْته وكِلْت له. وقد مضى في ﴿البقرة﴾ معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها[1]. وقيل: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالحق﴾ إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق في الدنيا، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به، أو بأن شاهدوه على الإيمان.

---

(١) راجع ١/٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدل على معنيين: **أحدهما** ـ أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقيد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة. **والثاني** ـ أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالماً بها. ونحوه ما روي عن النبيّ ﷺ «إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فَدَعْ وقد مضى في ﴿البقرة﴾[1].

[٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي لأقرّوا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له. يقال: أَفَكَه يأفِكه أَفْكاً؛ أي قلبه وصرفه عن الشيء. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾[2]. وقيل: أي ولئن سألت الملائكة وعيسى ﴿من خلقهم﴾ لقالوا الله. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي فأنّى يُؤفك هؤلاء في ادعائهم إياهم آلهة.

[٨٨] ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

في ﴿قِيلِهِ﴾ ثلاث قراءات: النصب، والجَرّ، والرفع. فأمّا الجَرّ فهي قراءة عاصم وحمزة. وبقية السبعة بالنصب. وأما الرفع فهي قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب. فمن جرّ حمله على معنى: وعنده علم الساعة وعلم قِيلِه. ومن نصب فعلى معنى: وعنده علم الساعة ويعلم قِيلَه؛ وهذا اختيار الزجاج. وقال الفرّاء والأخفش: يجوز أن يكون ﴿قيله﴾ عطفاً على قوله ﴿أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾[3]. قال ابن الأنباري: سألت أبا العباس محمد بن يزيد المبرد بأيّ شيء تنصب القيل؟ فقال: أنصبه على «وعنده علم الساعة ويعلم قيله». فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على ﴿تُرْجعون﴾، ولا على ﴿يعلمون﴾. ويحسن الوقف على ﴿يكتبون﴾[4]. وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القِيل على معنى: لا نسمع سِرّهم ونجواهم

---

(١) راجع ٣/٣٨٩.
(٢) آية ٢٢ سورة الأحقاف.
(٣) آية ٨٠ من هذه السورة.
(٤) في آية ٨٠.

وقِيلَه؛ كما ذكرنا عنهما. فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على ﴿يكتبون﴾. وأجاز الفراء والأخفش أيضاً: أن ينصب على المصدر؛ كأنه قال: وقال قِيله، وشكا شكواه إلى الله عزّ وجلّ، كما قال كعب بن زُهير:

تمشي الوُشاةُ جَنابَيها[1] وقِيلَهُمُ ... إنّك يابْنَ أبي سُلْمَى لَمَقْتُولُ

أراد: ويقولون قيلهم. ومن رفع ﴿قيله﴾ فالتقدير: وعنده قِيلُه، أو قِيلُه مسموع، أو قِيلُه هذا القول. الزمخشريّ: والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ومع تنافر النظم. وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه. والرفع على قولهم: أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك، ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون﴾ جواب القسم؛ كأنه قال: وأقسم بقيله يا ربّ، أو قيله يا ربّ قسمي، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون. وقال ابن الأنباري: ويجوز في العربية ﴿وقيله﴾ بالرفع، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا يؤمنون. المَهْدَوِيّ: أو يكون على تقدير وقِيلُه قِيلُه يا ربّ؛ فحذف قيله الثاني[2] الذي هو خبر، وموضع ﴿يا ربّ﴾ نصب بالخبر المضمر، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول وبقي بعضه؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور. والهاء في ﴿قِيله﴾ لعيسى، وقيل لمحمد ﷺ، وقد جرى ذكره إذ قال ﴿قل إن كان للرحمن وَلَدٌ﴾. وقرأ أبو قِلابة ﴿يا ربَّ﴾ بفتح الباء. والقيل مصدر كالقول؛ ومنه الخبر «نهى عن قيل وقال». ويقال: قلت قَوْلاً وقِيلاً وقالاً. وفي النساء ﴿وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾[3].

[٨٩] ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾.

قال قتادة: أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم؛ فصار الصفح منسوخاً بالسيف. ونحوه عن ابن عباس قال: ﴿فاصفح عنهم﴾ أي أعرض عنهم. ﴿وقُلْ سَلَامٌ﴾ أي معروفاً؛ أي قل لمشركي أهل مكة ﴿فسوف تعلمون﴾ ثم نُسخ هذا في سورة ﴿براءة﴾ بقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[4] الآية. وقيل: هي مُحْكَمة لم تنسخ. وقراءة العامة ﴿فسوف

---

(١) أي ناحيتيها. (٢) في «الأصول»: «الأوّل». (٣) آية ١٢٢. (٤) آية ٥.

يعلمون﴾ (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيّه بالتهديد. وقرأ نافع وابن عامر ﴿تعلمون﴾ (بالتاء) على أنه من خطاب النبيّ ﷺ للمشركين بالتهديد. و ﴿سَلَامٌ﴾ رفع بإضمار عليكم؛ قاله الفراء. ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيّة لهم؛ حكاه النقاش. وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرّفه بذلك كيف السلام عليهم؛ والله أعلم.